ألكسندرا كولنتاي



٢٠

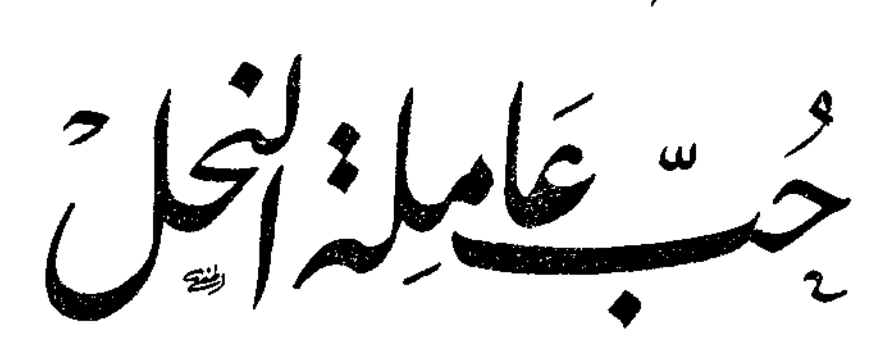
حب عاملة النحل

ترجمة:
مؤنس الرزاز



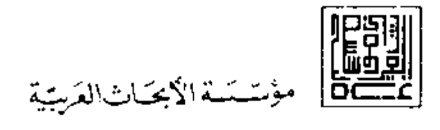

حب عاملة النحل

ألكسندرا كولنتاي



ترجمة: مؤنس الرّزاز

٢٠



* الكسندرا كولنتاي: **حب عاملة النحل.**

* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨٥.

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية** ش. م. م.

ص. ب ٥٠٥٧ ـ ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان
هاتف ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩ دلتا ـ لبنان

* تصميم الغلاف: **نجاح طاهر.**

* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية:

Alexandra Kollontai: *Love of Worker Bees*

Cassandra Editions 1978 Chicago

مقـــدمة

الأهمية الأساسية لهذا الكتاب تعود إلى مؤلفته. فالكسندرا كولنتـاي، المناضلة، والتي كانت من أبرز الذين طـرحوا مـوضوع تحـرر المرأة داخـل الثورة البولشفية، تستعير في هذا الكتاب الشكل الروائي. لتعبر من خلاله عن مشكلات وصعوبات تحرر المرأة، وعن التناقضات الجديـدة التي بدأت تبرز بعد انتصار الثورة الاشتراكية.

والكسندرا كولنتاي، ابنة الجنـرال السابق في الجيش القيصـري، التي تترك زوجها عام ١٨٩٨ لتعيش تناقضـات شبيهة بتنـاقضات الـرواية التي كتبت، هي في الأسـاس كاتبـة اجتماعيـة حول تحـرر المرأة، إذ أصـدرت مجموعة من الكتب: «الشيوعية والمرأة»، «الأخلاق الجديدة والطبقة العاملة» «الأسس الاقتصادية لمسألة المرأة»، وهي واحدة من المجمـوعة القليلة التي رافقت لينين في قطار العودة عبر المانيا إلى روسيا، وشغلت منصب مفوضة الشعب لشؤون الخدمات العامة في أول حكومة ثورية يرأسها لينين.

المسائل الأساسية التي حاولت كولنتاي إثارتهـا في كتابـاتها تتلخص في ثلاثة محاور.

- ربط النضـال النسـائي بـالنضـال الـطبقي، ورفض الاتجـاه النســوي البرجوازي الذي يريد أن يفصل قضية تحرر المرأة عن النضال الاجتماعي والطبقي.

- التركيز على البيوت الجماعية، والدعوة إلى رفض العائلة البرجوازية. وقد أثمر هذا التركيز انتشاراً واسعاً لفكر البيوت الجماعية في الفترة الأولى لانتصار الثورة.

- الدعوة إلى أخلاق جديدة، وربط النضال البروليتاري السياسي والايديولوجي بالدعوة إلى أخلاق تتأسس حول مبدأ الحرية والمساواة.

في روايتها هذه، وفي بعض القصص الأخرى التي نُشرت نلمس التناقضات الأولى التي صاحبت انتصار الثورة الاشتراكية، خاصة بعد تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، ومع محاولة الدولة الاشتراكية تجاوز المشكلات التي خلفتها الحرب الأهلية.

والتناقضات لا تبرز هنا عادية، بل هي تشير إلى المسألة المركزية التي حاولت كرلنتاي إثباتها، والنضال من أجلها، قبل أن ينتهي بها المطاف في المنفى كعضوة في الوفد التجاري السوفياتي في أوسلو، هي العلاقة بين الأخلاق الثورية الجديدة وبين العاطفة الإنسانية. فبطلة القصة فاسيليسا، على الرغم من «نموذجيتها»، ووضعيتها «كبطل إيجابي» بالمعنى الواقعي الاشتراكي، لا تنتقل إلى الأخلاق الجديدة إلا عبر توترات شخصية حادة، ولا تكتشف أهمية العلاقة الحرة بين الرجل والمرأة، إلا لأنها تربط هذه العلاقة بأفق سياسي محدد.

الرواية بهذا المعنى هي وثيقة سياسية - أدبية. إنها تنقل تفاصيل المخاض الذي عاشته الثورة الاشتراكية، والتناقضات المختلفة التي عصفت بها، والحلم الثوري بتأسيس مجتمع جديد وقيم جديدة، لا تمسّ الحياة العامة فقط بل وتنتقل إلى الحياة الشخصية.

عندما نشرت كولنتاي روايتها هذه عام ١٩٢٣ كجزء من سلسلة «الثورة في المشاعر والأخلاق»، اعتبرت روايتها بأنها تركز على القضايا الجنسية، ثم اعتبرت بعد ذلك كنموذج للانحطاط البرجوازي الصغير. مما

كان يعني أن هذه الرواية لم تصل إلى أيدي القراء الذين أرادت نقل تجربتهم والتعبير عنها.

عندما نقرأ هذه الوثيقة اليوم، فإن ما يستوقفنا فيها هو الجرأة على طرح مسائل طليعية ما تزال إلى اليوم خاضعة لنقاش متصل من جهة، وقدرتها على أن تقدم وصفاً حياً، من وجهة نظر امرأة مناضلة، للتحولات التي شهدتها الثورة الاشتراكية.

بهذا المعنى، فإن القيمة الأدبية للرواية هي في ما تدل عليها، في الأسئلة التي تطرحها، وفي المعاناة والتجارب التي تخوضها بطلتها، وهي تجارب شبيهة إلى حد مابتجارب كولنتاي نفسها، من أجل تأسيس نظام جديد من القيم، ما يزال إلى اليوم بحاجة إلى تأسيس.

فاسيليسا ماليغينا

- ١ -

فاسيليسا ماليغينا فتاة في الثامنة والعشرين من العمر وتعمل في معمل حياكة. إنها فتاة مدينية حقاً. فهي نحيلة وتعاني من سوء التغذية. شعرها جعدي وقصير إذ إنها قصته حين أصيبت بمرض التيفوئيد (التيفوس). وإذا لمحها المرء عن بعد فقد يخالها صبياً بصدرها الضامر وقميصها الروسي.

صحيح أنها لم تكن جميلة، عيناها البنيتان فريدتان ورائعتان. ومجرد التطلع إلى هاتين العينين كان يبعث في الناظر شعوراً من الفرح.

كانت فاسيليسا فتاة بلشفية، انتسبت إلى البلاشفة حين اندلعت الحرب. كانت تبغض الحرب، ولهذا كانت تتجادل مع بقية العاملات اللواتي كن يعملن بحماسة لإرسال الثياب إلى الجبهة ويشتغلن ساعات إضافية في سبيل انتصار روسيا.

كانت تقول إن الحرب مأساة دموية ـ ونحن في غنى عنها. إنها عبء على كاهل الشعب. وما ذنب هؤلاء الشباب الذين يسعون إلى الجبهة كي يُقتلوا؟ الحرب مأساة وكارثة.

وكانت كلما مرت بمجموعة من الجنود في الشارع تشيح بوجهها معرضة. وتفكر: كيف يسعهم أن يمشوا هذه المشية العسكرية المباهية ويغنوا ويبتهجوا وهم في طريقهم إلى مصرعهم وكأنهم في عطلة! ولماذا لا يرفضون الذهاب إلى الحرب. لماذا لا يقفون ويقولون نحن لن نذهب إلى الجبهة، لا

نرغب في الموت ولا في قتل الآخرين. لو فعلوا ذلك لما كان ثمة حرب.

كانت فاسيليسا مثقفة، فلقد علمها والدها المنضد (صفاف حروف) القراءة باكراً. فراحت تطالع وأحبت أعمال تولستوي وبالتحديد قصصه الشعبية.

وبسبب ميولها السلمية وموقفها من الحرب كادت أن تُطرد من المعمل ...ت العاملة الوحيدة التي تقف ضد الحرب - لولا أن المعمل كان بحاجة لكل يد عاملة. وعندما ذاع صيت موقفها وانتشر، لقبها العمال بـ «التولستووية» نسبة إلى تولستوي. وجعلت كل العاملات في المعمل يعرضن عنها بسبب موقفها من الحرب والذي كن يعتبرنه موقفاً خيانياً استسلامياً. وكنّ يصفنها يائسين بأنها «قضية خاسرة».. لا جدوى منها.

ولم يمض وقت طويل حتى بلغ موقفها من الحرب آذني منظم الحزب في المنطقة. فأرسل في طلبها. وسرعان ما اكتشف أنها واثقة من آرائها وأنه يمكن الاعتماد عليها، فضلاً عن أنها جديرة بالعمل الحزبي. وهكذا اقتربت فاسيليسا تدريجياً أكثر فأكثر إلى البلاشفة. ولم يكن هذا التقرب من البلاشفة ابن ساعته. فقد ناقشت أعضاء اللجنة طويلاً في البداية، فكانت تمطرهم بالأسئلة. وكانت تغادر الاجتماعات أحياناً وهي مفعمة بغضب عاصف. ولكن شيئاً فشيئاً أخذت تتفهم مواقفهم بوضوح أكثر، وفي النهاية بادرت فاقترحت عليهم أن تبدأ نشاطها الحزبي. هكذا أمست فاسيليسا بولشفية.

وسرعان ما أثبتت جدارتها في مجال النشاط بين الجماهير إذ كانت خطيبة مفوهة. فلم تتلعثم ولم تفتقر إلى الكلمات المناسبة أبداً، وكانت تدير الجدال مع المناشفة والاشتراكيين الثوريين بمهارة وبراعة. وإذا كانت بقية النساء في المعمل خجولات وذوات ألسن معقودة فإن فاسيليسا كانت فصيحةٍ وجريئة تتحدث بمنطق وشجاعة. وسرعان ما اكتسبت ثقة الرفاق في الحزب واحترامهم، حتى أنهم قرروا أن تمثلهم في «الدوما» Town Duma

خلال عهد حكومة كيرنسكي الموقتة. مما جعل العاملات يفتخرن بها، ومنذ ذلك الوقت بات كل ما تقوله فاسيليسا بمثابة القانون أو الكلام المنزل عندهن. وتمكنت فاسيليسا من إقامة علاقات طيبة حتى مع النساء الأكثر محافظة. وحتى حين كانت تنهرهن وتصرخ في وجوههن كن يعتقدن أنها تدرك حقيقة الأمور أكثر منهن، فهي تعمل في المعمل منذ كانت صبية صغيرة.

كانت فاسيليسا تشعر أنها إن عجزت عن تفهم حاجاتهن فإن أحداً لن يتفهم هذه الحاجات. ولكن رفاقها لم يقتنعوا بجدوى النشاط بين هؤلاء النسوة. كانوا يقولون: «عليك الانصراف عنهن، لدينا أمورٌ أكثر أهمية ينبغي أن نركز عليها».

طالما أثار هذا الموقف غضب فاسيليسا التي كانت تلح على تجاوب الحزب مع متطلباتها. وكثيراً ما تساءلت فاسيليسا لماذا تعتقدون أن قضايا المرأة أقل أهمية من أمور أخرى؟ لطالما عوملت النساء هكذا! لا أستغرب كونهن محافظات! كيف يمكنكم أن تأملوا القيام بثورة ناجحة دون أن تضعوا للنساء موقعاً في حساباتكم؟ دور النساء دور خطير وأساسي. إذا كسبنا النساء إلى جانبنا.. ربحنا نصف المعركة.

كانت تدرك جيداً ما الذي تريده، وكانت تناضل بصلابة دفاعاً عن مواقفها. وما أن أقبل العام ١٩١٨ حتى باتت مناضلة بلشفية أصيلة. عبر سنوات الجزر سقط الكثيرون ويئسوا، فانصرفوا عن النضال. أما هي فما كانت تكلّ أو تملّ من النشاط. فقد كانت تلقي الخطب وتجادل وتناظر وتنظم. على الرغم من أن نحافتها وشحوبها كانا يجعلان المرء يتساءل عن مصدر هذه الطاقة والحيوية التي لا تنضب. لكن عينيها الرائعتين كانتا تجذبان الناس بدفئها ويقظتها.

في أحد الأيام وصلتها رسالة. كانت تنتظرها بفارغ الصبر منذ أمد بعيد. رسالة بعثها زوجها الحبيب وصديقها الذي لم تره منذ أشهر طويلة

موحشة. والفراق صعب لكنها الحرب الأهلية والجبهة الصناعية التي قذف الحزب بكل قوته وأعضائه فيها.

كانت فاسيليسا تدرك تماماً أن الثورة ليست لعبة وأن على الجميع أن يضحوا في سبيلها. لهذا كانت تعيش كل هذه الفترة وحيدة بعيدة عن زوجها، إنها تضحي في سبيل الثورة. حين افترقا كل إلى جبهته طيبت النساء خاطرها وواسينها قائلات إن الأمور ستنتهي بطريقة مرضية. وقالوا «رب ضارة نافعة، فبعده عنك يضاعف من شوقه وحبه لك». وبعدك عنه يحول دونك والملل منه.

ربما كن على حق لكنها لا تبالي بذلك. فحديث المواساة هذا لم يدفع عنها الوحشة والشوق المتواصل إليه.

في أية حال، كانت فاسيليسا تندفع في النشاط والعمل حتى إنها ما كانت تملك لحظة فراغ تكرسها لنفسها. فهي تنشط في سبيل الحزب بياض النهار وجزءاً من الليل. وتعمل بلا كلل في السوفيتات المحلية وكانت المهام تتراكض نحوها على التوالي. وهي تدرك أن عملها هذا له أهمية كبيرة وتشعر أنها تحقق بهذا النشاط ذاتها، فتستمد من العمل نشوة ومتعة. ولكن حين يرحل النهار وتعود إلى غرفتها ـ العلّية كما يسمونها في الريف ـ كانت الوحشة تداهم قلبها كريح باردة. تجلس منهكة وترتشف الشاي، تتشوق لزوجها وتستغرقها أفكار قاتمة: لا أحد يحتاج إليها، إنها بلا أصدقاء، بلا هدف محدد تناضل في سبيله. هل يهم أمرها الآخرين؟ لو كان أمرها يهمهم لشعرت بذلك.

في الفترة الأخيرة كانت تشعر بكآبة حادة نتيجة فشل مشروعها الذي أضفت عليه أهمية كبيرة ـ بيت جماعي ـ وها هم الجميع الآن يشتمون ويهينون بعضهم البعض. بدا لها وكأن أحداً لا يدرك أهمية الحياة الجماعية. إنهم يرغبون عن خوض هذه التجربة. ولعلهم، غير قادرين عليها. لقد أهانها أولئك الذين يقيمون في المنزل. وكانوا يضنون عليها بحصتها الفائضة

باعتبارها عاملة ذات امتيازات. «لتذهب حصتي إلى الجحيم.. بوسعي أن استغني عنها» وعلى الرغم من نجاح رفاقها في تطييب خاطرها وتهدئتها فإن ذلك لم يدفع عنها الارهاق والتوتر اللذين يدكانها دكاً.

هكذا مضى فصل الشتاء. وكانت تقضي معظم الليالي جالسة في غرفتها متكئة بمرفقيها على الطاولة، تقضم الفاكهة لتوفر السكر وتفكر في الغد ومحنه. دهمها شعور باليأس، لا أمل للثورة بالنصر، معارك خاسرة وطعنات في الظهر.

لو كان ڤولوديا هنا لخففت عن كاهلها بمجرد أن تتحدث إليه عما يؤرقها، ولكان عانقها وضمها. وتتذكر تلك الأيام حين كانت تسأله:

- ما الذي يثيرك الآن يا ڤاسيا؟ كلما رأيتك تقف هناك أمام الآخرين بدوت لعيني كائناً شكساً صغيراً. تقول إنك لا تخشى شيئاً. ولكن انظر إلى نفسك الآن منكمشاً كالعصفور.

وما أن تقول ذلك حتى يقبض عليها بذراعيه القويتين ويحملها ثم يدور بها في الحجرة، يهدهدها وكأنها طفلة. هذه الذكرى جعلت قلبها يخفق بالبهجة والحب ويتلهف للزوج الوسيم الطيب الذي يحبها.. يحبها كثيراً.

كلما فكرت فاسيليسا به سقطت في الكآبة وبدت لها الأشياء في التتخيتة (العلّية) الموحشة قاتمة. ولكن بينما كانت تغسل كوب الشاي تساءلت ما الذي تريده من الحياة أكثر مما لديها؟ لا شيء إلا المتعة؟ هل ترغب فعلاً بملازمة ڤولوديتشكا لها طوال الوقت هي التي تحب عملها ويحترمها أصدقاؤها؟ الثورة ليست مشواراً أو عطلة للراحة. هكذا كانت تذكر نفسها. على الجميع أن يضحوا. إذن ألست تبالغين في طلباتك وتوسلاتك يا فاسيليسا ديمنتيڤنا؟ تذكري أن كل شيء بات للجميع الآن... كل شيء مشترك.. كل شيء للثورة.

حاولت أن تتذكر كيف بدأت كل هذه الضجة في المنزل الجماعي.

وتذكرت كيف عزمت على انشاء منزل نموذجي تنتشر فيه الروحية الشيوعية. على الرغم من أن هذا المشروع لا علاقة له بعملها في الحزب أو في السوفييت. إلا أنها كانت متحمسة لهذا المشروع. فقد كانت تأمل بإقامة منزل لا بهدف إسكان الناس فقط حيث تعيش كل عائلة حياتها الخاصة ويكون لكل ساكن مشاربه ومعتقداته الخاصة. لا.. لم تكن فاسيليسا تؤيد هذا الأسلوب في الحياة السكينة حيث لا يفكر السكان إلا بحاجاتهم. كانت تأمل بأن يعيش السكان حياة جماعية مشتركة.

وأنشأت تخطط لإقامة مثل هذا المنزل بصبر. وراحت تنفذ مخططها شيئاً فشيئاً. وقد عانت من الخيبة تلو الخيبة نتيجة هذا المشروع. فقد أخذ المنزل منها مرتين. لكنها كانت تناضل بضراوة في سبيل استرجاعه.. وفعلاً نجحت في استرداده. وأخيراً أمسى المنزل جاهزاً بمطبخه ومغسلته وصالته وغرفة الطعام وكلها كانت جماعية مشتركة. وكانت غرفة الطعام مصدر زهو وبهجة ڤاسيليسا. ولم يخل المنزل من مكتبة أيضاً حيث استعملت غرفة المكتبة كغرفة اجتماعات كذلك.

في البداية سارت الأمور سيراً رائعاً. كانت النساء اللواتي يسكن في المنزل يغمرنها بالقبلات ويصفنها بأنها «كنزهم الصغير» يقلن: «أنت ملاكنا الحارس» نحن سعيدات هنا والفضل يعود إليك. ولكن الأمور بدأت تتعقد. فقد بدأ السكان ينتقدون القوانين المعمول بها في المنزل ويعارضونها. لقد كانوا يرفضون تنظيف المنزل، وكانوا يتنازعون في المطبخ حول مسألة غسيل الصحون وأدوات الطعام. وكانت المغسلة تفيض باستمرار ولم ينجح السكان في ضخ الماء منها. وصار السكان يتجادلون ويتنازعون وعم الاضطراب في المنزل، وباتت فاسيليسا هدفاً لانتقادات الجميع ومحلاً لاعتراضاتهم، وكأنما كانت ربة البيت وكأنها ما كانت تنظم الأوضاع بطريقة صحيحة. وتفاقم الوضع حتى أن بعض السكان غادروا المنزل.

وفي غمرة هذا الاضطراب المتفاقم قرر الزوجان فيدوسيڤس ـ وهما من

السكان ـ أن يثيرا مزيداً من الشغب. فقد كانا يريان في كل شيء غلطاً وسلبية. ولم يكفا عن إبداء انزعاجهما لحظة واحدة. وكانا ينتقدان كل شيء فلا يعجبهما العجب. وكان لهم شيئاً من السطوة والسلطة في المنزل مصدرها أنهم من أوائل من سكن فيه. وبالتالي اعتبرهم أغلبية سكان المنزل ملاكين واستنوا بمنهجهم. ولكن المعضلة كانت تكمن في أن معرفة ما الذي يريدونه وما الذي يرفضونه أشبه بالمستحيل. كل ما كانت ڤاسيليسا تدركه هو أنهما كانا مصدر شقاء في حياتها، وكانا ينجحان في إثارة المشاكل يومياً.

ولا شك في أن الإرهاق والسخط قد نالا من ڤاسيليسا حتى كادت أن تنهار وتنتحب. ولكن حين شعرت أن المشروع كله قد ينهار عمدت إلى وضع قانون أو قاعدة جديدة. فقد رأت أن يدفع السكان مبلغاً من المال مقابل الماء والكهرباء والايجار والضرائب وغيرها. ولاقت في سبيل رصد كل ذلك عناء كبيراً. لكن قانونها الجديد بقي حبراً على ورق. فماذا بوسعها أن تفعل إذا كان السكان لا يملكون المال الكافي؟ فالاقتصاد الجديد جيد، لكن لم يكن بوسع المرء أن ينجز شيئاً إن لم يكن يملك النقد الكافي.

لكن ڤاسيليسا كانت مصممة على خوض هذه المعركة في سبيل مشروعها الغالي على قلبها حتى النهاية. ليس بوسعها أن تراه ينهار، فضلاً عن كونها ذات قناة لا تلين. فإذا آمنت بقضية ناضلت في سبيلها بضراوة. وهكذا سعت إلى موسكو وقضت عدة أيام تقرع أبواب المكاتب، تتحدث إلى المسؤولين والمديرين شارحة قضية المنزل. وقد نجحت في عرض قضيتها حتى أن المسؤولين قرروا أن يمنحوها بدلاً عن التصليحات ومخصصاً دائماً للمنزل.

عادت تتوهج بالفرح، إلا أن الزوجين فود وسيڤز الكريهين بددا فرحها. إذ أنهما استقبلاها بنظرة شزراء تنم عن اتهام لها بالخيانة لكونها توسلت مساعدة للمنزل. وعند ذاك عمدا إلى خطة هجومية جديدة. فراحا ينشران الشائعات الفاضحة حول ڤاسيليسا قائلين إنها تتوسل مساعدة

للمنزل كي تحتفظ لنفسها بقسم منها. كان من العسير عليها أن تتذكر كل تلك العقبات التي كان عليها أن تحتملها.

لقد كانت بحاجة شديدة إلى صديق حميم تشكو له همومها وتناقش معه الوضع. عند ذاك قر قرارها على الكتابة إلى فلاديمير تتوسله العودة. لكنه كتب جواباً قال فيه إنه هو أيضاً مشغول بقضايا هامة ليس بوسعه تأجيلها أو الانصراف عنها. وانبأها بأنه رقي فاحتل منصباً جديداً. وأنه مضطر إلى تنظيم حسابات المؤسسة التي كان يعمل فيها موظفاً. لقد كان فصل الشتاء بالنسبة له أيضاً فصل نضال شاق ولهذا فإنه لن يتمكن من العودة الآن فالمؤسسة تعتمد عليه.

إذن.. على ڤاسيليسا أن تتحمل كل متاعبها وحيدة. والذي كان يحز في نفسها هو أن أصحابها وحلفاءها، العمال، هم مصدر متاعبها. ولو كانوا برجوازيين وضد الشيوعية لهان الأمر ولما اكترثت.

ولحسن الحظ وقفت لجنة المنزل إلى جانبها. لم يتركوها تحمل القضية إلى المحكمة لكن أعضاء اللجنة قرَّ قرارهم على حل مشكلتها. فقد رأوا أن القضية قضية تشهير قائمة على الجهل والخبث. ولكن ما أن عزمت اللجنة على طرد الزوجين فيود وسيڤز حتى اعترفا بذنبهما وتوسلا ڤاسيليسا المغفرة وأكدا لها أنهما طالما احترماها. أثار انتصار ڤاسيليسا البهجة في نفسها، إذ أنها كانت مرهقة ومنهكة وقلقة إلى حدّ المرض.

بعد كل ما حدث نال منها المرض، وعلى الرغم من أنها عادت إلى العمل من فورها فقد غمرها شعور بأن شيئاً ما قد مات في داخلها وذوي. ما عادت تحب المنزل مثل سابق عهدها ـ لقد عانت الكثير من أجله. كانت تشعر كما لو أن طفلها قد تلوث وتلطخ.. حتى أن ذكريات طفولتها عادت تنبثق مجدداً. تذكرت أخيها الأصغر كولكا وهو يريها قطعة من الحلوى. وحين همت بتناولها انفجر كولكا ضاحكاً ضحكة ماكرة وقال: «انظري إليّ!

سوف أفسد الحلوى». ثم بصق على القطعة وناولها إليها قائلاً: هاك قطعتك يا ڤاسيليسا بوسعك الآن أن تأكليها إنها لذيذة الطعم».

فتحول ڤاسيليسا وجهها عنه منتحبة وتقول:

ـ صبي مقزز. لماذا فعلت ذلك.

هكذا كان شعورها نحو المنزل. ما عادت ترغب في أن تكون مسؤولة عنه بعد الآن. سوف تتعاون مع اللجنة لكنها لن تكرس وقتها كله للمنزل الآن. ليتهدم المنزل فهي لم تعد تبالي. وحتى تجاه السكان ما عادت تشعر إلا بالفتور.. ألم يتواطأوا مع الزوجين فيود وسيڤتش في التهجم عليها؟ وهكذا راحت تنأى عن السكان شيئاً فشيئاً. صحيح أنها كانت تتعاطف مع مشاكل الناس في السابق.. لكنها الآن لا ترغب إلا في أن تُترك وشأنها فتعيش بسلام. كانت ڤاسيليسا متعبة جداً..

والآن مر الشتاء الطويل. وبزغت الشمس وراحت العصافير تزقزق، وتبسمت فاسيليسا حين تذكرت كيف كان ڤولود يتشكا يناديها: عصفوري. ومع الربيع بدأت تشعر بحيوية جديدة تضطرم فيها على الرغم من استفحال فقر الدم في جسدها وصعوبة التنفس.

من خلال النافذة رنت إلى السحاب الرقيق في السماء، وسطح قصر ارستقراطي تحول الآن إلى قصر للأمومة. في الحديقة ثمة براعم تتفتح لتوها، وملأ الربيع قلبها. كم كان ذلك الشتاء بارداً. كم شعرت بالوحدة وما صاحبها من صراعات وقلق. اليوم يبدو وكأنه إجازة ترتاح فيها من كل ما مرّ بها. فات أوان التخبط في الأخطاء الآن. واليوم بالذات سيكون كل شيء على ما يرام إذ أنها تلقت رسالة من حبيبها ڤولوديا. وأية رسالة.

أرجوك يا ڤاسيا لا تعذبيني أكثر. لأنني ما عدت أحتمل فقد بهظني حملي. فأنت تغدينني دائماً بأنك ستأتين لزيارتي ولكنك لا تني تؤجلين ذلك. لو تعرفين أي شقاء تسببينه لي. إذن عدتِ أيها المناضلة الصغيرة تتنازعين

مع الجميع. الإشاعات تحوم حولك حتى أنها انتشرت هنا أيضاً. ويقول البعض أن أخبارك وصلت الصحف. أما الآن وقد ربحت المعركة فلا بد أن تأتي وتزوري حبيبك فولودكا الذي يهيم بك ويشتاق إليك. وسوف تدهشين لحياتنا الجديدة المميزة بالجلال. عندي الآن بيت خاص وبقرة، فضلاً عن وضع سيارة تحت تصرفي. ولنا خادم أيضاً، فبوسعك أن تنصرفي عن أعمال البيت وتسترخي بارتياح. الربيع هنا رائع وأشجار التفاح مجللة بالتفتح. ألا ترين أننا لم نقض ربيعاً واحداً معاً قط؟ ينبغي أن تكون حياتنا ربيعاً دائماً متصلاً، أليس كذلك يا حبيبتي؟

إنني بحاجة إليك الآن. إذ أنني أعاني من بعض المشاكل مع أعضاء اللجنة الحزبية. إنهم يتهمونني اتهامات مزعومة. ويشيرون إلى فوضويتي مرة أخرى. لقد حدثتك عن سافيليف... إنه مصدر كل هذا. أرجوك يا ڤاسيا أن تساعديني في الخروج من هذه المحنة. لقد سئمت صغارة هؤلاء. إنهم يجعلون الحياة أمراً مستحيلاً. ولكن من الصعب عليهم في أية حال توجيه النقد لي. إذ أنني أعمل بجهد.. رغم ذلك فإني احتاجك. أقبّل عينيك البنيتين.

أحبك دائماً

ڤولوديا.

جلست فاسيليسا واستغرقتها الأفكار. وشرد بصرها إلى السحب في السماء، وتبسمت مسرورة لهذه الرسالة الرائعة. إن ڤولوديا يعني كل شيء بالنسبة لها، وهو يحبها حباً جارفاً. مسدت على الرسالة التي ترقد على حجرها وكأنها تمسد شعرها غافلة عن السماء والسطح والسحب فهي لا ترى إلا ڤولوديا الجميل بعينيه الضاحكتين..

قلبها يخفق بمحبته. كيف وسعها أن تقضي الشتاء وتحتمل أزماته من دون الحبيب؟ منذ سبعة شهور لم تره. دهمها إحساس بالشقاء حين خطر لها أنها ما كانت تفكر فيه طيلة هذه الأشهر باستمرار. لقد أغرقتها شجونها

ذلك الشتاء واحتجزها عملها المتواصل. . بيساطة لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير به. لكنها وضعت حبها له في قلبها حيث بقي قوياً لا يتغير. أما الآن وقد انتصرت وأنقذت مشروعها أي البيت الجماعي فبوسعها أن تفكر وتطيل التفكير في الحب مجدداً.

تتذكره فتكاد تحس إحساساً ممتعاً بحضوره إلى جانبها. لكنها تدرك أي عبء يحملها مثل هذا الحب ـ إذ إنها دائماً قلقة عليه. فهو فعلاً يفتقر إلى أي إحساس بالمسؤولية ولا بد أن تعترف أن منتقديه الذين يتهمونه بالفوضوية لا يجانبون الصواب في اتهامهم هذا. كان يمقت تنفيذ قرارات الحزب، فهو يميل إلى إطلاق نفسه على سجيتها. ولكنه كان من جهة أخرى بارعاً على صعيد العمل.

لقد حالت حياتهما المنفصلة وبعد الواحد منهما عن الآخر دون أ ن يحدث احتكاك بينهما أو تدخل على صعيد العمل. وكان هذا الوضع مناسباً بالنسبة لڤاسيا إذ إنها ترغب في أن تمنح كل اهتمامها للعمل الذي تكون منخرطة فيه، لو كان ڤولوديا معها فإنها ستنصرف عن العمل لتبقى معه، وسيعرض هو عن عمله ليتفرغ لها. سيقول لها: «صحيح إن للعمل أفضلية على أي شيء، ولكن هناك حبنا أيضاً، وهو بأهمية العمل أليس كذلك يا ڤاسيا؟».

وستوافقه. إنها تشاركه هذا الشعور، كانت مفعمة بالثقة والبهجة لأنهما كانا رفيقين لا زوج وزوجة فحسب.

ها هو الآن يتوسلها أن تأتي، كما يسأل الصديق صديقه ويتوسله أن يساعده في حل مشكلة. قرأت الرسالة مرة أخرى ثم أخذت الظنون تلم ببالها. إذا كانت لهذه المشكلة علاقة بـ «ساڤيليڤ» فإنها أنباء مزعجة حقاً. فساڤيليڤ مضارب لا يتردد. كان على فولوديا أن يبتعد عنه. على فولوديا كموجه أن يكون فوق الشبهات وبالتالي أن يتجنب أمثال ساڤيليڤ. لكنه

كان دائماً يسرف في الثقة بالناس. فهو يعطف على أمثال سافيليف ويدافع عنهم.

لكن لا عذر للشفقة على هؤلاء الذين يستغلون الأموال العامة. وينبغي أن يعاقبوا. صحيح أن فولوديا يتمتع بقلب طيب إلا أنها لا تتوقع أن يعرف كل الناس ذلك، ولا شك في أن الناس سوف يعيدون علاقته بسافيليف لأسباب أخرى. فضلاً عن أن لفولوديا الكثير من الأعداء. إذ أنه ما إن يخرج عن طوره حتى يفقد السيطرة على نفسه كلياً. ماذا لو تكررت تلك الحادثة التي وقعت قبل ثلاث سنوات. حين رفعوا عليه قضية؟ كانت فاليسيا تدرك تماماً من تجربتها الشخصية سهولة تحطيم سمعة شخص ما..

المشكلة الآن مشكلة فولوديا. ينبغي أن تسعى إليه من فورها لتساعده وتقف إلى جانبه، فتجعل هؤلاء القوم يشعرون بالخجل نتيجة موقفهم. دهمها إحساس ملح بالمضي إليه من فورها. فما عادت تهتم كثيراً بشأن المنزل الآن. في أية حال لن تستقيم أمور المنزل تماماً، ثم.. فليذهب المنزل إلى الجحيم. صحيح أنها انتصرت من الناحية الرسمية، إلّا أن الزوجين فيود وسيفز باتا عملياً مسؤولين عن المنزل.

تنهدت، سعت إلى النافذة ورنت إلى الباحة. وقفت هناك تودع المنزل ومسحة من القتامة تميز ملامح وجهها. ثم تضرجت وجنتاها ودهمها إحساس عارم بالسعادة.

«فولوديتشكا! سوف أرى حبيبي فولوديا قريباً. آه يا حبيبي. إنني في طريقي إليك».

- ٢ -

اتخذت فاسيليسا مجلسها في عربة القطار. كانت قد قطعت مسافة يومين وبقي لها يوم يفصل بينها وبين موقع زوجها. ما كانت معتادة على السفر حاملة متاع «سيدة». لكن فلاديمير أرسل لها المال لتشتري تذكرة سفر في العربة المعدة لنوم الركاب (يبدو أن فلاديمير يملك من المال هذه الأيام ما يكفيه لشراء أي شيء يرغبه). كما أرسل لها قطعة طويلة من القماش كي تخيط منها ثوباً جميلاً. قال لها: «منذ اليوم عليك أن ترتدي ما يناسب كونك زوجة مدير».

ولم تملك فاسيليسا نفسها فضحكت حين تذكرت كيف جاءها أحد زملاء زوجها بالمال وقطعة القماش. فقد فك الرجل الرزمة بوقار وأثنى على نوعية القماش كأنه بائع متجول. ضحكت ڤاسيليسا وداعبت الرجل ممازحة، لكن الرجل لم ير سبباً للضحك. أكد لها أن نوعية القماش جيدة. بعد ذلك أمسكت نفسها إلا أنها لم تدر كيف تتعامل مع هذه الأنماط من الموظفين الإداريين الجدد.

حين رحل، راحت ڤاسيا تقلب قطعة القماش. ما كانت معتادة على التفكير في الثياب والموضة. ولكن الأمر ليس بهذه الصعوبة، كل ما عليها أن تفعله هو تحويل هذا القماش إلى ثوب على الموضة.

قصدت صديقتها الخياطة وشرحت لها الأمر.

«أرجوك يا غروشا خيطي لي ثوباً على الموضة».

فتناولت غروشا مجلة أزياء كانت إحدى صديقاتها قد أحضرتها من موسكو الخريف الماضي. وراحت الخياطة تخيط ثياباً على طراز صور المجلة طيلة الشتاء، وقد أعجب الناس بهذه الثياب.

راحت غروشا تنقب المجلة باحثة عن ثوب مناسب. وبعد أن قلبت الصفحات وتمعّنت في الصور اختارت ثوباً. قالت: «انظري يا ڤاسيا، هذا الثوب يناسبك تماماً. فأنت نحيلة وهذا الثوب يجعل الورك يبدو عريضاً، ومن أمام يخفي صدرك الضامر. سوف أخيط لك ثوباً يباهي زوجك به.

قالت ڤاسيا:

ـ عظيم يا عزيزتي غروشا.

اتفقتا على السعر، ثم تبادلتا القبل، ورحلت ڤاسيليسا والسعادة تغمرها. لقد بات ڤولوديا خبيراً في الموضة النسائية. حين كان في أمريكا عمل في أكثر من مخزن من مخازن الثياب النسائية فتجمعت لديه معلومات لا بأس بها في هذا المجال. وها هو يستفيد الآن من هذه الخبرة. على «التجار الحمر» الجدد أن يتابعوا مثل هذه الأشياء الآن. فأناقة النساء، هي في النهاية، سلعة أيضاً.

كانت ڤاسيليسا تجلس وحيدة قرب نافذة العربة. شريكتها في الغرفة كانت امرأة خشنة تتضوع بالعطور وتتحلى بالأقراط وتتدثر بالحرير.

كانت في هذه اللحظة تزور ركاب العربة المجاورة. وترامت ضحكاتها وضحكات المعجبين إلى الأسماع.

أما مع ڤاسيليسا فقد كانت نائية منطوية. تزم شفتيها وتقول:

ـ عفواً يا عزيزتي، أنت تجلسين على شالي، سوف تجعلكيه.

أو تقول:

ـ هل لك يا عزيزتي أن تخرجي وتقفي في الممر لدقيقة كي يتاح لي أن أعد نفسي لليل؟

كانت هذه المرأة المضرجة بالعطور الثقيلة تتصرف وكأنها تملك العربة، بل وكأنها تتحمل وجود ڤاسيليسا في مقطورتها عن طيبة قلب. ما كانت ڤاسيليسا ترغب في أن يقال لها «يا عزيزتي» لكنها ترغب عن مجادلة هذه المرأة. قالت لنفسها الأفضل أن أعتاد التكيف مع الآخرين بدل أن أقضي الوقت في مجادلتهم.

أقبل المساء ونشر ظلاله الزرقاء ـ الرمادية عبر حقول الربيع. وبدت الشمس الضاربة مثل كرة حمراء هائلة فوق الخط الأرجواني الذي رسمته الغابات البعيدة. وبدت الصخور وكأنها تنبثق من الحقول وتتدحرج نحو السماء. امتدت أسلاك التلغراف، وكانت الأعمدة تنهض بين الحين والآخر فتحمل الأسلاك.

بعث هذا الشفق في نفس ڤاسيليسا إحساساً ثقيلاً بالكآبة. لم يكن حزناً، كان ضرباً من التوق إلى شيء تعجز عن وصفه.

خلال الأيام القليلة الماضية كانت مفعمة ببهجة لا حد لها. تتعجل في التحضير لهذه الرحلة. وكان الجميع يشعرون بالأسى لأنها ستسافر. غمرهم الحزن لأنهم قد لا يرونها مرة أخرى. حتى المرأة فيودوسيڤ أتت وودعتها وغمرتها بالقبل والاعتذارات. شعرت ڤاسيليسا بالإحراج إذ إنها لم تكن تحقد على هذه المرأة بقدر ما كانت تعترض على هذا النموذج بشكل عام.

اصطحبتها زميلاتها إلى المحطة. حيث كانت لجنة الحزب بانتظارها، فضلاً عن أطفال المنزل الجماعي الذين حملوا أزهاراً من الورق صنعوها خصيصاً لها. في تلك اللحظة فقط أدركت ڤاسيليسا أنها لم تبدد وقتها وطاقتها هباء. فبوسعها الآن أن ترى أن بذور الحياة الجماعية التي زرعتها بدأت تنمو في نفوس هؤلاء الناس، وأنه لا بد من تفتح هذه البذور عن

أشياء إيجابية. وما أن تحرك القطار ولوّح الجميع لها بقبعاتهم حتى انهمرت دموعها وشعرت بالأسى لأنها تترك هؤلاء الأصدقاء.

ولكن سرعان ما اختفت البلدة، وراحت القرى والضواحي تومض في النافذة ثم تختفي. وخلال لحظات اختفى أيضاً المنزل الجماعي من بالها ومعه مسرّات وأحزان ذلك الشتاء، ورحلت أفكارها إلى المستقبل فسبقت القطار إلى حبيبها ڤولوديتشكا. تمنت لو يطير القطار إليه، لو يطير كما قلبها إليه...

إذن من أين انبثقت هذه الأفكار الكئيبة؟ شعرت وكأن قلبها مشدود إلى حديد بارد ثقيل وراحت الدموع تنسكب من عينيها: لعل مصدر الكآبة يكمن في أنها رحلت عن جزء من حياتها، الماضي يختفي كما هذه الحقول خارج النافذة التي تعبر عينيها وتختفي بعشبها الربيعي الناعم. حقل تلو الآخر. حقول لن يقع بصرها عليها بعد اليوم. انتحبت لوهلة بصمت، ثم كفكفت دموعها، فشعرت بالسكينة تغمرها، فكأنها قد حلت أذابت القلق في قلبها بالبكاء... واستراحت.

اشتعلت مصابيح العربة. وأسدلت الستائر عند المدخل، واستحال الجو فجأة إلى حميم أليف. تذكرت مرة أخرى أنها سوف تلتقي بڤولوديا بعد يومين، سوف تقبله مرة أخرى ـ انبثق صوته حباً في ذاكرتها، بفمه الدافىء، وذراعيه القويتين. سرت في جسدها رعشة كسل ناعسة لذيذة. وتبسمت لنفسها ولولا المرأة الجالسة إلى المرآة لانفجرت بالغناء فرحاً وحبوراً.

غادرت المرأة العربة وصفقت الباب وراءها. امرأة حمقاء! أغمضت فاسيليسا عينيها وراحت تفكر بڤلاديمير مرة أخرى، وتستحضر مراحل حبهما. لقد ذهبا في الحب منذ خمس سنوات. خمس سنوات! بدا لها وكأنهما تحابا في الأمس القريب فقط. ولكن ما بوسعها أن تتذكر يوماً لم يكن فيه ڤولوديا حبيباً وصديقاً. استرخت على المقعد الكائن في الركن وأغمضت عينيها. اهتزت العربة برفق، وأخذتها إلى النوم، لكن أفكارها كرجت

متواصلة. تذكرت كيف التقيا لأول مرة. . .

كان ذلك أثناء اجتماع، قبل ذلك «الأكتوبر» الذي لا ينسى بقليل. كانوا كمشة من البلاشفة. لكنهم تعويضاً عن عددهم الصغير كانوا يعملون بطاقة مضاعفة. كان المناشفة والاشتراكيون الثوريون المنقسمون في عز قوتهم. وكانوا يلاحقون البلاشفة ويقمعونهم ويصفونهم بـ «عملاء الألمان» و «خونة الوطن» ورغم ذلك كان عدد البلاشفة يتزايد كل يوم.

ما كان أحد يعرف كيف ستجري الأمور بالتحديد. لكن البلاشفة كانوا مصممين على تحقيق السلام، وعلى الحلول محل «الوطنيون الخونة» الذين كانوا يريدون استمرار الحرب. كان هذان الهدفان واضحين، وكان البلاشفة يناضلون لانجازهما بكل ما لديهم من طاقة وحيوية. كانوا واثقين من أنفسهم لا يساومون، تشع عيونهم بالتصميم الذي لا يلزمه كلمات تفسره. كانوا يقولون: قد نموت، لكننا لا نستسلم. ما كانوا يفكرون بأنفسهم ـ ما كان هذا أوان المشاكل الشخصية!

كتب الكثير من الكذب الأحمق عن ڤاسيليسا في صحف الاشتراكيين الثوريين والمناشفة خلال حملة عامة تهدف إلى الإساءة للبلاشفة. كانت تقول لنفسها دعهم يثرثرون ما يحلو لهم كل هذا سوف يخدم هدف البلاشفة في النهاية. فالشعب يزداد قناعة بأن البلاشفة يسيرون في الدرب القويم.

كانت أمها تنتحب وتقول:

ـ كان الأجدر بك أن تفكري بي قبل أن تنضمي إلى هؤلاء البلاشفة، لقد ألحقت العار بعائلتنا وخنت الوطن.

حتى تتجنب الخلافات العائلية، انتقلت ڤاسيليسا وأقامت مع صديقة لها. هناك لم تتأثر بدموع أمها، وتدريجياً انقطعت علاقتها بالعائلة. وراحت تعمل في سبيل البلاشفة وكأنما تدفعها قوة غامضة لا تتبين لها مصدراً. كانت عازمة على المضي في النضال والجدال حتى لو انتهى بها الأمر إلى الانهيار.

باتت النزاعات أكثر حدة، وأصبحت الأجواء للانفجار. وحين بلغتهم أنباء «بيتر» (بتروغراد) عن قرارات المؤتمر، وعن خطابات تروتسكي واجتماعات سوفيتات بتروغراد بات واضحاً أن العاصفة قادمة لا محالة - في تلك الظروف تعرفت إلى ڤلاديمير.

حدث ذلك في اجتماع يغص بالحضور. الناس يقفون على حواف النوافذ، يقتعدون الأرض والممرات حتى أن التنفس بات صعباً. ما كان بوسع ڤاسيليسا الآن استحضار غرض هذا الاجتماع لكنها لا تزال تذكر المنصة جيداً. وتذكر أن البلاشفة انتخبوا في ذلك اللقاء الجماهيري ولأول مرة كممثلين. وتكونت اللجنة من البلاشفة ويسار الاشتراكيين الثوريين وشخص فوضوي ينتمي إلى إحدى التعاونيات ويعرف ب «الأمريكي». كان هذا الشخص هو فلاديمير نفسه.

في ذلك الاجتماع وقع بصرها عليه لأول مرة رغم أنها سمعت عنه الكثير قبل ذلك. كان البعض يقول عنه بحماسة «أي رجل، إنه يجيد الخطابة بلا شك». وانتقد آخرون اندفاعه. غير أنه كان يحظى بتأييد تعاونية الخبازين ومجموعة من العمال الصناعيين، وكانوا معاً مجموعة من الملتزمين، وقوة يحسب حسابها ويعتمد عليها.

فرح البلاشفة حين زايد فلاديمير على المناشفة لكنهم غضبوا حين عارضهم. ما كان بوسعهم أن يحددوا موقفه بدقة. أما سكرتير المجموعة البلشفية فما كان يميل إليه ويقول: «من الأفضل تجنب حلفاء من أمثاله. فهو مضطرب التفكير». لكن ستيبان اليكييفيتش، وهو أحد أقدم البلاشفة المحترمين في البلدة، كان يضحك ويقول: «انتظروا قليلاً، لا تتعجلوه، سوف يصبح بلشفياً ممتازاً مع الوقت. إنه شاب مندفع متحمس. امهلوه ليشق طريقه بين كل هذه الأفكار الأمريكية المشوشة في رأسه».

ما كانت ڤاسيليسا تلتفت إلى هذا كله. إنها كانت تعرض عن كل أولئك الذين ظهروا تحت الأضواء على نحو مفاجىء. وصلت إلى الاجتماع

متأخرة، كانت تلهث متعجلة، حيث أنها ستلقي خطاباً عن صناعة (الطابوق). تلك الأيام كانت في أية حال اجتماعاً واحداً متواصلاً مديداً، فقد كانت خطيبة ذات شعبية ـ كانت الجماهير تعيرها اهتماماً بالغاً وتحبها. كانوا يعجبون بكونها امرأة عاملة، مفوهة.

وقد نجحت ڤاسيليسا بابتكار طريقتها الخاصة في الخطابة. فكانت تذهب مباشرة في خطابها إلى لب الموضوع دون ثرثرة واسهاب. وهكذا كانت دائماً تلقي الخطب في قاعات تزدحم بالحضور.

اتجهت ڤاسيليسا من فور وصولها إلى المنبر. ربت الرفيق يوروتشكن (الذي استشهد بعد ذلك وهو يحارب في الخطوط الأمامية على الجبهة) على يدها. قال:

ـ لقد انتصرنا انتخبوا البلاشفة واثنين من يسار الاشتراكيين الثوريين و «الأمريكي»، إنه على وشك الحديث الآن، إنه جيد، كما لو أنه بلشفي.

رنت فاسيليسا إلى «الأمريكي» وما أن وقع بصرها عليه حتى شعرت بالدهشة. إذن هكذا يبدو الفوضوي. ولو لم يقال لها إنه فوضوي لخمنته أفندي ارستقراطي. بياقته المشدودة وربطة عنقه وشعره المسرح بعناية. كان وسيماً أنيقاً وذا رموش مديدة تلفت النظر. حين رأته وهو يتقدم ليلقي خطابه، رفع يده إلى فمه وهو يتنحنح تأهباً.

تبسمت فاسيليسا وقالت في نفسها: «إنه يشبه أي ارستقراطي». كان صوته لطيفاً ومقنعاً تكلم بطريقة ممتعة مطولة. حديثه الساخر حمل فاسيا على الضحك، وحين انتهى من خطابه صفقت له بحماسة شأنها شأن حشد الحضور. عندما هم بالعودة إلى المنبر كاد يتعثر بڤاسيليسا، فالتفت ليعتذر. فإذا بوجه ڤاسيليسا يتورد وإذا بها تشعر بالحرج مما ضاعف من ارتباكها. غير أن الفوضوي جلس إلى المنضدة دون أن يلتفت إليها. وبدون مبالاة اتكأ بمرفقه، على ظهر مقعد وأشعل سيجارة. فمال الرئيس

وأومأ إلى سيجارته مشيراً إلى أن التدخين غير محبذ في مثل هذه الاجتماعات، فما كان من ڤلاديمير إلا أن هز منكبيه وواصل تدخينه، وكأنه يقول: «قوانينك لا تسري علي». نفث دخانه مرتين ثم قذف بالسيجارة إلى الأرض بينما كان رئيس الجلسة مشغولاً بقضية أخرى.

استحضرت ڤاسيليسا هذه الذكرى كاملة. مدت ڤاسيليسا لسانها في وجهه (!) لكنه لم يلتفت. لم يتطلع إليها إلا حين جاء دورها لتلقي خطابها. في تلك الليلة بالذات تحدثت حديثاً بليغاً مقنعاً، ورغم أنها كانت تقف وظهرها إلى فلاديمير إلا أنها أحست بعينيه ترنوان إليها. في ذلك الخطاب عمدت ڤاسيليسا عن قصد إلى الإمعان في كيل المديح إلى البلاشفة والتهجم على المناشفة والاشتراكيين الثوريين والفوضويين ـ رغم أنها لم تكن تعرف الكثير عن الفوضويين في ذلك الوقت ـ كل ما كانت تعرفه هو أنها ترغب في إثارة غيظ «الأمريكي» لأنه كان يتخذ هذه المسحة الأرستقراطية.

في ذلك الوقت كان شعرها مديداً مجدلاً حول رأسها. وفي منتصف خطابها سقطت ضفيرتها على كتفيها. وكانت هي مستثارة تتحدث بحماسة واندفاع حتى أنها غفلت نفسها ولم تلحظ الدبابيس وهي تسقط عن شعرها. حين أربكها سقوط جديلتها نحت شعرها إلى الخلف. ما لم تدركه ڤاسيليسا وقتذاك هو أن الجديلة سحرت فلاديمير تماماً.

«ما كان بوسعي أن أراك بوضوح حين كنت استمع لخطابك، ولكن حين انسكبت جديلتك على كتفيك أدركت فجأة أنني إزاء ڤاسيا المرأة والثائرة، لا الخطيبة وحسب. وكم كنت امرأة طريفة، تحتقنين وتضطربين وتتخذين هيئة الجرأة وتلوحين بذراعيك مهاجمة الفوضويين بينما شعرك ينهمر على ظهرك مثل خيوط ذهبية.. خصلات كأنها ثعابين تزحف إلى وراء. فأقسمت حين ذاك على أن أتعرف إليك عن قرب».

قال لها ڤلاديمير ذلك بعد أن أصبحا حبيبين.

حين انتهت من خطابها سارعت إلى رفع شعرها مرة أخرى. وللم كوروتشكين الدبابيس عن الأرض. قالت وهي تشعر بالارتباك والجميع ينظرون إليها:

ـ شكراً يا صديقي.

كانت تخشى الالتفات إلى «الأمريكي»، لكنها أدركت أنه لا بد قد لاحظ. لا بد وأنه يحسب أنها حمقاء. أثارت هذه الفكرة غضبها، ودهمها شعور عدائي نحوه. ولماذا تلتفت إلى ما يظنه هذا الرجل؟

انفض المجتمعون. فجأة وقف «الأمريكي» أمامها. قال:

ـ اسمحي لي أن أقدم نفسي.

وقال لها اسمه ولماذا يقف هنا.

صافحته وهنأها هو على خطابها. فتضرجت وجنتاها ثانية. وشرعا يتحدثان ويتجادلان هي تدافع عن البلاشفة وهو عن الفوضويين. غادرا القاعة المزدحمة إلى الشارع حيث المطر والريح. كان ثمة عربة تابعة للتعاونية بانتظاره. فاقترح فلاديمير توصيلها إلى بيتها. فوافقت واستقلت العربة. كانت العربة ضيقة فجلسا متلاصقين صامتين تحت سقفها الخفيض.

توقف كلاهما عن الجدال فصمتا. لم يخطر على بالهما أنهما قد يتحابان. راح الجواد يخبّ تضرب سنابكه في البرك الصغيرة، وجعل كلاهما يتحدث عن أمور عادية، عن المطر وعن اجتماع اليوم التالي في التعاونية حول صناعة الحساء. كانا يشعران بسعادة عارمة.

حين بلغا منزل ڤاسيا وآن أوان الوداع أدركا أنهما آسفان للفراق. لكنهما لم يعلقا بكلمة. قال ڤلاديمير:

ـ آمل أن لا تكون قدماك قد ابتلتا.

قالت فاسيليسا بدهشة وبهجة:

ـ قدماي؟

إنها المرة الأولى التي يهتم شخص ما بها، ويقلق من أجلها. راحت تضحك، فظهرت أسنانها البيضاء، في تلك اللحظة شعر فلاديمير برغبة جارفة في طبع قبلة على هاتين الشفتين.

أرسلت البوابة صريراً حين جاء الحارس ليفتح باب البناية لڤاسيليسا. هتف ڤلاديمير:

ـ إلى اللقاء غداً في التعاونية، لا تنسي. الاجتماع يبدأ عند الثانية بالضبط. نحن نتقيد هناك بالطريقة الأمريكية.

نحى قبعته وودعها. يممت ڤاسيليسا صوب البوابة متعجلة وكأنما تنتظر شخصاً. ثم سمعت انصفاق البوابة وباتت وحدها في الباحة المعتمة. ولتوها شعرت أن ما جرى كان أشبه بالمغامرة وسرعان ما غمرتها مشاعر القلق وهواجس الكآبة. استولى عليها شعور لم تتبين له مصدراً ولا تفسيراً جعلها تحس بالغضب والأسى. وأدركت إلى حد الألم كم هي بلا وزن، كم هي بدون قيمة.

أراحت فاسيليسا رأسها على وشاحها الصوفي في مقصورة القطار. ما كانت نائمة، لكنها كانت تحلم بالحب. وكأنما هي في السينما، دورة تلو دورة، صورة تعقب أخرى، الفرح والشقاء، كل ما عاشته مع ڤولودكا راح ينبثق أمامها. كان هذا الاستحضار للماضي بهيجاً حتى أن الذكريات التعيسة أثارت في نفسها مشاعر السرور. قالت لنفسها: كانت الأمور تعيسة أحياناً، لكن ها هي تتحسن.

واسترخت على مقعدها. اهتز القطار كأنما ليبث السكينة في نفسها، وتذكرت ڤاسيليسا اجتماع التعاونية.

كان الاجتماع صاخباً مضطرباً، والخبازون جازمين ملحّين. كان فلاديمير رئيسهم، والشخص الوحيد القادر على السيطرة عليهم وكبح جماحهم. يصيح وتنتفخ عروق جبهته توتراً. لم يلحظ دخول ڤاسيا وجلوسها في المؤخرة تتفرج.

تبنوا قراراً ينزع الثقة عن الحكومة ويطالب بسيطرة العمال على التعاونية، ثم بدأوا بانتخاب إدارتهم. وفقد المساهمون والبورجوازيون و «الدوما» مراكزهم. وبالتالي ما عادت التعاونية واحدة من تعاونيات المدينة، ولكن مجموعة من الخبازين والصناعيين يتعاونون معاً من خلال مشروع جديد متميز.

غير أن المناشفة ثاروا فأرسلوا مجموعة تابعة لهم لتتدخل. كان الاجتماع على وشك بلوغ نهايته لم يتبق إلاّ اجتماع المديرين ـ حين أطل فجأة عند الباب مفوض المناشفة، المسؤول الرئيس في المدينة، وأحد رجال كيرنسكي. كان مصحوباً بمجموعة من قادة المناشفة والاشتراكيين الثوريين. وما أن وقع بصر فلاديمير عليهم، حتى لاحت نظرة ماكرة في عينيه. وسارع إلى القول:

ـ أيها الرفاق. أعلن نهاية الاجتماع. لم يتبق لدينا سوى تنصيب مديري تعاونية الخبازين الثورية الجديدة. غداً سوف نعقد اجتماعاً عاماً لدراسة أمور أخرى، أما الآن فبوسعنا جميعاً العودة إلى منازلنا. تحدث بهدوء وبنبرة واثقة، ثم نهض المجتمعون. هتف المفوض بامتعاض:

ـ لحظة، لحظة يا رفاق، لا تفضوا الاجتماع لو سمحتم.

هتف فلاديمير:

ـ لكنك تأخرت أيها المفوض. الاجتماع انتهى. إذا شئت الاطلاع على مقرراتنا فأهلاً وسهلاً ها هي هناك. كنا قد عزمنا على إرسال وفد ليتباحث معك، ولكن بما أنك جئت إلى هنا شخصياً فهذا أفضل. آن الأوان لكي

تتعلم أن التواصل الثوري يتطلب أن يأتي المسؤولون إلى المنظمات العمالية حتى يستعلموا.

وقف فلاديمير بثبات وراح يلملم أوراقه، ولكن عينيه وارتا نظرة خبيثة. هتف الحشد بالقاعة: «هذا صحيح» وانفجر البعض بالضحك. احتج المفوض وسعى نحو ڤلاديمير وهو يتحدث بعصبية وإثارة. فما كان من ڤلاديمير إلا أن رمقه بنظرة ملؤها المتعة. تكلم بصوت واضح مرتفع وكانت أجوبته تسمع في أرجاء القاعة. وصفقت الجماهير لفلاديمير وأطلقوا صيحات الابتهاج حين دعا فلاديمير المفوض لحضور حفلة بمناسبة تسليم التعاونة من قبل البورجوازيين إلى الخبازين. هتفوا «إن هذا الأمريكي حاد وسليط». مما حمل المفوض على مغادرة القاعة بعدما يئس من تحقيق أي انجاز. وهدد أثناء خروجه باللجوء للقوة. فصاح فلاديمير وقد اتقدت عيناه:

ـ حاول أن تلجأ للقوة.. وسترى.

ورددت الجماهير كلماته. وامتلأ جو القاعة بالوعيد والتهديد حتى أن المفوض وجماعته اضطروا إلى مغادرة القاعة من باب جانبي. إلا أن الصخب لم يتبدد.

وقد تأجل اجتماع الإدارة حتى المساء لكي يتسنى للناس تناول الطعام. كانوا جميعاً في الاجتماع منذ الصباح وقد نال منهم التعب والارهاق.

كانت ڤاسيا تتجه نحو البوابة مع الآخرين حين نبت أمامها ڤلاديمير مبتسماً أنيقاً مختلفاً عن الآخرين بسترته النظيفة الزرقاء. إلا أنه لم يبد اليوم لعيني ڤاسيا ارستقراطياً، لقد شعرت ڤاسيا اليوم أنه واحد منهم. لا بد وأنه بلشفي. كان جريئاً لا يعرف التردد ولا يرده راد. بوسعها أن تتخيله يواجه الرصاص ـ حتى ولو كانت ياقته منشاة.

استولت عليها رغبة مفاجئة بترك يدها في يده الكبيرة الواثقة. ها هي

تقابل رجلاً تعتقد أنه بوسعها قضاء حياتها سعيدة مطمئنة معه. ولكن ما الذي قد تعنيه هي بالنسبة لشخص مثل ڤلاديمير؟ رأت نفسها عبر عينيه وتنهدت. بدا لها وسيماً، قد رأى العالم، إذ كان في أمريكا. أما هي فمن تكون؟ مجرد شيء صغير لم تقع عيناه البسيطتان على شيء وراء حدود البلدة. كيف يمكن لمثله أن ينظر إليها نظرة جادة؟ بل إنه حتى لم يلحظها اليوم.

اقتحم صوت ڤلاديمير أفكارها.

ـ مرحباً يا رفيقة ڤاسيليسا. لقد نجحنا في إحراج المفوض أليس كذلك؟ علمناه درساً. إنني على يقين من أنه لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى. منذ الآن سوف نكتفي بإرسال قراراتنا لهم من أجل إعلامهم وحسب.

كان ڤلاديمير مبتهجاً وكان مزاجه جيداً، تبادلا الحديث والضحك، ولو لم يجره أصحابه بعيداً لتابعا الحديث في الممر أطول مدة، يبحثان قصة المفوض ويتناولان القرارات التي اتخذها المؤتمر.

قال لها بصوت ينم عن الحسرة:

ـ إيه، لا بد أن أذهب الآن يا رفيقة ڤاسيليسيا.

سرت في نفسها رعدة البهجة ورفعت عينيها البنيتين نحوه. توقف ڤلاديمير من فوره وحدق إلى عينيها كما لو إلى قلبها. شعرت وكأنه يغرق في هاتين العينين.

هتف أصحابه:

ـ هيا يا ڤلاديمير، لا تتلكأ، تأخرنا.. وأشغالنا تتراكم ومهامنا تزداد.

هتف:

ـ سوف آتي.

ضغط على يد ڤاسيا ومضى. ومضت ڤاسيا أيضاً تتمشى عبر شوارع المدينة ولا تدري إلى أين تذهب، غافلة عن كل ما حولها، فكأنها لا تبصر

العابرين ولا الشوارع. . فقط فلاديمير. ما حدث لها مثل ذلك في حياتها أبداً.

ثم ازدادت مناسبات لقاءاتهما. ففي إحدى أمسيات شتاء جليدي كانا يغادران اجتماعاً للسوفيات معاً. كانت السماء باهرة والثلج متناثر على الأرض والأسطح والسياجات ويجلل الأشجار برقائق ريشه الأبيض. مضت أيام أكتوبر، وانتقلت السلطة إلى أيدي البلاشفة الذين قبضوا عليها بثقة. لقد هزم المناشفة والجناح اليميني للاشتراكيين الثوريين. رغم أن الأمميين ظلوا يشكلون مشكلة. مجموعة واحدة تسيطر الآن ـ البلاشفة. قوتهم تزداد والعمال جميعاً يلتفون حولهم. لم يبق من مناهض لهم سوى البورجوازية والقساوسة والضباط، إلا أن السوفيات لم يفسحوا لهم المجال أبداً. أمواج الثورة لم تهدأ بعد ولم تتوقف، ولم تعد الحياة إلى طبيعتها العادية بعد. الحرس الحمر يطوفون في شوارع المدن والقرى وكانت تقع صدامات خفيفة هنا وهناك. لكن رغم كل شيء بدا وكأن الصراع الأكثر ضراوة قد حسم الآن.

كان ڤاسيليسا وڤلاديمير يتكلمان عن تلك الأيام التي استولوا فيها على السلطة في البلدة. وقد حقق جماعة ڤلاديمير من الخبازين الانتصار في ذلك اليوم. كان ڤلاديمير الذي انضم إلى الحرس الأحمر معهم يحمل شارة الذراع الحمراء وقبعة الفرو. وقد تعرض لاطلاق النار أيضاً، ورأت ڤاسيا الثقب الذي أحدثته رصاصة في كتف سترته.

رغم أنهما كانا يتقابلان كثيراً، إلا أنهما ما كانا يتمتعان بالوقت الكافي ليتحادثا بعمق. الآن، ودون تخطيط مسبق، تركا الاجتماع معاً، وشعر كلاهما من فوره بالسكينة والراحة. لدى كل منهما الكثير ليقوله للآخر، مثل صديقين قديمين. ثم توقفا فجأة عن الكلام، وقد غمرهما شعور عارم بالاندماج.

عبرا منزل ڤاسيا دون أن يلاحظاه، وقبل أن ينتبها كانا يتجولان في

ضواحي البلدة. ويتوقفان تملأهما الدهشة ثم ينفجران ضاحكين. أين هما من المكان؟ وقفا يتطلعان إلى نجوم السماء المتوهجة لا يتزحزحان. في تلك اللحظة الجميلة شعرا بأنهما شابان وسعيدان.

قالت ڤاسيا:

ـ في الريف حيث نشأت، يعرف الناس الوقت من النجوم. ما كان عندنا ساعة. كان أبي يعرف كل نجمة، ويعرف كيف يحدد الوقت بدقة.

وراح فلاديمير يحدثها عن طفولته. عن عائلته الفلاحية الفقيرة. كان يتوق إلى الذهاب إلى المدرسة، لكن المدرسة كانت بعيدة جداً. فاقترح على ابنة القس ان يطعم أوزتها مقابل تعليمه القراءة والكتابة فوافقت. وكان صوت فلاديمير يرق كلما تحدث عن الريف، وعن الحقول والأشجار قرب منزل والديه. وشعرت فاسيا أنه رائع. وبدا لها منذ تلك اللحظة أعز إلى قلبها من أي وقت مضى.

حدثها عن مراهقته، وكيف رحل إلى أمريكا في ذلك العمر مصمماً على أن يبني لنفسه مكانةً هناك. بعد سنتين من العمل على سفينة شحن وضع اسمه على القائمة السوداء لأنه شارك في اضراب. فاضطر إلى الرحيل عن تلك الولاية. عرف الجوع وعمل في أي عمل كان يعرض عليه.

في البداية عمل منظفاً في فندق فخم. آه لو رأت كل أولئك النزلاء الأنيقين. وليتها رأت النساء.. بثيابهن الباذخة وجواهرهن وحريرهن.

ثم عمل بواباً في دار للموضة. هناك كانوا يدفعون له أجراً مجزياً، لكنهم لم يعرضوا عليه العمل إلا لأن طوله وعرضه يناسبان بدلة العمل. كانت تلك الوظيفة مملة إلى أبعد حد. وكثيراً ما أثار منظر الزبائن الأغنياء الأنيقين غضبه. وعمل سائقاً لدى تاجر قطن غني. كان يجتاز مئات الأميال عبر أمريكا في سيارة الليموزين الفارهة. لكنه سرعان ما مل هذا العمل أيضاً ـ إنها أجرة العبيد شأنها شأن الوظائف الأخرى التي عمل بها. في أية

حال، شجعته هذا الوظيفة الأخيرة على الدخول إلى عالم تجارة القطن. وأصبح كاتباً وبدأ يأخذ دروساً في المحاسبة. وفي (فبراير) ١٩١٧ انفجرت الثورة في روسيا. فهجر كل شيء من فوره وعاد إلى روسيا.

قال: لكن أمريكا عالم آخر. أحب أشياءً كثيرة فيها. مثلاً، التاجر وقف إلى جانبه، حين قبض عليه وزج في السجن بتهمة الانتماء إلى منظمة محرمة بعد أن اصطدم مع رجال الشرطة، بل إن رجل الأعمال هذا دفع كفالة وأخرجه من السجن. لقد أثر فيه طابع الولاء هذا.

وسارا وسارا، يعبران الشارع تلو الشارع، وڤاسيا تصغي إلى حديث ڤلاديمير الذي ما كان يكف عن الكلام وكأنه يرغب في أن يقص حياته كلها. بلغا بوابة منزل ڤاسيا مرة أخرى. سألها ڤلاديمير:

ـ هل تسمحين لي أن أدخل وأتناول الشاي معك؟ حلقي جاف ولا أشعر بالنعاس؟

ترددت ڤاسيا: فمن المؤكد أن زميلتها التي تشاركها المسكن قد نامت. ولكن لا بأس. سوف توقظها فيتناول ثلاثتهم الشاي، وهذا أدعى للبهجة في أية حال. ولماذا لا تدعو حبيبها إلى الداخل؟ ما كان بوسعها أن تتركه في تلك اللحظة.

دخلا، ساعدها في إعداد السبماور. قال:

ـ على المرء دائماً أن يساعد السيدات. هذه مسألة مفروغ منها في أمريكا.

جلسوا إلى الشاي، وراحا يضحكان ويداعبان زميلة ڤاسيليسا التي أيقظاها وانتزعاها من السرير والتي جلست ناعسة تطرف بعينيها. كانت ڤاسيليسا طافحة بالسعادة.

طفق ڤلاديمير يتحدث عن أمريكا مرة أخرى. عن النسوة الجميلات اللواتي كن يأتين إلى (دار الأزياء) بجواربهن الحريرية وسياراتهن بينما هو

يفتح الباب لهن بزيه المزركش وقبعته المعقوفة ذات الريش. ذات مرة دسّت امرأة ورقة في يده تقترح عليه موعداً للقاء، لكنه لم يذهب. ما كان ميالاً إلى النساء المخادعات وعلاقاتهن السرية. امرأة أخرى منحته وردة. بينما كانت ڤاسيا تصغي إلى هذه القصص شعرت بأنها تتضاءل نسبة له وأنها أقل جاذبية ـ وتبخرت البهجة من قلبها. عبست. سألته بلهجة محايدة:

ـ كنت تحب كل هؤلاء النسوة الجميلات إذن؟

وشعرت من فورها أن سؤالها سخيف فغضبت من نفسها.

رمقها فلاديمير من قرب وهز رأسه سلباً. قال:

ـ طوال حياتي يا ڤاسيليسا ديمينتيڤنا، كنت أبقي قلبي وحبي نقيين. والفتاة التي سوف أحب ينبغي أن تكون طاهرة كذلك. هؤلاء النسوة ما كن سوى مومسات، ليسوا بأفضل من عاهرات الشوارع.

تدفقت البهجة مرة أخرى في قلبها ـ وهناك تجمدت. إذن فهو لن يحب إلا عذراء.. أليس كذلك؟ حسن.. إنها ليست عذراء. في البداية كانت علاقة الحب القصيرة مع بيتا رازغولوف الذي يعمل في قسم الآلات. لكن سرعان ما أُرسل إلى الجبهة. ثم كانت علاقتها بمسؤول حزبي وفكرا في الزواج. ولكن هذا المسؤول أيضاً غادر إلى الجبهة، وحين توقف عن الكتابة نسيته تدريجياً.

هل يعني فلاديمير فعلاً أنه لن يحب إلا عذراء؟ رنت إليه ڤاسيا بانتباه محاولة تتبع ما كان يقوله، لكنها كانت في حالة من الرعب أغنتها عما حولها فما عادت تميز الأشياء.

أما هو فقد ظن أنها ملت قصصه فقطع ما كان يقوله ونهض ليغادر. ودعها بعجلة وفتور وامتلأت عينا ڤاسيا بالدموع. كانت في شوق إلى معانقته، ولكن هل كان حقاً يرغب فيها؟ انتحبت طوال تلك الليلة وعزمت على تجنب هذا «الأمريكي» بعد الآن. فما كان للقائها به معنى

مادام هو لا يقع إلا في حب عذراء؟

ولكن رغم أنها قصدت تجنب «الأمريكي» إلا أن علاقتهما في واقع الأمر ازدادت قوة. ففي اجتماع إحدى اللجان لتعيين محافظ، دب خلاف، البعض رشح ڤلاديمير، ولكن آخرين عارضوا بشدة وخاصة سكرتير الحزب الذي عارض معارضة عنيفة. قال إن أهالي البلدة يقفون ضد «الأمريكي» الذي يستقل سيارته وكأنه حاكم من حكام القيصر، وينزع قبعته بحركة ارستقراطية. المواطنون العاديون يعتبرونه خطراً عاماً، إنه لا ينضبط ولا يلتزم بتعاليم الحزب، وقد أثيرت حوله أكثر من شكوى مؤخراً لأنه لا يتقيد بقرارات الحزب في التعاونية.

في ذلك الاجتماع دافعت ڤاسيا عن ڤلاديمير بحرارة، رغم أنها كانت تعتقد أن تكلفه تلك الخيلاء إنما هو ضرب من الحماقة. امتعضت لكونهم لا يزالون يشيرون إليه على أنه فوضوي. من الغباء عدم الثقة به ـ فهو كعامل ليس أقل شأناً من أي بولشفي. وقف ستيبن اليكسييڤيتش إلى جانب ڤلاديمير أيضاً. ثم اتفق الجميع على إحالة الموضوع إلى التصويت. صوّت ستة إلى جانبه وسبعة ضده. وهكذا انتهت هذه المسألة.

حين بلغ قرار اللجنة ڤلاديمير استولى عليه الغضب وراح يشتم البلاشفة. كيف يسعهم عدم الثقة به هو الذي ناضل بكل قلبه وروحه في سبيل الثورة؟ هتف:

«أيها الدستوريون، أيها المركزيون، إنما أنتم تنشدون إقامة دولة بوليسية تابعة لكم».

وظل يرسل شتائمه ويحذرهم مصير أمريكا. حيث يؤمر الشعب ويمنع من القيام بأي شيء، وحيث تقمع الحركة الأممية باستمرار. كل هذا السيل من الكلمات بث مزيداً من الحذر تجاهه من قبل اللجنة. وطالبوا أن يذعن ڤلاديمير لقرارهم. إلا أن العداء استمر وبات أكثر حدة. وظلت

فاسيا تدافع عن ڤلاديمير بشراسة حتى بُح صوتها. ثم ظهرت قضية جديدة أمام السوفيات: مرة أخرى لم تلتزم تعاونية ڤلاديمير بأمر محدد.

حين واجه ڤلاديمير السوفيات كرر نفس الأسطوانة مرة أخرى: «لا أعترف بهذه الإجراءات البوليسية، ينبغي على كل دائرة أن تضع قوانينها الخاصة بها. أما بالنسبة للانضباط فإنني لا آبه له. لم نقم بالثورة، ونضحي بدمائنا ونطرد البورجوازية لنذهب ونشنق أنفسنا بحبل جديد. من هم أولئك القادة الذين ظهروا فجأة على مسرح الأحداث ليأمرونا؟ أوَلا نعرف نحن كيف نأمر أنفسنا؟

واحتد النقاش وعلت الأصوات الواعدة المهددة. قال الرئيس محذراً:

ـ إذا لم تنفذ الأوامر، اضطررنا إلى فصلك من السوفيات.

صاح فلاديمير وقد اتقدت عيناه:

ـ حاولوا أن تفعلوا ذلك وسترون. إن الخبازين التابعين لي مقاتلون بارعون. إذا سحبتهم من الميليشيا فمن سيتبقى ليدافع عنكم؟ عند ذاك سوف يسحقكم البورجوازيون تحت نعالهم. وإلى هذا تسعون. هذا ليس سوفيات هذا فرع للبوليس القيصري.

وآذى هذا القول ڤاسيا في نفسها. لماذا يتفوه بهذه الأقوال؟ كان يقف ثابتاً بوجهه الأبيض ويواصل دفاعه الذي يزيد من إثارة مشاعر العداوة له.

صاحوا:

ـ اعتقلوه، افصلوه، اطردوا هذا التنبل الكسول الذي لا ينفع.

وهنا تدخل ستيبن اليكسييڤيتش فأنقذه. اقترح أن ينتقل فلاديمير إلى غرفة أخرى، ويترك السوفيات ليتباحثوا في الأمر دون حضوره. فغادر ڤلاديمير الغرفة ومعه ڤاسيا.

كانت مغضبة منه لأنه تفوه بكل تلك الحماقات. هو الذي أثبت للسوفيات أنه ملتزم وعلى استعداد للتضحية. ولكن هل يمكننا أن نحكم عليه من خلال ما تفوه به من عبارات عفوية. لماذا لا يحكموا له أو عليه من خلال أفعاله؟ الكل يعرف كم دافع ڤلاديمير عن السوفيات، وأنه كان وراء تأييد السوفيات للبلاشفة في أوكتوبر. فهو الذي نزع الهلاح من الضباط. وكان هو وراء فرار المحافظ واستحضار جماعته إلى الشوارع قائلاً لهم:

ـ هيا.. نظفوا الشوارع من الثلج.

هل يفصلوه من السوفيات لمجرد أنه صاحب مزاج غضوب؟ كانت ڤاسيا حانقة حنقاً عارماً حين دلفت إلى الغرفة المجاورة. كان ڤلاديمير يجلس إلى طاولة والكآبة تستولي عليه. ورأسه على ذراعه. رفع بصره نحوها، عيناه تشتعلان سخطاً. بدا مضطرباً ولاحظت ڤاسيا بقلق أنه يشبه طفلاً مجروحاً في نفسه، صغيراً وغير منيع. عزمت على الدفاع عنه مهما كان الثمن.

قال ڤلاديمير:

ـ وهكذا خاف هؤلاء الدستوريون. هل تظنين أن وعيدي أخافهم؟ ولكن...
كان مزهواً. ملامح ڤاسيا متعاطفة حانقة معاتبة في آن.

ـ أخطأت يا ڤلاديمير ايڤانوڤيتش. وليس لك إلاَّ أن تلوم نفسك. لماذا تفوهت بكل هذه الحماقات؟ ألم تر أنها بالنسبة لهم لم تعن إلا معارضة السوڤيات.

أصر فلاديمير:

ـ وسوف أواصل معارضتي ما داموا يتصرفون وكأنهم بوليس القيصر.

ـ كيف تتفوه بهذه العبارات؟ أنت تعلم أنك تقول ما لا تعني.

دنت ڤاسيا منه، في تلك اللحظة شعرت أنها أكبر منه عمراً. رنت إليه بمحبة وجدية. رنا هو إلى عينيها ولم ينبس.

- هيا، اعترف أنك فقدت أعصابك.

نكس ڤلاديمير رأسه. قال:

- القضية من أساسها قذرة. إنهم غاضبون مني.

رنا إلى ڤاسيا مرة أخرى بعيني طفل يعتذر إلى أمه. قال بيأس:

- فات الأوان. لا يسعنا أن نفعل الآن شيئاً. الوضع ميؤوس منه.

امتلأ قلبها بالألم والحنان. بات عزيزاً عليها. وضعت يدها على رأسه ومسدته برفق.

- أرجوك، لا تيأس يا ڤلاديمير ايڤانوفيتش. هذا ليس من شيم الفوضوي. عليك أن تؤمن بنفسك وتثق بها. ولا تسمح للآخرين بإهانتك.

كانت فاسيا تقف إلى جانبه تمسد شعره. مال برأسه على صدرها. قال:

- لقد كانت حياتي صعبة كما تعلمين. واجهت الكثير من الخطوب والضربات. حسبت أننا سوف نحيا في الثورة كأصدقاء ونعمل إلى جانب بعضنا البعض بمحبة. لكن، أعتقد أن الأمور ليست كذلك.

قالت ڤاسيا:

- ستسير الأمور سيراً حسناً. علينا فقط أن نثق ببعضنا إذا كنا نعمل جماعة.

- لا. الأمور ليست بخير. ألا ترين بنفسك أنني لا أستطيع التعايش مع هؤلاء الناس.

- ولكنك سوف تتعلم التعايش معهم. إني متيقنة من ذلك.

رفعت ڤاسيا رأس ڤلاديمير نحوها، وراحت تحدق إلى عينيه كأنما ليستوحي الثقة منها. لكن عينيه طافحتان بالقلق واليأس. مالت نحوه وراحت تقبل شعره برفق.

ـ عليك أن تصلح ما أفسدت الآن. عليك أن تعتذر وتخبرهم أنك خرجت عن طورك وأنهم أساؤا فهمك.

وافق ڤلاديمير ورنا إليها بعينين تتوسلانها المساعدة. قال: «حسناً». ثم قام نحوها بحركة مفاجئة، طوقها بذراعيه والتحم بها بقوة وراح يقبلها بشهوة متقدة.

هرعت ڤاسيا إلى غرفة الاجتماع وسعت من فورها إلى ستبن اليكسيڤيتش. عليها أن تنقذ ڤلاديمير ايڤانوڤيتش.

وأخيراً انتهت المشكلة. لكن العداء نحو فلاديمير لم يتبدد، وسرعان ما انقسم السوڤيات إلى قسمين. وبدا الأمر وكأن أيام الصداقة في التعاونية قد ولت.

في عربة القطار المظلم تمنت قاسيالو أن تتخطى هذه الذكريات. إلا أن الذكريات ظلت تتزاحم وتتكاثر في رأسها. كانت ترغب في أن تتذكر كيف بدأ حبهما بالضبط.

بدأ ڤلاديمير يصطحبها إلى البيت دائماً. وجعلا يتشوقان للّقاءات. وحين يخلوان لبعضهما كانا يتصرفان بعفوية ودون تكلف.

ذات مرة في شقتها ـ ولم تكن زميلتها هناك ـ أخذها بين ذراعيه. كانت قبلاته حارة متقدة، بوسعها أن تتذكر تلك القبلات حتى هذه اللحظة. إلا أنها حررت نفسها من ذراعيه ورنت إلى عينيه بثبات.

ـ لا يا ڤولوديا، لا تفعل. لا أرغب في الخداع.

نظر إليها مصدوماً مذهولاً. قال:

ـ ولكن أنا لا أخدعك يا ڤاسيا؟ ألا تدركين أنك وقعت في نفسي منذ وقع بصري عليك؟

ـ لا، المشكلة ليست هنا يا ڤولوديا... ثمة مشكلة أخرى. نعم أنا أصدقك ولكني... لا، أرجوك توقف. لقد قلت لي مرة إنك لن تحب إلا عذراء. حسناً إني لست عذراء كان لي أحباء قبلك.

كانت تتحدث وترتعش، الرعب يغمرها خوفاً من تبديد هذه السعادة الجديدة.

لكنه قاطعها:

ـ هل تعتقدين أنني التفت إلى علاقاتك السابقة؟ أنت لي الآن يا ڤاسيا، وأنت في عيني أطهر وأكثر من رأيت رقة. إذن... أنت تحبيني يا ڤاسيا. هل تحبيني فعلاً؟ لا أصدق أنك لي، لي وحدي. لا تتحدثي بعد الآن أمامي عن أحبائك هل تسمعين؟ لا تحدثيني عنهم، لا أريد أن أعرف. كل ما يهمني هو أنك الآن لي أنا.

وهكذا باتا حبيبين.

كانت العربة معتمة. المرأة الأخرى نائمة وعطرها يفوح في المقصورة. ڤاسيليسا ترقد على المضجع الأعلى، تحاول أن تنام. لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح فالنوم يستعصي عليها. كانت ذكرياتها مع ڤولديا صارخة. وشعرت في أعماقها أن الماضي قد انطوى، وأن سعادة أربع سنوات ماضية ما كانت إلا ذكرى. لم تتبين سبباً واضحاً لهذا الشعور الحاد، ولم تجد له تفسيراً، فحياتها لا تزال تمتد إلى المستقبل. لم تفهم ولكنها شعرت بهذا الإحساس الغامض: لقد تغير حبها ـ شعرت أيضاً أنها هي نفسها تغيرت...

رقدت هناك في العتمة، طاوية يديها تحت رأسها والكآبة تغمرها.

لقد أدركت الآن أنها كانت مستغرقة في عملها إلى درجة لم تعد معها قادرة على التفكير في كثير من الأشياء بطريقة صحيحة. أشياء نجحت في تأجيل التفكير فيها، مثلاً: كل نزاعات ڤولوديا مع الحزب، وتلك المشاجرات الصغيرة مع الدوائر. في الأيام الأولى ما كان هكذا. طبعاً كان ثمة منازعات، وكثيراً ما تنطحّ ضد السلطات، لكن كان بوسع ڤاسيا دائماً أن تقنعه وتجعله يتوصل إلى الموقف المنطقي، إذ أنه كان يثق بما تقول وما ترى وكان يصغي لها.

حين بدأت الحملة البيضاء، مثلاً، وتهددت البلدة، سارع ڤلاديمير بالسعي صوب الجبهة. لم تحل ڤاسيا بينه وبين ذهابه لكنها ألحت عليه بالانضمام إلى الحزب أولاً. بعد جدال وتململ أذعن وانضم. أمسى بلشفياً ثم مضى.

لم يتبادلا الرسائل كثيراً. كان يرسل لها ما يكفي لزيارته يوماً أو يومين، ولكن بعد ذلك كانا ينفصلان عدة أسابيع، بل أشهراً. كان ذلك الوضع حتمياً، بل إنهما لم يملكا من الوقت ما يكفي للاشتياق لبعضهما.

وفجأة علمت فاسيليسا أن تهمة ما رفعت ضد ڤلاديمير وأنه يواجه اللجنة. عجزت عن تخيل ما حدث. كان يعمل في دائرة المؤن، ويبدو أنه تلاعب بحساباته، بل ذاعت شائعات حول اختلاسات صغيرة قام بها.

ثارت ڤاسيا حين سمعت ذلك. قالت: «كل هذا أكاذيب لا أصدق كلمة واحدة، كلها أكاذيب وتهم».

مهما يكن، كانت هذه التهم جدية، وهبت هي تستقي المعلومات. لم يعتقل لكنه فُصل من الوظيفة. توسلت ستيبن أليكسييڤيتش لمنحها إذناً كي تحمل الطرود إلى الجبهة، وبعد ثلاثة أيام كانت هناك. تلك كانت زيارتها الأولى لڤولوديا.

- ٣ -

امتلأت الرحلة بالعقبات ـ تـأخير في وصـول القطارات. في البـداية اكتشفت أنها لا تحمل الوثائق اللازمة، ثم اتضح لها أن عربة البضائـع قد انفصلت. القلق ينهشها، ماذا لو بلغت قضيته المحكمـة قبل وصـولها؟ في تلك اللحظة أدركت ڤاسيا كم تحب فلاديمير. وكم كان عزيزاً عـلى قلبها. وكانت تهب لتقف إلى جانبه بعناد كلما زادت قناعة الجميع بأنـه فوضـوي وأنه قادر على التمرد. لا أحد يعرفه كما تعرفه هي. كان مهذباً رقيقاً مثـل امرأة ـ سلوكه فقط ينحو منحى وقحاً وغير مرن. وڤاسيا تعرف أنه بـالمحبة واللطف قد ينقلب ليكبح جمـاح نفسه. صحيـح أنه طـافح بـالمرارة، لكن هذا أمر طبيعي فحياة العامل ليست سريراً من الورود.

عندما وصلت أخيراً، قصدت مـوقع قيـادة الجيش من فورهـا، وبعد التي واللتي وبعد أن تجشمت الخطوب عرفت موقع ڤلاديمير. كان عليها أن تجـرجر نفسهـا إلى الجانب الآخـر من البلدة، رغم أنها كانت محـظوظـة إذ عـرض عليها أحـدهم أن يقودهـا إلى المكان ويحمـل الـطرود. إنها متعبـة تـرتعش برداً، ولكن البهجـة غمرتهـا حين عـرفت أن التحقيق لم يكتمـل بعد، وأن لا دليل مـادياً ضده حتى الآن. وبـدا لها أن الآراء منقسمـة في الدائرة، وسمعت الكثير من الشائعات والاتهامات.

استـاءت ڤاسيـا كثيراً حـين كانت تعلن أنها زوجـة ڤـلاديمـير فتلمـح

نظرات حانقة عدائية. بدا وكأنهم يوارون شيئاً ما عنها. كانت عازمة على التحقيق في المسألة والجري وراء كل التفاصيل، ثم مقابلة الرفيق توبوركوف، الذي أرسلته اللجنة المركزية للحزب والذي كان يعرف سجل ڤلاديمير. كيف يقمعونه ويضطهدونه هكذا بينما يتجاهلون المناشفة والاشتراكيين الثوريين. لماذا يعاملون فوضوياً أقسى مما يعاملون أعداءهم الحقيقيين؟

وصلت ڤاسيليسا ومرافقها إلى حيث يقيم ڤلاديمير. لكن الباب كان مقفلاً بالمزلاج. قرع مرافقها الباب. لا جواب. كان جوربا ڤاسيا مبتلين. حتى أنها كانت تتشوق إلى غرفة دافئة لتغيير جوربيها لا لرؤية ڤلاديمير. طوال خمسة أيام كانت تجلس في عربة مدفئة للبضائع بلا نوم.

اقترح مرافقها:

ـ لنقرع النافذة.

كسر غصن شجرة ودق على النافذة. اهتزت الستائر وظهر جزء من رأس ڤلاديمير في الظلام، ثم ظهر رأس امرأة وسرعان ما اختفى. إحساس بالغثيان والوجع شل ڤاسيا وجمدها.

صاح مرافقها:

ـ افتح يا رفيق. أحضرت لك زوجتك لتراك.

بسرعة أسدلت الستائر مرة أخرى لتواري ڤولوديا والمرأة. وعادت ڤاسيا إلى المدخل بانتظار فتح الباب. ما الذي يؤخره؟ وظنت ڤاسيا أنه لن يأتي إلى الباب أبداً.

أخيراً فتح الباب على مصراعيه ووجدت نفسها بين ذراعي ڤولوديا. قال وهو يعانقها ويقبلها بينما انحدرت دموع الفرح من عينيه:

ـ أتيت أخيراً يا حبيبتي، أوه يا ڤاسيا يا أعز أصدقائي.

قال مرافقها بلهجة لا تخلو من نزق:
ـ هلا حملت هذه الطرود عني؟
قال ڤولوديا:

ـ حسناً. لندخل ونتناول شيئاً من الطعام، يا حبيبتي المسكينة، لا شك أنك مبتلة والبرد يقرص عظامك.

في الداخل كانت الغرفة مضاءة ونظيفة، رمقت غرفة نوم وغرفة طعام ـ وهناك رأت ممرضة تجلس إلى طاولة، على رأسها منديل أبيض وعلى ذراعها شارة حمراء. كانت بالغة الجمال، وشعرت ڤاسيليسا بطعنة الألم. عرّفهما ڤولوديا:

ـ ڤارڤارا الممرضة، زوجتي فاسيليسا ديمينتيڤنا.

تصافحت المرأتان وحدجت كل منهما الأخرى محاولة قراءة أفكارها. قال ڤلاديمير:

ـ هيا يا ڤاسيا، اخلعي معطفك. أنت السيدة هنا الآن. انظري كيف أعيش هنا ببحبوحة. أليس أفضل من حجرتك الجحر. هيا، هاتي معطفك. إنه بليل، سوف أعلقه بجوار المدفأة.

بقيت الممرضة حيث هي. قالت أخيراً:
ـ حسناً يا ڤلاديمير اڤانوڤيتش، علينا أن نحل الأمور غداً. لن أتدخل في سعادة حياتك العائلية الآن.

صافحت ڤاسيا وڤلاديمير وخرجت فصحبها الرجل الذي جاء مع ڤاسيا. ثم رفع ڤلاديمير ڤاسيا بذراعيه وطاف بها في الحجرة وراح يضمها ويقبلها. كان مبتهجاً لرؤيتها. خف توتر ڤاسيا وقد شعرت بالخجل والندم من ريبتها. ولكنها عجزت عن أن تمسك نفسها بين القبلة والقبلة فقالت:

ـ من هي هذه الممرضة؟

وطرحت مؤخرة شعرها إلى الخلف حتى يسعها التحديق إلى عيني فلاديمير.

ـ الممرضة؟ أوه، لقد جاءت لنتحادث حول إرسال المؤن للمستشفى. علينا أن نسارع في عملية التسليم، لكن ثمة تأخير في كل مكان. صحيح إنني لست مسؤولاً عن هذه العملية، لكنهم يعتمدون عليّ، حتى في أبسط التفاصيل يهرعون إليّ.

ثم شرع يحدثها عن قضيته. أنزل ڤاسيا وقصد معها غرفة النوم، ومرة أخرى دهمها ذلك القلق المؤلم، كان السرير قد سُوي بسرعة، والأغطية مكومة على الفراش على عجل. رمقت ڤلاديمير بنظرها، كان يروح ويجيء في الغرفة ويحدثها عن مشكلته واضعاً يده وراء ظهره ـ كم كانت تحب عادته هذه ـ أنبأها كيف بدأت القضية وكيف تطورت. تجاهلت ڤاسيا قلقها الذاتي وأصغت له وشعرت بالألم له. كانت القضية قائمة على الحسد والتهم المضادة.

حبيبها ڤولوديا صادق شريف وهي تعرف ذلك.

استخرجت جوربين ناشفين من حقيبتها، لكنها لم تكن تملك حذاء آخر. لاحظ ڤلاديمير ذلك فعلق:

ـ انظر إلى هذه المرأة، إنها لا تملك حتى حذاء احتياطياً. سوف اشتري لك حذاء من الجلد الجيد، سوف يصنع الإسكافي حذاء لحبيبتي. دعيني أجردك منهما. كم هما بليلين.

نزع الحذائين ورمى جوربيها على الأرض، وأخذ قدمي ڤاسيا الباردتين بين يديه الدافئتين.

قالت ضاحكة:

ـ حبيبي ڤولودكا، كم أنت ظريف.

شعرت بالفرح. إنه يحبها، وهذا هو المهم.

احتسيا الشاي وهما يبحثان في قضية ڤلاديمير. اعترف لها بصراحة عن المرات التي كان فيها متغطرساً أو فقد أعصابه وخرج عن طوره ولم ينفذ التعليمات وكيف أنه كان يصر أحياناً أن يبتكر طريقاً خاصاً به في حل الأمور وتنفيذها وكيف أنه كان يرفض الأوامر أحياناً أخرى. انبأها كيف أنه ارتكب خطأ التورط مع مختلف الخداعيين في العمل، أما بالنسبة لتهمة الاختلاس فقد سألته ڤاسيا، إنها لا تصدق أنه قادر على القيام بمثل هذا العمل؟ وقف أمامها أنفاسه تتلاحق والغضب يستولي عليه.

- كيف يمكنك مجرد الشك فيّ، أنت من بين الناس جميعاً يا ڤاسيا؟

- الأمر ليس كذلك يا ڤولوديا، صدقني. كل ما هناك أنني قلقة نتيجة وضع حساباتك. لا بد وأنهم يحققون فيها بدقة الآن.

- ليس ثمة حاجة لقلقك على وضع حساباتي. الذين خططوا وأعدوا لهذه التهمة لن يجدوا فيها خللاً. لقد درست المحاسبة وأنا أعرف منهم بها.

ارتاحت ڤاسيليسا وتنفست الصعداء. ما عليها سوء مقابلة رفاقه والحديث إليهم وشرح حقائق القضية لهم.

قال ڤولوديا:

- أنت متقدة الذكاء يا حبيبتي. الحمد لله أنك جئت. ما كنت أتوقع مجيئك. قلت لنفسي أن ليس لديك متسع من الوقت لحبيبك ڤولودكا.

- ولكن يا حبيبي ليتك تعرف. لم تتوفر لدي دقيقة راحة حين كنت بعيدة عنك. أنت دائماً في بالي، وأقلق خوفاً من أن يقع لك مكروه.

قبلها وقال:

- ڤاسيا أنت ملاكي. لعلي لست جديراً بك، لكنني لا أحب إلّاك. وهذا الأهم.

دهشت ڤاسيا إذ رأته متوتراً قلقاً. ولم تفهم ما الذي يقوله بالضبط. آن الأوان للجوء إلى الفراش. أخذت ڤاسيليسا ترتب السرير والأغطية. فجأة جمدت في مكانها: كان ثمة بقعة دماء على الغطاء ومنديل صبحي نسائي مضرج بالدماء.

صرخت:

ـ ڤولوديا، ما هذا؟ أخبرني ڤولوديا.

ـ لعن الله مدبرة المنزل، لقد لطخت السرير.

رمى بالمنديل إلى الأرض.

ـ ڤلاديمير.

صاحت ڤاسيا وعيناها تتسعان وتقولان كلاماً أبلغ من اللغة. رنا ڤلاديمير إليها ولاذ بالصمت.

ـ ڤولوديا، أرجوك قل لي ما الذي يجري هنا.

تداعى ڤولوديا على السرير وهو يلوي يديه.

ـ لقد دُمر كل شيء الآن تماماً. لكنني أقسم لك يا ڤاسيا، أنت المرأة التي أحب.

ـ كيف تفعل ذلك لنا؟ كيف؟

ـ ڤاسيا، إنني شاب. وكنت وحيداً طوال عدة أشهر. إنهن يداعبنني. لكنني أبغضهن. لسن سوى عاهرات.

مد يديه نحوها. الدموع تنهمر على وجنتيه. وتنسكب على يديها.

ـ أرجوك يا ڤاسيا، حاولي أن تتفهمي، وإلا فقد انتهيت. حياتي عسيرة. أرجوك. اشفقي عليّ.

تماماً كما فعل قبل سنوات في اجتماع السوڤيات. مالت ڤاسيا نحوه

وقبلت رأسه، ومرة أخرى خفق قلبها بالحب والشفقة على هذا الرجل الذي يواري في قلبه طفلاً. إذا لم تتفهمه هي وتشفق فمن يفعل؟ إنه محاط بالأعداء المتأهبين لرميه بالحجارة. صحيح أنه جرح مشاعرها بقسوة، لكن هل يعني هذا أن تتخلى عنه في هذه اللحظة الحرجة. لا، ليس بوسعها. إنه بحاجة ماسة إلى حمايتها، كأم، من خطوب الحياة. فإن هي تخلت عنه لأنه أهانها إهانة شخصية فذلك يعني أن حبهما كان سدى وهباء. كانت تفكر وهي تميل عليه تمسد شعره. دقات ملحة متصلة على الباب. سرعان ما أدركا مغزاها. تعانقا. على عجل وتبادلا القبل وقصدا الصالة.

لقد انتهت التحقيقات الأولية. وتقرر اعتقال ڤلاديمير. مادت الأرض تحت قدمي ڤاسيا، لكن ڤلاديمير تصرف بهدوء، لملم أشياءه، وأخبر ڤاسيا كيف تتصرف، فأرشدها إلى موقع الوثائق التي يحتاجها للدفاع عن نفسه. ثم ذهب معهم..

لن تنسى ڤاسيا تلك الليلة أبداً، رغم مرور سنوات عديدة على تلك الحادثة. لم تعرف في حياتها كارثة مثل هذه. كان قلبها يتمزق بين حزنين هائلين: الحزن القديم للمرأة التي خانها صديق ورفيق تحبه. حزن للبغض الإنساني. حزن لانتفاء العدالة.

بعد أن قادوا ڤلاديمير، هرعت ڤاسيا تدور في غرفة النوم كامرأة مخبولة، كل ما كان بوسعها التفكير فيه هو أن ڤلاديمير قد ضاجع وقبل وعانق امرأة أخرى في هذه الغرفة بالذات وهذا السرير. امرأة جميلة بشفتين مكتنزتين وصدر مكتمل النمو. ربما ذهب إلى حدود حب هذه المرأة. نعم، لعله كذب عليها حتى لا تحز الحقيقة في نفسها.

ڤاسيليسا تنشد الحقيقة. لماذا انتقوا هذا اليوم بالذات ليأخذوه منها؟ كان بوسعها أن تعرف كل شيء منه لو كان هنا ليجيب على أسئلتها لو ظل هنا لطيب خاطرها وواساها وأنقذها من الكآبة الممزقة.

بعد أن نال منها الحزن والألم دهمها غضب مفاجىء صبت جامه عليه، كيف تجرأ؟ ما كان ليضاجع امرأة أخرى لو أحبها حباً حقيقياً. وإذا كان لا يحبها فلماذا لا يقول ذلك مباشرة بدل اللف والدوران ودفعها نحو الجنون بأكاذيبه. دارت في الغرفة كالعاصفة وقد دهمها الرعب، ولم تنقذها سوى فكرة جديدة ألمت بخاطرها فجأة بوضوح مؤلم: ماذا لو أقيم الدليل على قضيته؟ ماذا لو كان الاتهام حقيقياً؟ ماذا لو كان متورطاً فعلاً؟

تبدد شعورها بالغيرة والغضب واختفى وجه الممرضة ذات الشفتين الحمراوين المكتنزتين من بالها، ولم يبق سوى شعورها بالقلق على فلاديمير ممزوج بإحساس بالخجل منه. لقد أهين أمام الناس واعتقله رفاقه، فأي غضب غضبها مقارنة بهذا الغضب الذي صب على رأس الرجل الذي تحب. غمرها حزن جديد، فقد شعرت أنه حتى الثورة تفتقد الحق وتفتقر إلى العدالة.

تبدد الإرهاق، وشعرت بأن لا علاقة لها بجسدها فكأنه ليس ملكها. لم يتبق سوى جرح مؤلم سببته مخالب أفكارها المعذبة. تلك الليلة ظلت ساهدة لا يطرق النوم لها جفن. وحين بزغ الفجر قر قرارها الحاسم على الدفاع عن ڤلاديمير، وإنقاذه من الهوان العلني. سوف تُثبت للعالم كله أن زوجها رجل شريف. وأنه تعرض للظلم والإهانة والتهم الفضائحية.

في ذلك الصباح الباكر أقبل جندي من الجيش الأحمر حاملاً رسالة من ڤلاديمير.

حبيبتي وصديقتي العزيزة ڤاسيا، ما عدت أهتم لما سيحل بي ولا لكيفية تطور القضية. ثمة فكرة واحدة تلم بخاطري وتدفعني إلى الجنون ـ أن أفقدك. ليس بوسعي أن أحيا دونك. إن توقف حبك لي وأختفى فلا تدافعي عني. إذ عندها لن أهتم لو أطلقوا علي النار.

المخلص لك ڤولوديا.

حاشية: أحبك أنت ولا أحب إلّاك. قد لا تصدقين ذلك، لكنني أقسم بذلك حتى لو كنت إزاء الموت.

حاشية أخرى: لم أعمد أبداً إلى استثمار ماضيك سلاحاً ضدك، فأرجو أن تفهميني الآن وتسامحيني. أنت ملاذي جسداً وروحاً.

قرأت ڤاسيا الرسالة. ثم قرأتها مرة أخرى وأخذ شعور بالراحة يتسلل إليها. إنه على حق طبعاً. إذ أنه لم يلمها يوماً لأنها ليست عذراء منذ عاشا معاً. ثم أنه رجل مثل الرجال، كيف يمكنه رد امرأة ساقطة تداعبه وتتحرش به؛ فهي لا تتوقع منه أن يزنر نفسه بحزام العفة. قرأت الرسالة للمرة الثالثة، قبلتها، طوتها ثم دستها في حقيبتها.

في الأيام التالية كانت تندفع كأنما دهمتها نوبة حيوية عارمة، ولكن في كل خطوة كانت تصطدم بالبيروقراطية واللامبالاة حتى إنها شعرت أحياناً بالخيبة حد الاستسلام. لكنها لا تستسلم، فهي تستجمع شجاعتها ثم تندفع مرة أخرى متوسلة إنقاذ ڤولوديا. ما كانت على استعداد للإذعان لكل هذه الأكاذيب والمعلومات المضللة فينهش المتآمرون حبيبها.

ثم أحرزت نصراً مهماً. إذ أن القائد توربوركوڤ نفسه قد عزم على أن يحقق في القضية بنفسه. وبعد أن راجع القضية بدقة قرر أن تهمل لأن الدلائل القاطعة غير متوفرة. وبدلاً عنه اعتقل رجلين يدعيان: سڤريدوڤ ومالتشينكو.

لكن في صباح اليوم التالي أصيبت ڤاسيا بمرض التيفوئيد. وما إن حل المساء حتى باتت عاجزة عن تمييز الوجوه حتى إنها لم تتعرف إلى ڤولوديا الذي عاد لتوّه. فيما بعد كانت تتذكر مرضها كابوساً خانقاً. في المساء فتحت عينيها وتطلعت حولها فأبصرت غرفة غريبة وطاولة انتشرت عليها وممرضة تجلس إلى سريرها، امرأة عجوز بوجه صارم. حدقت ڤاسيا إليها وانقبض قلبها لرؤية الممرضة وثار غضبها لرؤية منديلها الأبيض. ماذا

تفعل هنا؟

ـ هل أنت عطشانة؟

سألتها الممرضة. ومالت نحوها تمد كوباً من الماء. شربت ڤاسيا بنهم ثم فقدت وعيها مرة أخرى. في غيبوبتها تلك تخيلت أن ڤولوديا يميل نحوها، يرتب الوسائد. استفاقت وكانت بين الغفلة والصحو. ثم فقدت وعيها مرة أخرى. وهذه المرة حلمت ـ أم تراها كانت ترى الحقيقة؟ بطيفين يعبران في غرفتها كطائرين، لا ليسا طيفين بل نسوة، لكن نسوة مزيفات. . واحدة بيضاء وأخرى رمادية، وراحتا تجولان في الغرفة بحركة بدت لها راقصة، ثم مصارعة. أدركت فاسيا أن هذينْ الشكلين يرمزان إلى الحياة والموت. وإنهما أقبلا ليقتتلا عليها. دهمها الرعب. همت بإرسال صيحة مرتفعة. لكن صوتها اختنق وبدا لها أنها فقدته. فتضاعف رعبها. وتداركت خفقات قلبها حتى خيل لها أنه سينفجر.

ثم، رات. . ا. . تات! أصوات إطلاق نار في الشارع. تمكنت من فتح عينيها. المصباح الليلي يحترق ويرسل دخاناً باهتاً. كانت وحيدة والوقت منتصف الليل. سمعت أصوات فئران. وبدا وكأنها تتململ بين ألواح الخشب الأرضي، وتقترب أكثر فأكثر من سريرها. استولى الرعب على ڤاسيا ظنت أن الفئران سوف تثب بعد لحظة إلى السرير فتتكاثر فوقها. وأن قوتها المستنزفة لن تمكنها من طرد الفئران.

هتفت بصوت واهن:

ـ ڤولوديا، ڤولوديا.

وسرعان ما كان ڤولوديا إلى جانبها يميل عليها ويرنو إلى عينيها بقلق:

ـ ڤاسيا يا حبيبتي، ما الأمر؟ ما الخطب يا حبيبتي؟

ـ ڤولوديا، أهذا أنت؟ ألا تزال على قيد الحياة؟ لست أتخيل أوهاماً؟

مدت ذراعها الواهنة لتلمس رأسه.

ـ إنني حي أرزق يا حبيبتي. إنني هنا بجوارك. لماذا كنت تصرخين؟ ماذا حدث لحبيبتي؟ هل رأيت كابوساً؟ أتحسين بالحمى؟ قبل يديها برفق ومرر يده على رأسها المبتل بالعرق.

ـ لا ليس كابوساً ولا حلماً، إنها الفئران هناك.

قالت بصوت خائر وتبسمت ابتسامة واهنة.

ضحك ڤولوديا وقال:

ـ فئران! يا لبطولتك يا فاسيا، ها أنت تخافين الآن من الفئران. لقد أخبرت الممرضة أن لا تتركك وحيدة. فعلت حسناً بمجيئي إلى هنا من فوري.

ودّت ڤاسيا لو تسأله أين كان، لكن الإعياء سلبها قدرتها على الكلام. وكان هذا الإحساس بالإنهاك ممتعاً، مريحاً، والأفضل من هذا وذاك أن حبيبها ڤلاديمير يجلس إلى جانبها. أخذت يده في يدها بضعف وشدّت عليها.

همست متبسمة:

ـ إذن أنت حي.

ضحك ڤولوديا وقبل رأسها برفق:

ـ طبعاً أنا حي.

فتحت ڤاسيا عينها:

ـ شعري! ما عاد لي شعر. هل قصوه؟

ـ لا تقلقي بشأنه. ڤاسيا حبيبتي تبدو مثل صبي الآن. وهذا ما كانته دائماً في حقيقة الأمر.

تبسمت ڤاسيا. شعرت بالسعادة تغمرها. السعادة التي لم تعهدها منذ كانت طفلة. ثم غفت قليلاً. بقي ڤولوديا معها، جالساً إلى جانبها ليتأكد

من نومها نوماً عميقاً. وكانت تنام ثم تستيقظ على التوالي.

ربت عليها قائلاً:

- نامي الآن يا ڤاسيا، ليس ما يدعوك إلى اليقظة. حين تتحسنين سوف يكون لك الوقت الكافي للنظر إليّ فيرتاح قلبك. إن لم تنامي الآن فلن تتحسني. وسوف يلومني الطبيب لأني كنت ممرضاً سيئاً.

- لن تتركني؟

- لماذا أتركك؟ سوف أنام هنا بقربك على الأرض كل ليلة. أشعر براحة ما دمت أراك. غداً سوف أعود إلى العمل.

- العمل؟ في دائرة المؤن ثانية؟

- نعم. كل شيء على ما يرام الآن. وقد اعتقل المخادعون. يا حبيبتي ڤاسوك لا تتكلمي. الكلام يضر بصحتك. لا تتكلمي وإلا ذهبت في هذه اللحظة.

شبكت أصابعها الواهنة بقوة بأصابعه ثم أغمضت عينيها مذعنة. وأقبل النوم ليغمرها برقة حلوة وڤولوديا إلى جانبها قلقاً مشفقاً يحرص عليها.

غمغمت:

- حبيبي..
- نامي يا حبي..
- سأنام لكني أحبك.

مال ڤولوديا نحوها وقبل عينيها برقة. وكادت ڤاسيا تبكي فرحاً. وتمنت لو تموت الآن في ذروة سعادتها. إذ إن الحياة لن تضمن لها مثل هذه السعادة مرة أخرى.

والآن، وبينما هي ترقد على مضطجعها في القطار، شعرت بأن

استحضار هذه الذكريات والخواطر يغمر قلبها بالرعب. هل فقدت الحياة تلك النكهة؟ ترى. . . ألن تعود تلك السعادة فعلاً؟ ماذا عن الحاضر؟ ألن تجد الآن ذات الفرح والسعادة؟ إنها على طريق رؤية حبيبها فولوديتشكا. لقد أرسل في طلبها، إنه ينتظرها، بل ولقد أرسل زميلاً له ليتأكد من سفرها إليه. ثم إنه أرسل لها المال لتشتري تذكرة القطار والثوب - هذا كله يعني أنه لا بد يحبها. رغبت ڤاسيا رغبة يائسة في أن تصدق أنه بوسعهما العيش معاً مرة أخرى بسعادة. لكن في مكان ما في أعماق قلبها كان هذا الشك المزعج. إنها تعرف أن شيئاً ما قد تغير. ومرة أخرى ضاعت في خضم أفكارها وذكرياتها.

كان انفصالهما ثانية مفاجئاً غير متوقع. انتقلت الجبهة فدعي ڤلاديمير إلى مغادرة موقعه. كان جسد ڤاسيا مهدوداً ضعيفاً بالتيفوئيد حتى أنها عجزت عن تحريك ساقيها. فودعها بمحبة وودعته، دون أن يذكرا حادثة الممرضة. أدركت ڤاسيا أن تلك المرأة ما كانت تعني لڤولوديا الكثير. كانت بمثابة «كأس من الڤودكا يحتسيه وينساه». على حد تعبيره وما أن تعافت حتى عادت من فورها إلى غرفتها في البلدة، وعاودت مزاولة عملها.

كل شيء في العمل كان كما في السابق، إلا أن شيئاً ما ظل ينهش بال ڤاسيا: كان قلبها غارقاً في الغضب والشك في علاقة ڤولوديا بتلك الممرضة ذات الشفتين المكتنزتين. رغم ذلك، كانت تحب ڤولوديا حباً عميقاً، وبدا وكأن مرضها ومشاركته لها قلقها قد قوّى من الرابط الذي يربطهما. صحيح أنهما كانا يحبان بعضهما من قبل إلا أنهما لم يتعرفا على هذا الحب المتبادل مثل هذه المرة وبهذه الطريقة. لقد باتا قريبين عاطفياً بعد أن وحدتهما التعاسة. لكن هذا الحب لم يستحضر لڤاسيا الحب العارم الأعمى الذي كان يزودها به حبها السابق. صحيح أنه أكثر عمقاً، ولعله أكثر استقراراً وطمأنينة أيضاً، إلا أن الشكوك كانت تنال منه وتنتشر بظلالها عليه.

ولكن هذا ليس أوان الحب، إنها أيام الحرب الأهلية، والتهديدات من كل حدب وصوب، محادثات، انفصال. الجميع يجهدون أنفسهم بالعمل. وكان على ڤاسيليسا أن تعالج مشكلة اللاجئين. إذ أنها عينت في لجنة الإسكان السوڤيتية. وفي تلك الأثناء توصلت إلى فكرتها في إنشاء المنزل الجماعي. كانت مصرة على إدارته حسب ما ترى وبمساعدة وتبرعات السوڤييت.

استنفذ هذا المشروع ڤاسيا كلياً. وطوال أشهر عديدة كان بمثابة حجر الزاوية في حياتها. رغم أن ذكرياتها مع ڤولوديا لم تبارح بالها أبداً، إلا أنها ما كانت تتمتع بوقت كاف للشعور بالتعاسة. فضلاً عن أنه يعمل أيضاً. إذ أن أعماله بدت وكأنها ما عادت معقدة كالسابق، وكانت واثقة من أنه بدأ يعتمد على نفسه ويتجنب الشقاق ويتكيف مع الإدارة المركزية والمديرين بصورة أفضل.

وفجأة، انبثق أمامها ڤلاديمير من العدم. دلف إلى غرفتها ذات يوم على نحو مباغت. اتضح لها أنه أصيب بالرصاص أثناء تراجع. لم يكن الجرح بليغاً لكنه كان يتطلب الراحة. لقد منح إجازة مرضية وقيل له أن يذهب إلى زوجته كي يجد مكاناً يأوي إليه.

غمر الفرح ڤاسيا، إلا إنها عجزت عن مغالبة شعورها بالقلق. لو أنه أتى في وقت آخر. فقد عملت بجهد طوال الشهرين الماضيين وبقي لها شهر آخر على الأقل من العمل المتواصل. لديها الكثير من المهام والكثير من الألتزامات. فثمة مؤتمر سيعقد قريباً، ثم عليها أن تشارك في تنظيم دائرة الإسكان فضلاً عن نشاطاتها من أجل المنزل الجماعي - وبكلمة أخرى ثمة مهام لا نهاية لها ولا حصر. وكأنما يتوقع الناس منها أن تكون في كل مكان دفعة واحدة وفي آن واحد. وها هو ڤولوديا يظهر فجأة.. جزئياً. عليها أن تمنحه جزءاً من وقت العمل.

وعلى الرغم من أن بهجة ڤاسيا بمجيئه تخللتها غيوم القلق هذه

وعكرتها فإن ڤلاديمير كان جذلاً كطفل صغير. لقد أحضر معه الحذاء الذي وعدها بإحضاره قال بلهفة: «هيا، جربيها يا ڤاسيا. أريد أن أرى كيف ستبدو قدماك الصغيرتان في حذائيها الجديدين».

ما كانت ترغب في جرح مشاعره، رغم افتقارها إلى الوقت - فثمة اجتماع للجنة الإسكان على وشك أن يبدأ - جربت الحذائين، وفجأة شعرت وكأنها ترى قدميها لأول مرة، فعلاً كانتا صغيرتين ضئيلتين. رنت إلى ڤلاديمير بعينين مليئتين بالامتنان.

قال فلاديمير بفرح:

- كنت أرغب لو أرفعك بذراعي لو لم تكن مصابة. أوه، أحب قدميك الصغيرتين وعينيك البنيتين.

وهكذا واصل حديثه ومداعباته وقد أسكره فرح رؤيتها مرة أخرى. إلا أن ڤاسيا كانت تصغي له بأذن واحدة فقط، إذ كان ينبغي عليها أن تكون في الاجتماع منذ فترة طويلة. ظلت ترنو إلى ساعة المنبه على الخزانة ذات الأدراج.

الدقائق تدق وتمر وهم ينتظرونها بفارغ الصبر. بدأت تشعر بالغضب لماذا تجعل الناس ينتظرونها؟ ليس من اللائق أن يتأخر رئيس اللجنة هكذا.

عند المساء عادت ڤاسيا من الاجتماع. شعرت بالإعياء والاضطراب، إذ تخلل الاجتماع عدد من الحوادث المزعجة، ولكن ما إن بدأت بارتقاء الدرج حتى تبددت مخاوفها.

فكرت الحمد لله على وجود ڤلاديمير هنا. بوسعي أن أخبره بكل شيء وأن أستشيره.

ولكن حين دلفت إلى الغرفة لم تجد ڤلاديمير.

أين ذهب؟ قبعته ومعطفه معلقين على المشجب. سيعود بسرعة على الأغلب. أخذت تنظف الغرفة وتعد الشاي على المدفأة. ولكن فولوديا لم يأت. أين ذهب يا ترى؟ سعت إلى الممر، لكنه لم يكن هناك. عادت إلى الداخل وانتظرته، بينما ازداد قلقها. أين ذهب؟

سعت مرة أخرى إلى الممر. هناك رأت ڤلاديمير خارجاً من شقة الـ «فيودوسيڤ». أي خاطر دفع ڤلاديمير لزيارتهم؟ لقد أخبرته عن سيئاتهم.

استقبلها قائلاً:

ـ إذن عدت أخيراً يا ڤاسيا. كان السأم قد نال مني، من حسن الحظ أنني رأيت فيودوسيڤ فدعاني إلى شقته.

قاطعته ڤاسيا:

ـ ولكن لا ينبغي أن تنشىء علاقة مع هؤلاء القوم، أنت تعلم ذلك.

ـ وهل تتوقعين مني أن أبقى في غرفتك الصغيرة هذه يقتلني الملل؟ لو لم تتركيني وحيداً طيلة النهار لما اضطررت لهذه الزيارة.

ـ ولكن، لا شك في أنك ترى كم أنا غارقة في العمل، كنت أتمنى لو أعود باكراً ، لكن ذلك كان ضرباً من المستحيل.

ـ طبعاً، عملك. ولكن ماذا عني أنا يا ڤاسيا؟ ألم أجلس أنا إلى جوارك طوال ليال عديدة حين كنت مصابة بالتيفوئيد؟ ألم أنتهز كل دقيقة لآتي وأطمئن عليك؟ أنا المريض الآن يا ڤاسيا، لا تزال الحمى تهد جسدي.

حزت نبرة النزق في صوته مشاعرها. وكان هو يمسك في نفسه عتباً لأنها تركته وحيداً طوال النهار. ولكن ماذا تستطيع أن تفعل خاصة وأن المؤتمر على وشك أن يعقد، وماذا عن تنظيم الدائرة الذي يتطلب جهداً متواصلاً؟

قال ڤلاديمير:

ـ ثمة شعور يراودني بأنك لست سعيدة لرؤياي. ما كنت أحسب أنك ستتصرفين هكذا حين نتقابل.

ـ كيف يسعك قول ذلك. أنا، لست سعيدة؟ ولكن أنا.. أوه يا حبيبي الغالي.

طوقت عنقه بذراعيها فكادت تقلب المدفأة. طيب خاطرها قائلاً:

ـ حسبت أنك ما عدت تحبينني. بل إنني حسبت لوهلة أنك قد تكوني على علاقة مع رجل آخر. تلوحين لي باردة المشاعر، تلوحين مختلفة، حتى عينيك نائيتين وفاترتين.

ـ ولكن، إنني تعبة يا ڤولوديا. ليس لدي الطاقة الكافية للتفرغ لكل شيء.

ضمّها ڤولوديا وقبّلها ثم قال:

ـ لا بأس، أيتها الصغيرة المتوحشة. لا بأس.

وعاشا معاً «محبوسين» في الغرفة ـ العلّية الصغيرة حسب تعبير ڤلاديمير. في البداية جرى كل شيء على ما يرام. ورغم صعوبة تقسيم وقت ڤاسيا بين العمل والزوج، فقد فعلت ذلك عن طيب خاطر. الآن أصبح هناك من بوسعها أن تحدثه عن خططها الجديدة وتعترف له بأخطائها.

رغم أن مسألة الوظيفة البيتية كانت مزعجة. ففي الجبهة اعتاد ڤلاديمير أن يتناول الطعام حسب الأصول. ولم تكن ڤاسيا بكل تأكيد ربة بيت من الطراز الأول. فهي تكتفي بوجبة مقتصدة على الطريقة السوڤيتية، مع شاي وقطعة من السكر. في الأيام القليلة الأولى أكلا من المؤن التي جلبها ڤلاديمير معه.

قال:

ـ لدي مواد أساسية: طحين، سكر وبعض النقانق، رغم أنني أعرف أن لا مانع لديك من أن تأكلي مثل العصفور وأنك لا تخزني الطعام أبداً.

ولكن حين نفذت مؤن ڤولوديا اضطر إلى تناول الطعام على الطريقة السوفيتية التي كان يبغضها.

غمغم مرة باشمئزاز:

ـ ما هذا الدُّخن الذي تطعميني إياه باستمرار وكأنني دجاجة؟

ـ ولكن ليس من بديل. إنني أعيش على حصتي من المؤن.

ـ هراء. إن الزوجين فيودوسيڤ يحصلان على حصص أكبر من حصتك. لقد دعوني أمس إلى العشاء، وكان عشاء جيداً، مع بطاطا مقلية وسردين وبصل..

ـ لكن السيدة فيودوسيڤا تملك من الوقت ما يتيح لها أن تطبخ وتتسوق. أما أنا فلدي أعمال شاقة تستنفذني. من العسير علي أن أتدبر أمري والحالة كما هي فما بالك إن أنا طبخت وتسوقت.

ـ مشكلتك أنك تتحملين الكثير من الأعباء، انظري النتيجة، ما كل هذه الضجة حول المنزل المشترك. الزوجان فيودوسيڤ قالا.. قاطعته ڤاسيا بغضب بلغ ذروته:

ـ أعرف ماذا يقول الزوجان فيودوسيڤ، شكراً. واسمع، ليس من قبيل الولاء إلي أن تستمع إلى نقدهم إياي.

لقد حزت علاقة ڤلاديمير بأعدائها في نفسها. وفقد كلاهما أعصابه وراحا يتبادلان الكلمات القارصة ولكن ڤاسيا بدأت تقلق من كونها لا ترعى شؤون زوجها بشكل صحيح. فهو قد أتى إليها جريحاً مريضاً، وكل ما تستطيع تقديمه له هو طعام سوفيتي. لقد كان هو أكثر اهتماماً

بحاجاتها، ألم يجلب لها الحذائين. أحياناً كان ڤلاديمير يرفض تناول الطعام مما يجعلها فريسة للقلق الشديد. فبعد أن يتناول شيئاً من الثريد يدفع الصحن جانباً ويقول:

ـ أفضل الجوع على ازدراد طعامك السوفيتي. إني لا أرغب فيه. لنعد الشاي ونطلب من أحدهم أن يحضر لنا بعض الخبز. سأرسل لك طحيناً من الجبهة فتسدين به ما استقرضت من خبز.

بدا واضحاً أنهما عاجزان عن العيش سوياً بهذه الطريقة فترة أطول. في أحد الأيام، وبينما هي في طريقها إلى أحد الاجتماعات لاحظت أن أفكارها حول القرارات والسياسات تختلط في بالها باهتماماتها بدُخن الثريد. ماذا بوسعها أن تعد لڤلاديمير من الطعام بحق السماء؟ لو كان لديها وقتاً كافياً لتدبرت الأمر، إنها تحتاج إلى وقت كاف لتفكر في هذه المشكلة وتستنبت لها حلاً.

وفي طريقها إلى الاجتماع التقت بقريبتها. وفرحت ڤاسيليسا لأنها قابلت الشخص المناسب في اللحظة المناسبة. فلقريبتها ابنة تدعى ستيشا وهي فتاة شابة تركت المدرسة منذ وقت غير بعيد وعادت لتقيم مع والديها وتساعد أمها في تدبير أمور البيت. طلبت ڤاسيليسا من الأم أن ترسل ابنتها لتساعدها في الشؤون المنزلية وبالمقابل ستزود ڤاسيليسا الصبية بنصف حصتها من المؤن. وبعد موافقة قريبتها سارعت ڤاسيليسا إلى اجتماعها وقد شعرت بالراحة. أخيراً سيتناول ڤلاديمير غداً وجبة حقيقية.

وسرعان ما أثبتت ستيشا أنها سريعة البديهة، وأمست صديقة لڤولوديا. فمعاً كانا يدبران شؤون المنزل ويتقايضان مواد في حصتهم من المؤن، أو يحضرون أشياء من التعاونية بواسطة أحد أصدقاء ڤولوديا. ورضيت ڤاسيا. ولكن رغم أن ڤولوديا توقف عن إبداء استيائه من الطعام، إلا أنه استمر في إبداء امتعاضه منها.

قال:
ـ أنت تفكرين في كل شيء إلاي. تتجاهلينني كأنني غير موجودٍ في هذه الحياة.

حزت هذه الانتقادات في أعماق نفس ڤاسيا. كانت ممزقة بين عملها وڤولوديا، ولا شك في أن سوء طالعه شاء له أن يأتي مجيئه في هذه الفترة بالذات. حاولت أن تفسر هذا لڤلاديمير، إلاّ أنه بدا غير مدرك.

كان يقطب ويقول:
ـ بت باردة يا ڤاسيا، بل لقد نسيت كيف تمارسين الحب.

يتضرج وجهها بالخجل وتقول:
ـ ولكنني منهكة يا ڤولوديا، لقد استُنفِذَتْ طاقتي.

ولكن ڤولوديا واصل عبوسه، واضطرت ڤاسيا إلى الاعتراف بأن ما تفعله له ليس كافياً. فزوجها قد عاد من الجبهة مشتاقاً بعد فراق طال وإذا بها تهب إلى عملها كل يوم منذ الصباح الباكر وتتركه وحيداً. وحين تعود إلى البيت في المساء فإنها تعود متعبة يذكها الإرهاق دكاً حتى أن قدميها لا تكادان تحملانها. فتسعى من فورها إلى السرير تتداعى عليه وتذهب بعيداً في النوم، فكيف تمارس الحب؟ ذات مرة حدث شيء رهيب: لقد نامت بينما ڤولوديا يمارس الحب معها. في اليوم التالي وبّخها ڤلاديمير وأنبأها بما جرى. جرى.

ـ أسألك، أين النشوة في ممارسة الحب مع جثة؟

كان يداعبها. لكن من الواضح أنه متألم. شعرت ڤاسيا بالذنب وبالتعاسة. ليس من المستغرب إذاً أن يشعر أنها ما عادت تحبه. ولكن من أين تستمد القوة اللازمة للقيام بكل شيء؟

ذات يوم عادت ڤاسيا في وقت مبكر فألفت ڤلاديمير يعد عشاءه وحيداً.

سألت:

ـ ماذا حصل؟ أين ستيشا؟

ـ قريبتك ستيشا هذه فتاة فاجرة. لقد طردتها، وإذا رأيت وجهها هنا مرة أخرى فسأقذف بها من النافذة.

ـ لماذا؟ ماذا حصل؟ ماذا فعلت؟

ـ اسمعي، صدقيني، إنها فتاة ساقطة، ما كنت أطردها لو لم تفعل شيئاً. ولكني أخشى أن تستائي إن أخبرتك. إنها فتاة رخيصة محرومة. ولا أريدها أن تلوث البيت.

أدركت ڤاسيا أنه من الأفضل أن لا ترميه بالأسئلة. وشعرت أن ستيشا أغضبت ڤلاديمير. لعلها سرقت شيئاً، فالسرقة باتت منتشرة هذه الأيام. وڤلاديمير يحب مقتنياته. صحيح أنه كريم ويمنح أصدقاءه الكثير، إلا أنه لا يزال يتمتع بغريزة الملكية. فإذا ما اقترض منه شخص شيئاً ثارت ثائرته.

سألته:

ـ وماذا سنفعل الآن بشأن تدبير المنزل.

ـ ليذهب تدبير المنزل إلى الجحيم. سوف أعد الطعام وأزور أصدقائي. سأتدبر الأمر.

بعد ذلك بفترة قصيرة جاءت ستيشا لترى ڤاسيليسا في دائرة الإسكان تسألتها حصتها من المؤن.

سألت فاسيا الفتاة:

ـ ماذا حصل بينك وبين ڤلاديمير اڤانوفيتش يا ستيشا؟ إلى ماذا كنت ترمين؟

زأرت ستيشا وعيناها تومضان، ويدها تسوي مشطاً في شعرها:

ـ ما كنت أرمي إلى أي شيء. حبيبك ڤلاديمير ايڤانوڤيتش قبض علي فضربته على فكه. هذا ما حصل. لقد بصق دماً كثيراً بعدها. علمته درساً.

ـ كفي عن هذا الهراء. كان ڤلاديمير يمازحك.

قالت ڤاسيا متكلفة الهدوء وقد دار رأسها فجأة.

قالت ستيشا:

ـ أي مزاح هذا؟ لقد قذف بي إلى السرير. لحسن الحظ إنني قوية. لن أدع أحداً يفعل بي أي شيء.

حاولت ڤاسيا أن تقنع ستيشا بأنه كان يمازحها، يلعب معها، وأن ڤلاديمير مغضب منها الآن. إلا أن ستيشا زمت شفتيها بعناد. أي هراء. في أية حال ما علاقة ڤاسيا. إنها لن تطأ شقة ڤاسيا بعد اليوم، أما بالنسبة للمؤن فبإمكانها أن تحتفظ بها لنفسها.

استولت على ڤاسيا نوبة كآبة حادة نتيجة هذه الحادثة. ليس لها الحق في توبيخ ڤولوديا ولا لأن تُجرح بما فعل أليست هي السبب؟ ألم تصبح باردة؟ ألم تجرح مشاعر حبيبها ڤولوديتشكا؟ لا عجب في أنه بات يشعر أنها لا تحبه.

إلّا أن شيئاً واحداً أزعجها، وهو أن زوجها قد راود فتاة صغيرة عن نفسها. لقد كانت ستيشا أقرب إلى الطفلة. من حسن الحظ أنها ذات خبرة وذكاء وإلا من يعلم ما الذي قد يحصل. ودهمت الشكوك بال ڤاسيليسا. هل تفاتح ڤلاديمير في الأمر وتعلمه إنها علمت أم تتجاهل الموضوع كله؟ المشكلة تكمن في أنها اعتبرت نفسها مسؤولة جزئياً.

إلّا أن ڤاسيا لم تجد فرصة لبحث المسألة مع ڤلاديمير، إذ تغيرت حياتها كلياً. فڤلاديمير بدأ يخرج مع أصدقائه من أعضاء التعاونية والزملاء

السابقيين. وأحياناً كان يغيب عدة أيام متواصلة عن البيت. وحين تغادر ڤاسيا البيت في الصباح يكون هو مستغرقاً في نوم عميق. وعندما تعود في المساء تجد البيت مقفراً، فتشعر باليأس، ولا تعرف أتنام أم تعد الشاي وتنتظره. وتعد شيئاً من الطعام، ثم تعد أوراقها لليوم التالي وتصغي منتظرة سماع وقع قدميه في الممر.

في النهاية تتعب من الانتظار، فتطفىء المدفأة (عليها أن تقتصد) وتشغل نفسها مرة أخرى بالأوراق، فتقرأ التقارير وترتب العرائض أحياناً كانت تسمع وقع خطوات متعجلة في الممر، ولكنها ليست خطوات ڤلاديمير. وفي النهاية تأوي إلى سريرها وحيدة باردة تعيسة، وسرعان ما تغفو وقد هدها التعب. ولكن حتى في أحلامها لم يكن بوسعها أن تتوقف عن الاصغاء للخطوات وانتظار عودة حبيبها إلى البيت.

أحياناً كان يعود مرحاً رائق المزاج، فيوقظها ويضمها ويحكي عن قصصه وأخباره وخططه. وسرعان ما كانت ڤاسيا تشعر بالطمأنينة والسعادة وتنسى كل قلقها عليه. ولكن في أحيان أخرى كان يعود مخموراً نكد المزاج مهتاجاً يشكو نفسه ويسيء معاملة ڤاسيا. ويتساءل أي حياة هذه، إنهما محشوران في هذه العلية البائسة بلا مسرات ولا سعادة حقيقية وزوجته ليست بالزوجة الحقيقية، ووضعهما ليس حتى كوضع من أنجب أطفالاً.

حزت الملاحظة الأخيرة في نفس ڤاسيا، كانت هي ترغب في الإنجاب لبث السعادة في نفس ڤلاديمير وحسب. ولكنها اكتشفت أنها عاقر. وكانت النسوة يطيِّبن خاطرها إذ أنهن لا يتخيلن امرأة عاقر. لكن ڤاسيا، بلا شك، امرأة عاقر.

بعد ملاحظة ڤلاديمير قصدت ڤاسيا إلى طبيب ليعالج عقمها. فتبين للطبيب أن السبب يعود إلى معاناة ڤاسيا من فقر الدم. وفي سبيل رفع

معنوياتها بعد سماع هذا الخبر قام ڤلاديمير بدعوتها إلى المسرح. اشترى التذاكر وعادت هي مبكرة حتى يذهبا إلى المسرح. فوجدت ڤلاديمير مرتدياً أفضل ثيابه، ويتأمل نفسه في المرآة. بدا وكأنه سيد ارستقراطي حقيقي. فداعبته ڤاسيا بمحبة ولم تستطع مغالبة شعورها بالاعجاب به.

سألها بقلق:

- وماذا عنك؟ ماذا ستلبسين؟ أرجو أن يكون لديك ثوباً خليقاً بالحفلات.

ضحكت ڤاسيا. ملابس تليق بالحفلات! لعل ذلك أمر ميسر في أمريكا. إنهم قادرون على تغيير ملابسهم يومياً إذ أنهم لا يفتقرون إلى المال. أما هي فإنها ستكتفي بوضع «بلوزة» نظيفة وحذاءيها الجديدين. هذا أفضل ما عندها. عبس ڤلاديمير في وجهها ورمقها بنظرة مغضبة أثارت أعصابها.

- هل تحسبين أن الناس في المسرح لن ينظروا إلا إلى قدميك. وماذا عن بقية جسمك. إنه يبدو مكسواً بكيس.

- ولكن لماذا الغضب يا ڤلاديمير.

- لست غاضباً، أنت التي سوف تغضبين من نفسك حين تجدين نفسك بين كل أولئك الناس المهمين بهذا اللباس.

سيظن الناس أننا نعيش في السجن أو الدير بسبب تصرفك. لا مسرات، لا ثياب جميلة، لا بيت حقيقي، أنت تسكنين بجحر الأرانب هذا، ولا تشربين إلا الماء، ولا تأكلين إلا الحساء المرق، ولا تلبسين إلا الخرق البالية... أي حياة هذه! لقد كنت أعيش أفضل من هذه الحياة حتى حين كنت عاطلاً عن العمل في أميركا.

- لكنك تدرك جيداً أننا لن نبلغ الكمال بين ليلة وضحاها. أنت تعرف وأنا أعرف أن الوضع عسير، وأن روسيا تعاني من دمار رهيب في هذه المرحلة.

ـ أتمنى لو تكفي عن الحديث عن الدمار. من الأفضل لك أن تنظري إلى قادتنا الجدد بدلاً من ذلك. لقد تخبط القادة القدامى في الفوضى، ولكن ما إن بدأ القادة الجدد يصلحون الوضع، حتى صرخ الناس: «هل تريدون أن نعود إلى الحياة البورجوازية؟ نريد العودة إلى الأيام البلشفية المبكرة بدلاً من هذا». أنتم لا تعرفون كيف تعيشون، هذه مشكلتكم، ولهذا سنبقى نتخبط في الفوضى. لم أشارك في الثورة لأحيا مثل هذه الحياة.

ـ ولكن، هل تعتقد أننا قمنا بالثورة من أجل مصلحتنا؟
ـ من أجل مصلحة من إذن؟
ـ الجميع.
ـ بما فيهم البورجوازية؟
ـ لا طبعاً. من أجل العمال والشغيلة.
ـ ومن نحن إذن؟ ألسنا العمال والبروليتاريا؟

وواصلا مشاجرتهما بحدة. وأخيراً غادرا المنزل، ومشيا في الشارع فوق وحل الربيع. مشى ڤلاديمير أمامها صامتاً، وجهدت ڤاسيا في محاولة محاذاته.

ـ ڤلاديمير يا عزيزي، أرجو أن تتباطأ قليلاً، إنني ألهث.

توسلته أخيراً فتباطأ لكنه تأبى الحديث. في المسرح قابل ڤلاديمير أصحابه، وانضم إليهم في الاستراحة تاركاً ڤاسيا وحيدة. تمنت لو لم تبدد المساء بهذه الطريقة. فهي لا تتمتع، فضلاً عن أنها ستجد عملاً مضاعفاً ينتظرها في اليوم التالي.

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة وحين بات ڤلاديمير على وشك الرحيل، افتتحت أعمال المؤتمر. حرص ڤلاديمير على الحضور رغم أنه ليس مندوباً. أثيرت مسائل سياسية كثيرة في تلك الفترة ودار حولها نقاشات مطولة،

وحول هذه النقاشات بدأت تتشكل تكتلات جديدة. اتبع ڤلاديمير خط ڤاسيا، وانضم إلى مجموعتها بحماسة ومعه أصدقاءه القدامى. ما كانا ينفصلان سواء خلال المؤتمر أو فيما بعد في الأمسيات. كانا يقضيان أوقات الفراغ في وضع الخطب في المنزل. ويجتمع بعض أعضاء هذا التكتل في غرفتها ويتخذون القرارات.

ووجد ڤلاديمير آلة كاتبة ووافق عن طيب خاطر على القيام بدور «الطابعة». كان هذا الوضع يثير السعادة في القلوب. فالكل يعمل معاً كالأصدقاء، وسط جو من الوحدة الأصيلة بينهم. طبعاً، كانت تقوم بينهم جدالات حادة أحياناً حين يثورون ويفقدون أعصابهم، ثم ينفجرون ضاحكين بلا سبب محدد. كانوا جميعاً يحبون مثل هذه المواجهة.

جاء ستيبن اليكسيڤيتش أيضاً. جلس هناك، وراحت يده تعبث بلحيته الرمادية، وكان مزيناً مثل تاجر عتيق. وعينيه تشملان الجميع بنظرة حنونة كلها محبة. وكانت ڤاسيليسا تهمس في أذنه طوال الوقت. لقد كان معجباً بها ويحترمها، إذ قال مرة لصديق «إنها تتمتع بعقل جيد» أما مع ڤلاديمير فقد كان يتصرف بشيء من البرود، مما أثار القلق في نفس ڤاسيا. فهي لا تفهم السبب ولا تتبينه. وبالمقابل لم يكن ڤلاديمير نفسه ميالاً إلى اليكسيڤيتش.

قال لها ڤلاديمير مرة:

ـ صاحبك ستيبن اليكسيڤيتش هذا منافق. إنه ليس مناضلاً حقيقياً. فهو من الذين يعملون بعيداً عن الميدان.

في النهاية خسر تكتل ڤاسيا في المؤتمر، لكنهم تمكنوا من إحراز أصوات تفوق توقعاتهم، وكان ذلك نصراً كافياً بالنسبة لهم.

انتهت مدة إجازة ڤلاديمير المرضية قبل نهاية المؤتمر، ومرة أخرى شعرت ڤاسيا أنها تتمزق بين واجبين. بين واجب مساعدة زوجها في

التحضير لرحلة العودة، وبين المؤتمر. إلا أنها تجد هذا التعارض الآن منعشاً. إذ شعرت مرة أخرى أن ڤلاديمير لم يعد زوجاً وحسب بل ورفيقاً حقيقياً أيضاً. كانت فخورة به، إذ ساعد التكتل مساعدة ثمينة، حتى أصحابها ما كانوا يرغبون في سفره.

وأقبل يوم رحيله.

قال كالساخر:

ـ إلى اللقاء يا ڤاسيوك ستضطر عصفورتي الصغيرة إلى البقاء تحت الإفريز وحيدة، ولن تجد من تتشكى له مشاكلها. ولكن بالمقابل لن يكون ثمة من يزعجها في عملها أيضاً.

قالت ڤاسيا وهي تضمه وتقبله على عنقه:

ـ هل تعتقد حقاً أنك شغلتني عن عملي.

ـ أنت التي قلت أن زوجك يأخذ الكثير من وقتك. وأنت من تذمر حول تدبير المنزل.

ـ أرجوك لا تذكرني بذلك. إن الوضع بدونك أكثر صعوبة وقسوة. دفنت رأسها على صدره.

ـ أنت لست زوجي وحسب، أنت صديقي ولهذا أحبك كثيراً.

تبادلا القبلات برفق وودع كل منهما الآخر. ولكن ما إن عادت فاسيا مسرعة إلى المؤتمر فكرت: «صحيح أنني أحب البقاء معه، إلا أنني أشعر بحرية أكبر حين أكون وحدي. حين أكون مع فولوديا اضطر للتفكير عن اثنين، وأهمل العمل». بوسعها الآن أن تغرق مرة أخرى في العمل. تعمل ثم تستريح. إذ أنها لم تنم جيداً حين كان زوجها معها.

حين عادت إلى المؤتمر سألها ستيبان اليكسيڤيتش:

ـ هل ودعت زوجك؟

ـ نعم، لقد رحل.

ـ سوف يكون الوضع أسهل لك الآن. لقد أجهدت نفسك حين كان هنا.

دهشت ڤاسيا من نفاذ بصيرة اليكسيڤيتش. لم تنبس، ترددت في الاعتراف بذلك حتى لنفسها ـ بدا لها الاعتراف بذلك إهانة لڤلاديمير.

- ٤ -

استفاقت ڤاسيليسا ما إن طلع الفجر. القطار سوف يصل في الصباح وعليها أن تسوي شعرها وهندامها حتى يُسر ڤولوديتشكا من مظهرها. بدت لها الشهور السبعة التي افترقت فيها عن ڤلاديمير طويلة أبدية. كانت ڤاسيليسا تشعر بخفة في رأسها مثل الصباح الربيعي.

المرأة الأخرى لا تزال في السرير، تتثاءب وتتمطى وتتطلع إلى وجهها في مرآتها الصغيرة. لكن ڤاسيا كانت قد اغتسلت وسوت شعرها، ولبست ثوبها الجديد. حين رنت إلى مرآة القطار لم تر سوى عينيها المتوهجتين تضيئان وجهها كله. بدا وكأن لا شائبة تشوب مظهرها. هذه المرة لن يكون في وسع ڤلاديمير أن يتهمها بأنها ترتدي أسمالاً.

توقف القطار عند محطة جانبية، وأطلت ڤاسيا تتفرج. كانت الشمس متوقدة ملتهبة رغم الصباح المبكر. تباشير الربيع في الشمال باهتة لا تكاد تُحس بينما كل شيء هنا ينفجر مزهراً. وما كانت الأشجار المجللة بعناقيد من الزهور البيضاء الشبيهة بالليلك، مألوفة في عيني ڤاسيا. أوراقها تشبه أوراق شجر السِّمن لكن لونها أكثر رقة. تضوعت برائحة عذبة تنشقتها ڤاسيا عبر النافذة.

سألت ڤاسيا قاطع التذاكر:

ـ أي نوع من الأشجار هذه؟ ليس لدينا مثلها في مسقط رأسي.

أجاب:
- إنها آقاقيا بيضاء.

أقاقيا بيضاء! ما أجملها. قطف قاطع التذاكر ضمة أزهار وناولها لڤاسيا. رائحتها رائعة، وشعرت ڤاسيا بسعادة غامرة حتى أنها كادت تبكي. بدا كل شيء حولها جميلاً ممتعاً، وأعظم من هذا كله - قالت لنفسها - إنني بعد ساعة واحدة سأرى حبيبي ڤولوديا مرة أخرى.

سألت ڤاسيا قاطع التذاكر:
- هل سنصل قريباً؟

بدا لها وكأن القطار لن يتحرك ثانية أبداً، ينفث دخانه وكأنه عَلِق بهذه المحطة إلى الأبد. وأخيراً انطلق القطار وعبر بلدة وكاتدرائية ومعسكر ثم ضواح ثم بلغ المحطة المنشودة أخيراً. أطلت ڤاسيا مثارة وراحت تفتش عن ڤولوديا ببصرها. أين هو؟ أين ڤولوديا؟ وفجأة ألفت نفسها بين ذراعيه بعد أن اندفع من مؤخرة العربة.

تبادلا القبلات وتعانقا.
- أوه ڤولودكا، ڤولودكا، لا أصدق عيني.

قال:
- ناوليني أغراضك فوراً وتعالي لتقابلي سكرتيرنا. يا أڤان اڤانوفيتش، خذ هذه الأغراض، وسنأتي نحن بالعربة. لدي جوادان أيضاً الآن يا ڤاسيا، ولي بقرة خاصة بي، وأفكر بتربية خنازير. لدينا مساحة واسعة، مزرعة كاملة، انتظري حتى ترينها، بوسعك الآن أن تعيشي مثل سيدة العزبة. وأشغالي ناجحة أيضاً، لقد أعادوا لتوهم، فتح الدائرة في موسكو.

وواصل ڤلاديمير أحاديثه دون توقف، كان يتوق إلى إخبارها عن حياته الجديدة ومشاريعه وأفكاره. جلست ڤاسيا في العربة إلى جانبه

وأصغت. ورغم أنها كانت مبتهجة لسماع أخباره فقد تاقت إلى إخباره عن نفسها وإلى معرفة كيف يتدبر أموره في غيابها، وما إذا كان قد اشتاق لها وشعر بالوحدة.

وصلوا البيت. أمامها انتصب بيت قديم مع حديقة. هرع صبي ساع ليساعدهم في الترجل من العربة.

قال ڤلاديمير:
ـ لنر إن كان البيت يعجبك يا ڤاسيا، أعتقد أنه أفضل بقليل من جحر الأرانب الذي تسكنين فيه.

دلفا إلى البيت. في المدخل درج مجلل بالسجاد ومرآة. خلعت ڤاسيا قبعتها ومعطفها ودخلا إلى غرفة الجلوس. الكنبات والسجاد في كل مكان. وساعة كبيرة في غرفة الطعام فضلاً عن لوحات ذات إطارات مذهبة على الجدران وعصفور محنط معلق على مسمار.

سألها ڤلاديمير مضاء الأسارير:
ـ هل أعجبك؟
ردت ڤاسيا بتردد:
ـ نعم.

وجال بصرها في الغرفة، ولم تدر إن كان البيت قد أعجبها أم لا. بدا البيت غريباً غير مألوف في ناظرها. فتح ڤلاديمير باباً وأعلن:

ـ هذه غرفة نومنا.

للغرفة نافذتان تطلان على الحديقة.

قالت بابتهاج:
ـ أوه، انظر إلى الشجر. إنها أقاقيا بيضاء.

هرعت إلى النافذة، مسحورة.

ـ لماذا لا تلقين نظرة على الغرفة أولاً. سيكون لديك متسع من الوقت لتتفرجي على الحديقة. لا بأس باعدادي الأمور لك، أليس كذلك؟ كل شيء هنا اخترته ورتبته بنفسي، ومنذ سكنت فيه وأنا أنتظر مجيئك لتريه.

قالت ڤاسيا:

ـ أشكرك يا حبيبي.

وتطاولت ڤاسيا لتقبل ڤولوديا، إلا أنه تجاهل المحاولة وأخذها من كتفيها واستدار بها فإذا هي وجهاً لوجه إزاء مرآة كبيرة في الخزانة.

ـ انظري، سوف تريحك. إذ بوسعك أن تبصري جسدك كله عند تبديل الثياب، وتحتها ثمة رفوف لتضعي فيها ملابسك الداخلية وقبعاتك وملابسك البهيجة...

ـ فولوديا، هل تعتقد أن لدي قبعات وملابس جديدة؟ لعلك وجدت سيدة حقيقية..

ضحكت ڤاسيا. إلا أن ڤولوديا واصل حديثه بلا ارتباك:

ـ والآن هلا نظرت إلى السرير؟ الغطاء من الحرير الأصلي. الحقيقة أنني وجدت صعوبة في الحصول عليه، إذ أنه لم يسلم لي مع بقية أثاث البيت. وهناك مصباح قرنفلي بوسعك إضاءته ليلاً..

طاف ڤلاديمير وڤاسيا بالمنزل، وراح ڤلاديمير يشير إلى كل التفاصيل الصغيرة ويشرحها لها. كان ڤلاديمير جذلاً كطفل بهذا البيت الذي بناه لزوجته. سعادته الواضحة جعلت ڤاسيا تتبسم أيضاً، لكنها شعرت بالتوتر. صحيح أن الغرف جميلة، لكنها تبدو لها غريبة غير أليفة. أحست وكأنها دخلت منزل شخص آخر. لم يكن في المنزل أي شيء مما تحتاجه فعلاً، ولا حتى طاولة لتضع عليها كتبها وأوراقها. الشيء الوحيد الذي أحبّته ڤاسيا هو النافذتين المطلتين على حديقة الأقاقيا.

ـ أقترح أن ترتبي حاجياتك وتغتسلي ثم نذهب لنأكل.

قال فلاديمير ذلك وقصد النافذتين ليسدل الستائر.

قالت ڤاسيا:

ـ أرجوك لا تفعل ذلك، منظر الحديقة من خلال النافذتين جميل.

ـ ينبغي إسدال الستائر حتى لا تفسد الشمس السجاد والأغطية.

وهكذا حجبت الستائر الحديقة الخضراء مثل رموش كثيفة وأضفت الستائر الرمادية طابعاً أكثر اغتراباً في عيني ڤاسيا. غسلت يديها وشرعت تمشط شعرها أمام المرآة.

سأل ڤولوديا فجأة:

ـ ما هذا الثوب الذي تلبسين؟ أهو الثوب الذي خُيط لك من قطعة القماش التي أرسلتها؟

قالت ڤاسيا وهي تتوق إلى سماع إطراءه:

ـ نعم، هذي هي القطعة.

ـ دعيني أرى.

أدارها إلى اليمين ثم إلى اليسار. لمحت في عينيه نظرة استنكار.

ـ ما الذي جعلك تضعين هذه الثنيات عند الوركين بحق السماء؟ إن جسدك ناحل ويصلح لأحدث صرعات الأزياء. من أين أحضرت هذا الثوب البشع؟

وقفت ڤاسيا مذهولة وقد تضرجت وجنتاها شعوراً بالذنب.

ـ بشع؟ ولكن غروشا قالت أنه آخر موضة.

ـ غروشا جاهلة، كل ما فعلته هو تخريب قطعة جيدة من القماش. تبدين مثل زوجة كاهن في هذا الثوب. من الأفضل أن ترمي به جانباً وتعودي لترتدي «تنانيرك» العادية، إنهن يناسبنك أكثر. بهذا الثوب تبدين كالطاووسة.

ولم يبد على ڤولوديا أنه يلاحظ الألم في وجه ڤاسيا، فقد حول وجهه ويمم صوب غرفة الطعام ليتعجل العشاء. هبت ڤاسيا كالمحمومة فخلعت الثوب وارتدت تنورة وبلوزة يغمرها شعور حاد بالشقاء. وانسكبت دمعتان على وجنتيها ثم على بلوزتها، وجفا من فورهما إلا أن عينيها لم تخلوا من تعبير ينم عن امتعاض بارد.

الخادمة ماريا سيمينوڤا وهي امرأة ممتلئة في منتصف العمر، قدمت نفسها إلى فاسيا أثناء العشاء وصافحتها.

ما إن غادرت ماريا سيمينوڤا الغرفة حتى قال ڤلاديمير بحدة:

- ما كان ينبغي أن تصافحيها. أرجو أن تتذكري في المستقبل أنك أنت سيدة المنزل، وإلا فإنك سوف تفسدينها، ولن ينتهي التشكي والازعاج.

حدجت ڤاسيا إليه بذهول قالت:

- لم أفهم مغزى حديثك.

إلا أن ڤلاديمير انثنى عن الموضوع وراح يلح عليها لتأكل. لكن شعورها بالتعاسة حال دونها والطعام.

- سوف يعجبك غطاء الطاولة الذي اشتريت، إنه من حرير المورورزڤ، مع مناديل تناسبه. لم آمر بوضعه على الطاولة لأن غسيله يكلف غالياً.

- من أين لك هذا؟

سألته ڤاسيا بصرامة ثم أضافت:

- أرجو أن لا تكون قد أحضرت كميات كبيرة منها.

ضحك وقال:

- إنك لا تدرين كم تكلف هذه الأشياء في وقتنا الحاضر. ملايين

الروبلات. هل تعتقدين أن راتبي يكفي لشراء الكثير من هذه الأشياء المترفة؟ أحصل على مثل هذه الأشياء مع البيت بصفتي مديراً، ومن حسن حظي أني وصلت في الوقت المناسب، لأنني حصلت على هذه الأشياء عن طريق دوائر مختلفة وبوساطة بعض المعارف المتنفذين. أما الآن فقد توقفوا عن فعل ذلك. فأما أن يدفع المرء الثمن نقداً أولا يحصل على شيء. طبعاً، ثمة أشياء اشتريتها بنقودي، مثل الحزانة وأثاث غرفة النوم والمرآة واللحاف الحريري، والمصباح... كان يعدد هذه الأشياء بضرب من المباهاة، إلا أن وجه ڤاسيا ازداد بروداً، وأطلت في عينيها نظرة عدائية.

- وهل لي أن أسألك، كم كلفك كل هذا؟

كان صوتها يرعش بغضب مكبوح. إلا أن ڤلاديمير لم يلاحظ ذلك واستأنف تناول الكستلاته والمرق، واحتساء البيرة.

- حسن، إذا كنت تصرين على معرفة الثمن فقد دفعت - آخذين بالحسبان الخصم بسبب الدفع نقداً..

وأطرق متكلفاً الجدية والخطر ثم انبأها بالمبلغ الكبير وتبسم متباهياً مزهواً.

انتفضت ڤاسيا ومالت نحوه. بغضب.

سألها مدهوشاً:

- ماذا يا ڤاسيا؟ ما الأمر؟

- قل لي الآن، من أين حصلت على هذا المبلغ الكبير. فوراً، الآن، أريد أن أعرف في هذه اللحظة.

- لا تبالغي يا ڤاسيا، عليك بالهدوء، أرجوك. هل تحسبين أنني حصلت على المبلغ بطريقة ملتوية؟ أم أنك لا تفهمين قيمة المال؟ لو سكنت نفساً

وحاولت أن تحسبي رواتبي لفهمت. ثم انبأها عن راتبه الشهري.

- أحقاً راتبك مرتفع إلى هذه الدرجة؟ ولكن حتى لو كان مرتفعاً فإنني لا زلت استغرب كيف يمكن لشيوعي مثلك أن ينفق كل هذه المبالغ على التوافه، رغم علمك بأن الفقر منتشر في كل مكان وأن الناس جائعون. وماذا عن البطالة؟ هل نسيت العاطلين عن العمل أيضاً ما أن بتَّ مديراً؟ من الأفضل أن تجيب يا سيد مدير!

كانت ڤاسيا تستجوبه بقسوة.

إلا أن ڤلاديمير لم يتزحزح عن موقفه. بل حاول أن يقنعها بموقفه. حتى إنه داعبها مثيراً غيظها قائلاً إنها عاشت لمدة طويلة مثل عصفور حتى إنها نست قيمة النقود. فثمة كثير من الناس يحصلون على رواتب مرتفعة أكثر من راتبه. وبعضهم يحيا حياة بذخ حقيقية.

إلا أن الكلمات لم تنطل على ڤاسيا. كانت تريد سماع تبريره، لماذا لا يحيا حياة شيوعي حقيقي؟

وحاول ڤلاديمير إقناعها بطريقة أخرى. فشرح لها الجوانب السياسية للموضوع. فقال لها أن وظيفة المدير متطلبة، وحدثها عن تعليمات قال إنه تلقاها من اللجنة المركزية للحزب. وأصر على أن الأولوية الأساسية في عمله هي أن يضمن ارتفاع الأرباح وازدهار العمل مهما كلف الثمن. وقبل أن تنتقده عليها أن ترى ما الذي أنجزه في سنة واحدة. لقد أنشأ العمل من العدم وأمسى أكثر ربحاً، حتى أنه بات يقارن بمؤسسات الحكومة في المنطقة.

وحتى لو عاش «كإنسان متحضر» - حسب تعبيره - فذلك لا يعني أنه ما عاد يلتفت لموظفيه وعماله. وأضاف قائلاً إنها لو حاولت معرفة المزيد من التفاصيل عن العمل لتوقفت عن إزعاجه بالنقد. وقال إنه ما كان يتوقع هذا الموقف منها. ما كان يتوقع منها، وهي الصديقة

الصدوقة، أن تقف إلى جانب أعدائه ما إن تصل. العمل وحده عسير فكيف بانتقاداتها أيضاً. ولماذا يجهد نفسه ما دامت زوجته لا تهتم إلا بنقده والتهجم عليه ومحاكمته لأسلوب حياته؟

كان ڤلاديمير يمسك في نفسه عتباً. إنه ثائر الآن. عيناه تشتعلان غضباً وامتعاضاً. كيف يسعها عدم الثقة به؟ كيف يسعها أن تحكم عليه بهذه الطريقة.

بدأت نفس ڤالسا ترق وهي تصغي إليه. لعله على حق. فالأمور تغيرت. المهم أن حساباته صحيحة، والعمل يزدهر، والدخل القومي يزداد. وهي لا تخالفه في هذا.

ـ وماذا لو سعيت للحصول على بعض الامتيازات وأقمت بيتاً لي؟ إنني على يقين من أنني لن أقضي حياتي في منزل جماعي. ولماذا نكون في وضع أسوأ من وضع العمال الأمريكيين؟ ليتك ترين كيف يعيشون، إن الواحد منهم يملك بيانو وسيارة ودراجة نارية.

خلال هذا الحوار أطلت ماريا سيمينوڤا عدة مرات تتطلع إلى تقديم الفطائر المحلاة. تنهدت. ما إن يجتمعا حتى يسارعا إلى النزاع والجدال! تلك كانت حالة أبناء الطبقة العليا عندما اشتغلت ماريا سيمينوڤا خادمة قبل الثورة. هؤلاء ليسوا بأفضل من أولئك. هؤلاء الشيوعيون ـ فكرت منزعجة ـ إنهم يتركون الفطائر تبرد هكذا.

في اليوم التالي اصطحب ڤلاديمير ڤاسيا وطاف بها مكاتب الشركة، ثم إلى المستودعات ومساكن المستخدمين. قادها نحو مكتب المحاسبة قائلاً:

ـ انظري الآن إلى دفاتر حساباتنا. لن تجدي من يرصد حساباته مثلنا. لن تتهميني بالتبذير بعد أن تتفحصين الوضع هنا. ثم سأل المحاسبين أن يشرحوا لڤاسيا المبادىء التي يعتمدونها في عملهم. وقال إن

المبادىء المعتمدة بسيطة ودقيقة، مما دفع اللجنة المركزية إلى تهنئة الموظفين. على رغم من أن ڤاسيا عجزت عن متابعة كل الشرح إلا أنها تبينت أن الناس هنا قد بذلوا مجهودات كبيرة وأنهم يحبون عملهم. باتت على يقين من التزام ڤولوديا بعمله وتضحيته في سبيلها.

ثم طاف بها شقق الموظفين وجعل يسأل زوجاتهم على مسمع منها إن كن سعيدات. وكان يلقي على ڤاسيا نظرات تشع بالانتصار إذ يأتي الجواب دائماً:

- إذا أخذنا الظروف الحاضرة بعين الاعتبار فإني أعترف بسعادتي وكل ذلك يعود إليك يا ڤلاديمير ايڤانوفيتش.

- أتسمعين يا ڤاسيا؟ وتتهميني بأني مفرط التبذير. صدقيني أن اهتمامي الأول هو القيام بكل ما في وسعي لخدمة المستخدمين. بعد ذلك فقط أفكر قليلاً بنفسي. أترين كيف يعيشون؟ الموظفون مثل العمال والعكس صحيح، وضع العمال ليس اسوأ من وضع الموظفين. لقد فعلت كل ما بوسعي من أجلهم.

- حسن، لقد قمت بكل ما في وسعك من أجلهم. ولكن ماذا فعلوا هم لأنفسهم؟

- لا شك في أن أفكاراً غريبة تلم ببالك بين الحين والآخر يا ڤاسيا، ألا ترين أننا - أنا وهم - نعمل معاً. في العهد البائد كان ثمة قوانين خاصة بالمدراء لا تسري على العمال، فثمة قوانين مختلفة للعمال. لكن الوضع هنا مختلف. أنت لست سوى موضة قديمة يا ڤاسيا.

قال ذلك بنبرة مداعبة ضاحكة، إلا أن ڤاسيا أحست أنه منزعج ومجروح من ملاحظاتها.

قضى ڤلاديمير ذلك اليوم وهو يطوف بها أقسام المؤسسة المختلفة حتى

أدركها التعب وأخذت تحس النبض في صدغيها، والوجع في ظهرها وفي أطرافها. وعزمت على أن تأوي إلى الفراش فور عودتها إلى المنزل حتى تنال قسطاً وافراً من النوم. لا يزال رأسها يتصدع من أصوات عجلات العربة.

وما إن عادا إلى المنزل حتى أنبأها ڤولوديا أن ثمة ضيوف سيأتون لتناول الطعام معهما وعلى ڤاسيا أن تستقبلهم. فتح الساعي لهما الباب. فتناول ڤلاديمير دفتر ملاحظاته وكتب رسالة قصيرة ثم ناولها للساعي.

ـ هيا إمض في طريقك يا ڤاسيا، لا أريد أي تلكؤ. عليك أن تجيبي شخصياً، أتفهمين؟

ثم التفت إلى ڤاسيليسا ورنا إليها بنظرة ذات مغزى ينم عن الشعور بالذنب والحذر. قال كالحائر:

ـ لماذا تحرجيني هكذا يا ڤاسيك.

أجابت:

ـ ليس من سبب. إذن الساعة أيضاً اسمها ڤاسيا أليس كذلك؟

ـ نعم، هذا صحيح، أوه.. إذن هذا سبب انزعاجك. أن يكون اثنان اسمهما ڤاسيا في بيتي. أي امرأة أنت. اعتقد أنك تغارين. ليس ما يدعو إلى القلق، أنت تعرفين أن ثمة ڤاسيا واحدة لدي في العالم كله أنت من أحب.

ضم ڤاسيا بحب، وقبلها وهو يرنو إلى أعماق عينيها. ثم أخذ يلاطفها لأول مرة خلال ذلك اليوم. فعانقها وقادها إلى غرفة النوم. سرعان ما أقبل الضيوف ليتناولوا الغداء: ساڤيليڤ، وايڤان اڤانوڤيتش مدير هيئة المديرّين. كان ساڤيليڤ مديد القامة بدينها وشعره القصير مصفف بعناية، وكان يضع خاتماً في سبابته. نظرات عينيه تنم عن خبث

ومكر، وبدا لڤاسيا أن ابتسامته المرسومة على وجهه الحليق تشي بضرب من السخرية وكأنما هو مراقب متفرج لا يلتفت إطلاقاً إلى أي شيء ما دام ليس متورطاً في أية قضية.

حين رحبت به رفع يدها إلى شفتيه، فاستردتها ڤاسيا مضطربة مرتبكة. قالت:

- لم أعتد هذا.

قال:

- كما ترغبين، إلا أنني لا أنفر أبداً من تقبيل يد سيدة. إنها عادة مقبولة، وإنها بلا شك لن تجعل من زوجك غيوراً، أليس كذلك يا ڤلاديمير ايڤانوڤيتش؟ هيا، اعترف.

وربت على كتف ڤلاديمير. ضحك ڤلاديمير وقال:

- ڤاسيا امرأة نموذجية ولا يمكن أن أشعر نحوها بالغيرة. غمز سافيليف لڤلاديمير وقال:

- ولكن يبدو بوضوح أنها لا تتخذ زوجها نموذجاً.

أجاب ڤلاديمير بنزق:

- لا أعتقد أنني فعلت ما يجعلها تخمن...

قاطعه سافيليف:

- لا بأس، لا بأس، نحن نعرفكم أيها الأزواج. لقد كنت أنا نفسي زوجاً مرة. أما الآن فأحيا حياة عازب.

لم ينفتح قلب ڤاسيا لساڤيلف هذا. إلا أن ڤولوديا بدأ يتحدث معه عن السياسة والعمل، وكأنه صديق قديم وحميم. ولو كانت ڤاسيا في مكان ڤولوديا لما ناقشت الأوضاع السياسية مع مضارب مثل هذا، ولما

أرسلت النكات حول رئيس الهيئة التنفيذية كما يفعلان. على ڤولوديا أن يدرك هذا وأن يضع حداً لصداقته مع هذا الرجل.

تناولوا الخمرة مع الغداء ـ وكان إيڤان ايڤانوڤيتش قد أحضر معه زجاجة من الخمر في سلة من القش. أصغت ڤاسيا إلى النقاش محاولة أن تستوعب النقاط الأساسية. وفهمت أن الشركة قلقة نتيجة تأخير كمية كبيرة من البضاعة التي سوف ترتفع قيمتها ولكنها قد تصل بعد فوات الأوان إلى السوق. وشعرت أن ما قيل ليس ذا مغزى، وأنهما يتفاديان صلب الموضوع. كان رأسها الدائخ يحول بينها وبين سماع الحديث بكل تفاصيله إلى ذلك كانت عيناها تؤلمانها. تمنت لو ينتهي الغداء بسرعة.

أخيراً انتهوا من تناول الطعام، وأمر ڤلاديمير من فوره بتهيئة السيارة للمضي إلى المطار وحضور اجتماع يعقد هناك ـ حول مشكلة المواصلات.

قال ساڤليف وهو يتبسم ويرمق ڤلاديمير بنظرة جانبية:

ـ كيف يسعك يا فلاديمير ايڤانوڤيتش أن تسعى إلى الاجتماع الليلة، وقد أتت زوجتك لتوها بعد سفر مضنٍ؟ لماذا لا تبق معها فترة من الوقت؟ من اللائق أن تبقى معها.

قال ڤلاديمير بصوت لا يخلو من حدة وهو يقتطع سيجاراً:

ـ مستحيل، كنت أتمنى لو أظل هنا إلا أن العمل يضغط علي.

إلا أن ساڤليف قال ملحاً:

ـ ولكن ثمة فارق بين عمل وعمل.

ومرة أخرى بدا هذا المضارب البغيض يغمز إلى ڤلاديمير، وكأنما يسخر من ڤاسيا. قال:

ـ لو كنت مكانك لألغيت كل أعمالي اليوم، في سبيل أن أقضي هذه الأمسية الأولى مع زوجتي، إذ أن العمل لن يتبخر.

لاذ فلاديمير بالصمت وسعى نحو سيارته بانزعاج:

ـ هيا، لنمض يا نيكانور بلاتونوفيتش.

غادروا المنزل ولحق بهم سافيليف وايفان ايفانوفيتش، تاركين فاسيا وحدها في المنزل الكبير الموحش. عبرت الغرف الباردة المقفرة وسعت إلى غرفة نومها. وقفت إزاء جانب النافذة وسرحت أفكارها. ثم رقدت تحت الغطاء الحريري، ولم تلبث حتى أخذتها عينها فنامت.

استفاقت منتفضة. العتمة تغشى الغرفة. أشعلت النور، الساعة الثانية عشرة والربع. هل نامت طوال هذا الوقت؟ الوقت تجاوز منتصف الليل وفولوديا لم يعد بعد. انزلقت من الفراش فغسلت وجهها بماء بارد ثم سعت إلى غرفة الطعام. كانت المائدة معدة للعشاء والضوء يغمر الغرفة. كل الغرف الأخرى مهجورة معتمة. سعت إلى المطبخ ألفت ماريا سيمينوفنا تنظف. سألتها:

ـ ألم يعد فلاديمير ايفانوفيتش بعد؟

أجابت:

ـ لا، ليس بعد.

ـ هل يعود عادة من الاجتماعات متأخراً؟

ـ أحياناً.

كانت ماريا سيمنوفنا صموتة فظة في تلك اللحظة.

ـ ولكن هل تنتظرينه حتى هذا الوقت عادة؟ ألا تأوين إلى فراشك؟

ـ أنا وفاسيا نتناوب يومياً بالتتالي.

ـ هل سيتناول فلاديمير عشاءه؟

ـ إنه يتناول العشاء حين يعود بصحبة ضيوف فقط، أما إذا عاد وحيداً فإنه يأوي إلى الفراش من فوره.

وقفت ڤاسيا في مكانها فترة من الزمن، إلا أن ماريا سيمينوڤا كانت مشغولة بعملها فلم تلتفت إليها. وهكذا عادت إلى غرفة نومها وفتحت النافذة على مصراعيها. كانت ليلة باردة والأقاقيا تتضوع برائحتها الحادة في الهواء، والضفادع ترسل نقيقها عالياً مما لفت نظر ڤاسيا التي حسبت أنها عصافير الليل. السماء مظلمة تنتثر عليها مجموعة من النجوم المختلفة.

وما زالت ڤاسيا ترنو إلى العتمة حتى داخلتها السكينة. نسيت ساڤيليڤ المضارب. ونسيت عتبها على تصرف ڤولوديا غير اللائق تجاهها. وامتلأ قلبها. بخاطر واحد: لقد جاءت لترى حبيبها، لتساعده في فهم خط الحزب الصحيح. لا غرابة في وقوعك في الورطات ما دمت تعاشر مثل هؤلاء الندماء. هذا ما ستقوله له. اللوم لا يقع عليه، إنه في أمس الحاجة إلى نصيحتها ولهذا أرسل في طلبها.

فكرت ڤاسيا مزهوة في ڤولوديا وكيف أنه أقام العمل على أسس صحيحة، إنه عامل نموذجي. وتراءت لها حوادث هذا اليوم من خلال منظار جديد. شعرت بالتفاؤل وَرَقَّ بالها.

كانت مستغرقة في هذه الخواطر حتى إنها لم تنتبه إلى السيارة وهي تدنو، ولا لخطوات ڤلاديمير وهي تعبر البُسط. انتفضت لدى سماعها صوته.

سألها وهو يرمقها بنظرة قلق رفيق:

ـ لماذا تستغرقين في التفكير يا ڤاسيا؟

ـ إذن عدت أخيراً يا حبيبي. أنتظرك منذ زمن بدا لي أبدياً.

أحاطت عنقه بذراعيها، ورفعها ڤلاديمير بين ذراعيه شأنه في الأيام المبكرة لزواجهما. السعادة تغمر ڤاسيا. ڤولوديا يحبها، يحبها مثلما أحبها دائماً. كم كانت غبية، لماذا كانت متوترة طوال اليوم؟

جلسا وراحا يحتسيان الشاي ويتحدثان بفرح. انبأت ڤاسيا زوجها رأيها في سافيليف، وأشارت عليه أن لا يقيم علاقة صداقة مع أمثاله. لم يجادلها فولوديا في ذلك. بل اعترف لها أنه مثلها لا يحترم الرجل، لكنه ذو قيمة كبيرة. وذكرها بأن المشروع ما كان لينشأ لولا سافيليف. فعلاقاته مع مختلف الناس قديمة، وهو يحوز على ثقة التجار وبالتالي عارف ما بينهم وبين ڤولوديا. والحقيقة أن ڤولوديا تعلم الكثير منه. رغم أنه كإنسان ورجل ليس أكثر من محتال، وبورجوازي حتى العظم. ولكن لا غنى عنه في العمل. وأضاف ڤولوديا: لهذا وقفت إلى جانبه حين اعتُقل. أنهم يقدرونه في موسكو، وقد لاموا السلطات المحلية لاعتقاله.

سألته ڤاسيا بقلق:

- ولكن ألم تصفه في رسائلك بأنه محتال ولص؟

- حسن، كيف يسعني أن أعبر لك عن رأي؟ إنه عميلنا، صحيح أنه يتدبر مصالحه الذاتية، ولكن صدقيني إنه ليس أسوأ من الآخرين. على أن الآخرين يتدبروا مصالحهم ولا يشتغلون، بينما يعمل هو، لا لأنه مجبر على ذلك ولكن لأنه واعٍ. إنه يعرف عمله جيداً ويحبه.

إلا أن ڤاسيا ألحت فأذعن ڤولوديا ووعدها بتجنبه ما استطاع. فڤاسيا ترى أن العمل شيء والصداقة شيء آخر. عندما انتهيا من احتساء الشاي تبادلا القبلات وقصدا غرفة النوم. ضم ڤلاديمير رأس ڤاسيا برفق وقبل شعرها. قال:

- رأسك الصغير هذا عزيز على قلبي. لا يسعه أن يكون غريباً عني أليس كذلك؟ لن أتمتع بصديق مثلك يا ڤاسيا. أنت المرأة الوحيدة التي أحب، يا حبيبتي ڤاسيا القوية.

ـ ٥ ـ

استيقظت ڤاسيا متأخرة في اليوم التالي. كان ڤلاديمير قد مضى إلى عمله. لا بد وأنها قد أصيبت بالرشح أثناء الرحلة أو أنها مريضة، إذ شعرت بألم حاد في خاصرتها وكانت تسعل وكأنها مصابة كان الطقس معتدلاً مشمساً، لكنها تدثرت بشالها والتزمت الفراش. أقبلت ماريا سيمينوڤا، وقفت في الباب وشبكت يديها على بطنها، وهي ترنو إلى ڤاسيا تنتظر أن تبادرها الأخيرة بالكلام:

ـ صباح الخير يا ماريا سيمنوڤا.

ردت الأخرى بلهجة لاذعة:

ـ صباح الخير، ماذا تطلبين للغداء؟ أمرني ڤلاديمير ايڤانوڤيتش قبل أن يغادر أنك ستختارين طعام الغداء. إذ سيأتي ضيوف على الغداء.

فوجئت ڤاسيا. كانت معتادة على الوجبات السوفيتية العادية. لاحظت ماريا سيمينوڤا حيرة ڤاسيا، فبادرت واقترحت عدة أصناف. وافقت ڤاسيا على جميع الأصناف ولم تسأل إلا عن الأسعار. وبدت لها الأسعار باهظة فما كان من ماريا سيمينوڤا إلا أن زمت شفتيها. قالت:

ـ ليس بوسعك أن تتناولي ما تريدين وتوفري في آن معاً. يلزم المرء الكثير من المال من أجل كل شيء، خاصة وأن الشيوعيين قد ذهبوا بسياسة التموين.

سألت ڤاسيا بقلق:

ـ ولكن هل هناك نقود في حوزتك؟

ـ نعم، تبقى قليل من نقود الأمس، ولكنها لا تكفينا. اللحم مرتفع الثمن، ويلزمنا مزيد من الزبدة أيضاً.

ـ ألم يترك لك ڤلاديمير مبلغاً كافياً؟

ـ لا لم يترك لي شيئاً. لكنه قال «اذهبي واتفقي مع ڤاسيليسا ديمتيڤنا.

ظلت ماريا سيمينوڤا تقف في مكانها ساكنة تنتظر النقود. من الواضح أنها لن تتحركِ إلا حين تقبض المبلغ اللازم. وشعرت ڤاسيا بالحنق. كانت تملك كمية قليلة من المال إلا أنها ما كانت ترغب في تبذيرها على مثل هذه الأمور البيتية غير اللازمة. فلو فعلت لما تبقى معها كوبيك واحد تنفقه على حاجاتها الضرورية.

اقترحت ماريا سيمينوڤا قائلة:

ـ لماذا لا تقرضيني كمية قليلة من نقودك يسددها ڤلاديمير ايڤانوڤيتش حين يعود.

بالطبع تنهدت ڤاسيا الصعداء حين سمعت هذا الاقتراح. هذا هو الحل. لماذا لم يخطر هذا الحل على بالها؟ انصرفت ماريا سيمينوڤا راضية مطمئنة وقصدت ڤاسيا الحديقة، وتمشت عبر الممرات، ولكن سرعان ما أدركها التعب فأحست بأنها مريضة. عادت أدراجها إلى البيت، رقدت على الفراش ونامت وهي تطالع.

تقلبت في الفراش، تشتعل الحرارة في وجنتيها، وأقضت الكوابيس الثقيلة مضجعها. وقد استيقظت مرة، تلفتت حولها وشعرت بالغضب من كسلها. ينبغي عليها أن تكون في البلد تعمل. أي سخف وعبث هذا؟

أن تجتاز. كل تلك المسافات من أجل أن ترى ڤولوديا وإذا بها تقع فريسة للمرض! لكنها عاجزة حتى عن رفع رأسها، وما إن تغمض حتى تختلط أفكارها وتضطرب. تداهمها نوبات من غيبوبة النوم فتعجز عن التركيز.

عندما فتحت عينيها رأت ماريا سيمينوڤا تقف إلى جانبها.

ـ من المحتمل أن يصل ڤلاديمير ايڤانوڤيتش يا ڤاسيليسا ديمتيڤنا في أية لحظة الآن. جدير بك أن تنهضي وترتدي ثيابك، وسأسوي أنا السرير. إنه لا يحب فوضى الغرف.

سألتها ڤاسيا:

ـ هل تقدم النهار إلى هذه الدرجة؟

ـ أنها الساعة الخامسة، وما أصبت شيئاً من الطعام. كنت على وشك أن أنبهك لكنني ألفيتك نائمة نوماً عميقاً. وأنا أعلم كم هي متعبة تلك الأسفار الطويلة.

ـ لا أدري إذا كان السبب يعود إلى الرحلة. لكن يبدو أنني مصابة بالبرد إذ أحس بالحمى.

قالت ماريا سيمونوڤا ناصحة:

ـ من الأفضل إذن أن تتدثري بثوبك القطني، سوف يدفئك. لا حاجة بك إلى هذا الشال،

ـ لا، زوجي لا يحب هذا الثوب.

ـ لماذا؟ إنه ثوب جيد رغم أن هذه الشراشيب عند الورك والخصر ليست في مكانها الصحيح. انظري، كان ينبغي أن يكون خط الخاصرة هنا. لقد كنت خياطة في ما مضى. فأنا أعرف شيئاً ما عن آخر صرعات الأزياء. دعيني أقص التنورة يا عزيزتي ثم نعيد خياطة الثوب بطريقة

أخرى. سيظنه ڤلاديمير ايڤانوڤيتش جديداً حين ننتهي منه.

سألتها ڤاسيا بقلق:

ـ ولكن، هل سينتهي العمل في الوقت المناسب؟

ـ بالطبع لا. سنخيطه أنا وأنت بالتقسيط. في غضون ذلك بوسعك أن تلبسي تنورتك السوداء وسترتك السوداء، وسوف تبدين وسيمة.

بدا لڤاسيا أنها وقفت إلى ما لا نهاية أمام المرآة. أعادت ماريا سيمينوڤا خياطة الثوب زارعة الدبابيس في كل مكان حتى تكمل تغيراتها ثم أحضرت قبة مخرمة. وحين انتهت ماريا من خياطة الثوب بطريقة جديدة بدا جيداً، بسيطاً، وسيماً. ورأت ڤاسيا أنه يناسبها وتساءلت ڤاسيا ترى ماذا سيقول ڤلاديمير حين يراه.

ما إن ارتدت ڤاسيا الثوب حتى وصل ڤلاديمير وضيوفه: زميل له في الـ GPU وزوجته. كان لرجل الـ GPU شارباً منتظماً، وكان مسرفاً في الأناقة وينتعل جزمتين مرتفعتين حتى الركبة. دهشت ڤاسيا، أيعقل أن يكون مثل هذا الرجل شيوعياً؟ شعرت بأنها تبغضه. وبدت زوجته في ثوبها الشفاف وكأنها عاهرة. الفراء يتدلى من كتفها والخواتم تلمع على أصابعها. قبل ڤلاديمير يدها ومازحها. لم تتبين ڤاسيا كلمة واحدة من حديثهما فقد بدا الحديث مبتذلاً تافهاً. حين جلس الجميع إلى المائدة، مال ڤلاديمير نحو ضيوفه، وعندما تبادل النظر مع المرأة رقصت عيناه ولمعتا.

كانت ڤاسيا تجلس إلى جانب رجل الـ GPU. تعرف أنه عضو الحزب، لكن بالها لم يسعفها لتبادل كلمة واحدة معه. احتسوا النبيذ، وتبادل ڤلاديمير الانخاب مع المرأة. وهمست الأخيرة بكلمة في أذنه فانفجرا يتضاحكان. مما أزعج ڤاسيا.

أما رجل الـ GPU فإنه لم يلتفت إلى زوجته على الإطلاق مما أثار ريبة

وإنكـار ڤاسيـا. ودار نقاش حـول أيام الصـوم، واعترفت المرأة أنها رغم إيمـانها بالله وسعيهـا إلى الاعتراف فـإنها لم تصم (!). مرة أخـرى صدمت فـاسيـا، كيف يتـزوج رفيق في الـ GPU من «مؤمنـة». عبست غضبى واستولى عليها شعور عارم بالسخط على ڤلاديمير. أي صنف من الأصدقاء يحسب هذين؟

عندما أوشك الجميع على النهوض أقبل ايڤان ايڤـانوفيتش وقـال أن سافيليڤ قد حجز مقـاعد في المسرح وهو يدعو الجميع للحضور.

سأل ڤلاديمير:

- هل نذهب يا ڤاسيا؟
- تقصد، مع سافيليڤ؟

حدجت ڤلاديمير بنظرة نافذة، إلا أنه تكلف عدم الفهم.

- نعم، صحيح، سوف نقيم حفلة مع نيكانـور بلاتـونوڤيتش. ثمـة أوبرا جديدة ستبدأ الليلة ويقال إنها مسلية. سوف تتمتعين.

قالت ڤاسيا:

- لا، لا أستطيع.
- لماذا.
- إنني متوعكة. أحسب إنني أصبت بالرشح أثناء الرحلة.

رنا ڤلاديمير إليها وقال:

- فعلاً. تبدين متوعكة قليلاً، عيناك مجوفتان. أعـطني يدك. صحيـح إنها حارة، عليك البقاء هنا. طبعاً لن أذهب أنا أيضاً.
- ولكن لماذا؟ اذهب بدوني.

وألح الضيوف على ڤلاديمير ليذهب معهم. فوافق. في الصالة، وأمام

الجميع ضم ڤلاديمير ڤاسيا وهمس في أذنها:

ـ تبدين جميلة يا ڤاسيا، امضي إلى سريرك وسأعود قريباً. لن أبق حتى النهاية.

سأل ماريا سيمينوڤا أن تهتم بڤاسيليسا ديمنتوڤا ثم انصرف الجميع.

انشأت ڤاسيا تطوف الغرف مرة أخرى مغمورة بالكآبة. إنها ترغب عن مثل هذه الحياة، رغم أنها لا تتبين سلبياتها على وجه التحديد. ولكن كل شيء يبدو لها غير أليف. إنها تشعر بالاغتراب هنا، وكأنما هي فائض. وماذا لو كان ڤلاديمير يحبها. إنه لا يلتفت إليها ولا يهتم بها. قبلة وضمة ثم ينكفىء ويمضي.

كانت لتتفهم لو مضى إلى اجتماع أو إلى العمل، ولكن لا إلى المسرح. لماذا ذهب إلى المسرح من دونها؟ إنها على يقين أنه حضر ما يكفي من المسرحيات خلال ذلك الشتاء. شعرت ڤاسيا بأن شيئاً ما يعذبها ولا تتبين له مصدراً. إلا أنه شيء امتص قوتها وتركها تشعر بالتعاسة والقلق.

وقرر قرارها: سوف أمكث أسبوعاً آخراً، فأرى كيف تتطور أوضاع ڤولوديا، ثم أرحل.

ولكن ما إن قرر قرارها على هذا حتى خطر ببالها سؤال آخر: إلى أين ستذهب؟ إلى المنزل الجماعي؟ مستحيل، فصديقتها غروشا تقيم الآن في العلية. ثم هناك الزوجان فيودوسيڤز ومشاكلها ونزاعاتها معهما. ولو عادت إلى المنزل الجماعي لكان عليها أن تناضل في سبيله مما يؤدي إلى نزاعات لا حد لها مع الجميع. ولا طاقة لها على هذا، ولا الثقة في أنها قادرة على التكيف مع هذا الوضع.

إنها تدرك أن ليس لها مكان تلجأ إليه، ومعرفتها بهذه الحقيقة تجلب لها القلق الموجع. بدأت تشعر بالبرد، وكانت ترتعش. أدخلت يديها في

كُمِّيها. وراحت تذرع الغرف الخالية جيئة وذهاباً. شعرت بأن البؤس يكمن في هذا المنزل غير الودود. ولكنها سرعان ما زجرت نفسها، أي سخف هذا؟ إنما هو ضرب من الهواجس الداخلية. الشيوعيون لا يؤمنون بالهواجس الحدسية القبلية. ما معنى هذه الكآبة الشاحبة؟

عاد ڤلاديمير إلى منزله مبكراً كما وعد. كانت ڤاسيا جالسة في السرير تقرأ. جلس إلى جانبها، وسألها عن حالها بمحبة. بدا جدياً ومتعباً، وكأنما انتهى لتوه من تجربة حزينة. سألته ڤاسيا دَهِشَةً:

ـ ما بك يا ڤولوديا؟

دفن وجهه في الوسادة وقال بصوت حزين:

ـ آه يا ڤاسيا، إن حياتي عسيرة، ليس بوسعك أن تتخيلي كم هي عسيرة. أنت لا ترين إلا جانباً واحداً منها، ولكني لا أخالك راغبة في فهمي فهماً صحيحاً. ليتك تدركين أي معاناة عانيت خلال هذا الشتاء، عِنِدها لن تنتقديني، بل ستشفقين علي. أعرف إن قلبك في موضعه الصحيح يا ڤاسيا.

مسدت ڤاسيا رأس ڤولوديا مواسية وحاولت أن تطيب خاطره. شعرت بالأسى عليه، ولكنها عجزت عن مغالبة شعور بالفرح. في تلك اللحظة أحست بأن السعادة قد وحدتهما. قالت مواسية إنه من العسير على المرء أن يكون مديراً وأن يصدر الأوامر للعمال.

اكتفى ڤولوديا بهز رأسه بحزن. قال:

ـ لا يا ڤاسيا، ليس هذا ما يزعجني. إنه أمر آخر. ثمة شيء يزعجني ولا يزاولني.

ـ ولكن ما الأمر؟ أيخططون لإثارة المشاكل والعقبات في طريقك؟

التزم ڤولوديا الصمت. بدا وكأنه عاجز عن لملمة جرأته والاعتراف لها.

ضمته ڤاسيا بين ذراعيها.

ـ أرجوك قل لي يا حبيبي، ما الذي يسبب لك هذا الإزعاج المتواصل؟
أراحت رأسها على كتفه، وفجأة رفعت رأسها وحدقت إليه:

ـ رائحة عطر تفوح منك. منذ متى بدأت تتعطر؟

ابتعد عنها بارتباك.

ـ عطر؟ أحسب أن الحلاق عطرني بعد أن حلق لي اليوم. إنه يستخدم العطر.

انزلق من السرير وراح يركز على سيجارته ويسحب الدخان ببطء شديد. بعد دقائق قليلة غادر الغرفة قائلاً إنه مضطر إلى مراجعة بعض الأوراق المستعجلة قبل الغد.

لم تتحسن صحة ڤاسيا. ولم يزايل الوجع خاصرتها ولم تنخفض الحرارة المرتفعة. ورغم محاولاتها لإخفاء ومداراة ألمها أمام ڤلاديمير إلا أنه لاحظ. فقد حال سعالها بينه والنوم فانتقل إلى غرفة الجلوس وبات ينام فيها.

مرت الأيام ببطء وكانت فارغة وبلا حيوية. واكتنفتها الهموم البيتية الصغيرة. فرغم أن ڤلاديمير يزودها بكمية كافية من المال، كان يطالبها بأن تدبر شؤون المنزل «بالشكل الصحيح» حسب تعبيره. وبعد أن شاركت ڤاسيا بنقودها في مصاريف إدارة شؤون المنزل، لم تعد تتقبل انتقادات ڤلاديمير مهما كانت مداورة.

ـ ولكن من غير المعقول أن تكوني قد أنفقت كل نقودك في مصاريف إدارة البيت. إن معدل الصرف هذا قمين بأن يجعلنا مفلسين، إذ علي أن أطعمك وأطعم الآخرين.

وكـأنما هي التي تـدعو هؤلاء الضيـوف وتأمـر لهم بثلاثـة أصناف من الطعام.

في أية حال، لم يكن بوسعها أن تتشكى من تصرفات ڤلاديمير مـا دام مهتماً بحالتها الصحية وقلقاً عليها. وقد أرسل ڤلاديمير وراء الطبيب الذي قال إنها تعاني من الإرهـاق، وأن رئتها اليمنى ضعيفـة إلى حد مـا، وأشار عليها أن تضطجع في الشمس ما استطاعت وأن تنظم طعامها وتتجنب مـا يسيء إلى صحتها. ناشد ڤلاديمير ڤاسيا أن تنفذ وصايا الطبيب وأمر مـاريا سيميئوفا أن تعكف على ڤاسيـا فتعتني بها وتـراقبها للتـأكد من أنها تتنـاول الطعام في الأوقات المناسبة.

بل إنه جلب لها الكاكاو ومقعداً قـابلاً لـلانثناء لتتشمس عليـه. كان مهتماً بوضعهـا اهتمامـاً شديـداً. ولكن رغم أنه كـان يسعى لرؤيتهـا فور عودته من العمل، فإنهما ما كانا يتقابلان كثيراً، فقد كان ڤلاديمير مشغولاً. فأعماله متراكمـة متزاحمـة وكان عـلى علاقـة بتبدلات العـرض والطلب في السوق؛ وكل هذا استهلك وقته وجعل الإرهاق ينال منه.

ذات مساء كانت ڤاسيا راقدة على المقعد المنثني تتشمس تحت الشمس مثل السحلية. فكرت: غريب أن يعيش الإنسـان هكذا. دون عمـل ولا قلق. لكنها حياة بلا مباهج، أشبه بحلم غريب. شعرت أنها قـد تستفيق في أية لحظة فتجد نفسها في منزلها الحقيقي، في المنزل الجماعي. تـذكرت دائـرة الإسكـان، وأصـدقـاءهـا واستيبن اليكسيڤيتش، وغـروشـا وحتى السيـدة ڤيودوسيڤـا. لا شك في أن تلك الأيـام كانت صعبـة، لكنها أكـثر بهجة.

كانت ڤاسيا تنتظر عودة ڤلاديمير. لقد وعدها بالعودة مبكـراً. واليوم، شـأنها كل يـوم، عـزمت ڤـاسيـا عـلى أن تتبـادل وڤـلاديمـير الحـديث عن أوضاعهما بصراحة. لكن الأيام توالت ولم تجد فرصـة لا نفاذ عـزمها عـلى

الحديث. فالضيوف والعمل حالا دونها والحديث معه.

لكن، يبقى أن سافيليف ما عاد يأتي. إلا أن ثمة ضيوف غيره يترددون باستمرار. معظمهم من رجال الأعمال، وفاسيا لا تلتفت إلى ما يلتفتون فهم يعيشون في عالم يختلف عن عالمها. أحاديثهم تدور حول تحميل الحمولات وانزالها والسلع المرسلة والمستلمة والحسومات والربح والعلاوات. ورغم معرفة فاسيا بأن هذه الأمور جوهرية بالنسبة لاقتصاد الجمهورية، وأن الاقتصاد لا يمكن أن يتقدم ويتطور إلا إذا كان ثمة مقايضة، إلاّ أنها وجدت هذا الحديث مملاً. فإذا ما تحدثت هي عن مسائل حزبية على سبيل المثال أو عن مقال لبوخارين أو تقارير في الصحف عن الحزب الشيوعي الألماني، فإنهم يصغون لوهلة ثم يعودون من فورهم إلى حديثهم عن التحميل والسلع، والمجموع الإجمالي والربح الصافي.

ما كان فلاديمير يمل من هذه الأحاديث، بل كانت الحيوية تدب فيه كلما اجتمع مع هؤلاء الزملاء، فإذا به يجادلهم ويناقشهم ويستشيرهم دونما تعب. ولا يكتئب إلا حين يكون وحيداً مع فاسيا، يتنهد يربت على يدها ويحدق إليها بعينيه الهائلتين الحزينتين، وكأنما يتوسلها أن تساعده، ويعتذر عن شيء ما، رغم أنها لم تعرف ما الذي يعذبه. فهي لم تسمع إشاعة واحدة ولا همساً حوله مؤخراً.

إذن ما الذي جعل فلاديمير بائساً إلى هذا الحد؟ لعله يعتقد أنها تحتضر، أثارت هذه الفكرة السخيفة البهجة في قلبها. إذن هو يحبها حقاً. صحيح أنه لا يقضي وقتاً طويلاً معها، إلا أنها هي لم تلتفت إليه كثيراً حين عاد ليقيم في عليتها. إذ كانت تقضي النهار كله في عملها، ولم يسعفها الوقت لتهتم بزوجها، وتساءلت إن كان تصرفها ذاك قد جعل حبه لها يتضاءل. وكان هذا الخاطر يثير في نفسها المخاوف.

رنت فاسيا إلى قمة الأشجار الناهضة في السماء الزرقاء الباهرة

تداعبها نسمات الصيف فتميل برفق وتهتز. الجنادب تسقسق في العشب، ومن مؤخرة الحديقة انطلق تغريد العصافير وكأنها تتنافس في ما بينها. نهضت ڤاسيا ومشت في الممر تجتاز شجيرات تتفتح عليها أزهار الليلك. أية رائحة سماوية! راحت تربط مجموعة من الأزهار المثمرة معاً. وحطت نحلة على زهرة ثم نشرت جناحيها.

ضحكت فاسيا وقالت:

- أيتها النحلة الشجاعة، أنت لا تخافين الإنسان أليس كذلك؟ وفجأة أحست بالنشوة تغمرها حتى أنها التقطت أنفاسها. تلفتت حولها فبدت لها الحديقة فجأة من خلال نور سحري. العشب الأخضر، الشجيرات الليلكية الخصبة، البركة ذات الضفادع التي تنقنق - كل شيء جميل رائع. ولم تحرك فاسيا ساكناً. إذ خافت أن تتلاشى هذه النشوة فجأة مثلما غمرتها على نحو مفاجىء. في تلك اللحظة شعرت وكأنها لم تعرف معنى الحياة من قبل ولم تفهم معنى أن تكون على قيد الحياة.

فجأة أدركت كل شيء. أن تكون حياً لا يعني أن تكون سعيداً أو شقياً، عاملاً أو مناضلاً، أن تكون حياً يعني أن تكون مثل هذه النحلة تحوم حول الليلك، مثل الطيور التي تتبادل التغريد من عش إلى عش، مثل الجنادب المسقسقة في العشب. إنها حية. لماذا لا تبقى بين الليلك إلى الأبد؟ لماذا يعجز البشر عن العيش مثل مخلوقات الله؟

ولكن بماذا تفكر؟ كلمة «الله» أغضبتها من نفسها. الله! أي قوة استولت عليها. لا شك في أن عدم النشاط وهذه الحياة المترفة على حساب ڤلاديمير هي التي دفعتها إلى مثل هذه الأفكار. إذا بقيت هنا فإنها ستتحول إلى سيدة مترفة عارية.

انكفأت نحو البيت مسرعة. لكن مزاجها المنتشي لم يتلاش تماماً. كانت ذاهبة إلى غرفة النوم لتضع ضمة أزهار الليلك في المزهرية حين

أقبلت سيارة ڤلاديمير. سعى إلى المنزل من فوره. قال:

ـ لقد بدأوا. منذ زمن طويل لم يسببوا لي أية مشاكل، ها هم المشاغبون يعمدون الآن إلى ألاعيب صبيانية مرة أخرى، إلا أنهم هذه المرة ذهبوا بعيداً. لقد اختلقوا تهمة ضدي كما يبدو، ولقد أرسل في طلبي للوقوف بين يدي لجنة المراقبة. سوف نرى من الذي سيربح في هذه الجولة.

كان ڤلاديمير يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويده وراء ظهره ـ علامة تؤكد اضطرابه.

ـ لقد دبروا مكائدهم لينبشوا موضوع فوضويتي وعدم انضباطي ولا أدري ماذا يخبئون بعد. وأنا الذي أرهق نفسي لأنظم العمل، وبدل أن يساعدني أعضاء اللجنة الحزبية يعمدون إلى وضع العقبات في طريق العمل. إذا عمدوا إلى اضطهادي ثانية فإني لن أجد مفراً من الانصراف عن الحزب. إنني أعني ما أقول. وسأنصرف دون حاجة لأن يأمروني هم بذلك، لا حاجة بهم لتهديدي بالفصل. هذا قراري النهائي.

لا شك في أن هذه الأزمة حقيقية. غاص قلب ڤاسيا. إذن هذه هي الكارثة التي كانت تنتظرها. حاولت أن تواري هذه المشاعر وأن تواسي ڤلاديمير. لكنه كان عصياً على المواساة.

ـ وماذا عن صاحبك ستيبن اليكسيڤيتش، «سألوه شهادة عن شخصيتي فإذا به يمتدح عملي ولكنه شكى غروري وأشار إلى ضعفي الخلقي». أسألك! قد يحسب المرء هؤلاء الأشخاص كهنة. إذ يحكمون على الناس، لا على عملهم أو معتقداتهم السياسية ولكن على أخلاقهم. يبدو أنني لا أحيا مثل شيوعي. وهل يتوقعون أن أتحول إلى كاهن؟ وهل يتصرفون هم بطريقة أفضل في حياتهم الخاصة؟ أراهن أنهم لا يتصرفون بطريقة أفضل. أمثالهم لا يتهمون رئيس دائرة الإعلام رغم أنه هجر

زوجته وأطفاله الثلاثة وتزوج من فتاة أعجبته. مثل هذا التصرف مقبول كما يبدو. بالنسبة لكم هذه أخلاق شيوعية جيدة. لماذا يتوقعون مني أنا فقط أن أرقد على سرير من المسامير؟ ولماذا يحشرون أنوفهم في حياتي الشخصية؟

في تلك اللحظة شعرت ڤاسيا أنه يتوجب عليها معارضته. لقد شعرت أن لجنة المراقبة على حق في أن تقول: لا يسمح للشيوعي بأن يتخذ من البورجوازي مثالاً ونموذجاً يحتذيه. فالشيوعي والمدير ينبغي أن يكون مثالاً للجميع.

قاطعها ڤلاديمير قائلاً:

- ولكن أي إثم تحسبيني فعلت؟ قولي لي بحق الله لماذا أُعتبر شيوعياً رديئاً؟ الأني لا أعيش في زريبة خنازير؟ أم لأنني مضطر إلى إقامة علاقات صداقة مع الرعاع في سبيل مصالح عملي؟ وإذا كان هذا هو السبب فلماذا لا تكتبون تعليمات تحدد من المسموح له بدخول المنزل، وكم مقعد يُسمح لنا بأن نملك، وكم بنطال يسمح للشيوعي بأن يحتفظ؟

كان ڤلاديمير قد فقد رشده تماماً وثار غاضباً حين انتقدته ڤاسيا. وانتهزت ڤاسيا هذه الفرصة لتواجهه بالشكوك التي تراودها منذ زمن طويل. قالت إنها لا تتبين أين الخلل في طريقة حياته بالضبط، ولكن ثمة شعور في أعماقها يجعلها تعتقد أنه لا يحيا ولا يتصرف مثل شيوعي حقيقي. إنه يملك كل ما يتمناه، وهي لا تصدق أن الأعمال سوف تتدهور إن لم يكن بيت المدير مُزَوَّداً بالمرايا والسجاد. ولا هي مقتنعة بأن التعامل غير الواضح مع أمثال ساڤيليف من المخادعين وتقبيل أيدي الفتيات، من ضرورات نجاح العمل.

صرخ ڤلاديمير:

ـ إذن. أنتَ أيضاً تهاجميني. كنت أتوقع ذلك. أحسست بأنك إنما جئت لتحكمي عليّ ولم تأت صديقاً. وها أنت تقفين مع أعدائي. حسن، لقد أدركت الآن أنك تزدريني مثلما يزدرونني. لماذا لا تقولي ذلك صراحة وجهراً بدل أن تتكلفي الوقوف إلى جانبي، وتزعجيني طوال الوقت.

تحول وجه ڤلاديمير إلى أبيض شاحب كله غضب وبغض. لم تفهم ڤاسيا سبب تهجمه عليها. ولكنها لم تر فائدة في الرد عليه وهو في هذا الحال. وتمنت أن يتراجع عن هذا الكلام بعد حين. قال بصوت أكثر هدوءاً.

ـ لم أتوقع هذا منك بالذات يا ڤاسيا. ما كنت أعتقد أنك ستتخلين عني حين أكون في مثل هذه الورطة. من الواضح إنني أخطأت في حكمي على الأشياء. في أية حال ليذهب كل شيء إلى الجحيم. إذا انهار كل شيء فأتمنى لهم حظاً سعيداً، أما بالنسبة لي فإني لن أبالي.

وبينما كان يتكلم قبض على الطاولة، وقلب المزهرية فسقطت أزهار الليلك وتناثرت على الأرض، وانسكب جدول صغير من الماء على السجادة.

هتفت ڤاسيا:

ـ انظر ماذا فعلت؟

لوح ڤلاديمير ذراعه وسعى إلى النافذة وقف هناك وبدا مهدوداً مغتماً. شعرت ڤاسيا نحوه بالرثاء شأنها دائماً. فحياته ليست يسيرة، وهي تعرف أن اختيار الحياة الصحيحة هذه الأيام ليس بالأمر الهين.

قالت:

ـ كفى يا عزيزي ڤولوديا، عليك أن لا تكتئب. فلا يزال لديك متسع من الوقت ولا بد أن يجري تحقيق حول القضية. ليس ثمة تهم جنائية ضدك

وهذا يعني أن المشكلة تكمن في عادتك القديمة: تجاوز القوانين. انتظر كي أرى اللجنة الحزبية لأعرف منهم تفاصيل القضية. من يعرف، لعل النتائج تكون على ما يرام في النهاية.

كانت تقف إلى جانبه ويدها على كتفه، محاولة أن ترنو إلى وجهه، إلا أن ڤلاديمير لم يلتفت إليها. بقي كئيباً مستغرقاً في أفكاره. شعرت بأنهما باتا بعيدين عن بعضهما، لاذت بالصمت. تبدد فرحها من قلبها تاركاً قلقاً عنيفاً.

- ٦ -

في اليوم التالي سعت ڤاسيا إلى اللجنة الحزبية. لم تكن البلدة مألوفة إلا أن ڤاسيا لم تنتبه إليها وقد أصابها ما أصابها من اضطراب، ما كانت تعنى في تلك اللحظة إلا ببلوغ مقر اللجنة بأسرع ما يمكن. كلما سألت ڤلاديمير عن قضيته ازداد اضطرابها. فالتهم الموجهة إليه ـ حتى ولو لم تكن صحيحة ـ خطيرة كبيرة. ولم تعرف ڤاسيا كيف يمكن لها أن تخلصه من هذه الورطة.

مكاتب اللجنة الحزبية تقع في منزل مستقل قديم، البيرق الأحمر بالشعار المألوف يخفق خارج الباب ـ تماماً مثل العلم والشعار في مسقط رأسها. فجأة شعرت ڤاسيا بالفرح وأدركت كم هي مشتاقة إلى رفاقها القدامى. لقد عجزت عن اعتبار ضيوف ڤلاديمير شيوعيين حقيقيين. دلفت إلى الداخل وسألت الفتى الجالس إلى طاولة الاستعلامات عن الطريق المؤدي إلى مكتب الرئيس المحلي.

أجاب الفتى قائلاً:

ـ عليك أن تكتبي اسمك ومرادك أولاً. قد يراك اليوم، وقد لا يراك قبل يوم الخميس.

كم تبغض ڤاسيا هذه البيروقراطية. جلست وراحت تملأ القسيمة.

قال الفتى للساعي:

ـ خذ هذه القسيمة إلى السكرتير.

ثم التفت إلى ڤاسيا وقال:

ـ ارتقي الدرج ثم انفتلي نحو اليمين واعبري الممر قاصدة غرفة كتب عليها «الاستقبال». عليك أن تنتظري هناك.

بدا الفتى ضَجراً إلى أقصى الدرجات. وفجأة أشرق وجهه حين وقع بصره على فتاة تلبس تنورة قصيرة وقبعة حديثة الطراز. هتف الفتى:

ـ هيه مانكا، ماذا تفعلين هنا؟

طرفت عينا مانكا وقالت:

ـ جئت لأرى بعض الأصدقاء. ولماذا لا أزور مكتب لجنتكم؟

تأملت ڤاسيا الفتاة وتفحصتها بنظرة شاملة فأدركت أنها مومس. اعتصرها انقباض مزعج. في الأيام الخوالي ما كانت مومس لتجرؤ على الاختلاف إلى اللجنة الحزبية لترى أصحابها.

بينما كانت ڤاسيا تجتاز الممر ذا الأضواء الباهرة مر بها عاملات وعمال يندفعون في شتى الاتجاهات. بدا وكأن الجميع لهم قضايا وأعمال يرغبون في انجازها. فشعرت ڤاسيا بأنها كسولة متعطلة عن العمل. عندما دلفت إلى غرفة الانتظار سئلت عن اسمها من قبل سكرتير خاص، وهو شاب ذو وجه ناعم يوحي بالمباهاة بنفسه. سجل اسمها في دفتر التسجيل الذي تحتفظ به فتاة محدودبة الظهر.

ـ سوف تتأخر مقابلتك قليلاً، فقضيتك ليست مستعجلة طارئة. عليك بالانتظار.

أخذت ڤاسيا مجلسها وانتظرت مع الآخرين. عمال بوجوه ناحلة

وسترات باهتة كانوا يتباحثون مع بعضهم ـ لعله وفد عمالي ما ـ. ثمة رجل مديد القامة أنيق بنظارة يقرأ صحيفة، يبدو أنه خبير ما. وثمة امرأة عاملة عجوز تغطي رأسها بمنديل تجلس صامتة ساكنة تتنهد بين الحين والآخر وكأنما تصلي من أجل أن تُغفر لها خطاياها.

إلى جانبها يجلس جندي ممتلىء من الجيش الأحمر، إلى جانبه تجلس امرأة عجوز فلاحة تتدثر بمعطف روسي، إلى جانبها كاهن يرتدي الغفّارة.

ما إن تساءلت فاسيا أي شيء دفع هذا الكاهن إلى المجيء هنا، هتف السكرتير:

ـ دورك أيها الأب.

قاد الكاهن إلى مكتب الرئيس والتفت نحو الآخرين قائلاً بثقة:

ـ إنه رجل ذكي جداً وقد نستفيد منه كثيراً.

بين الحين والآخر كانت فتيات ذوات شعر قصير وفساتين باهتة يدخلن بسرعة (لا بد وأنهن شيوعيات) وكن مشغولات وفعالات ويحملن تقارير لتوقع أو أسئلة يوجهنها للسكرتير وبعد التباحث معه همساً يهرعن إلى الخارج مرة أخرى. دلفت إلى الغرفة امرأة تبدو وكأنها ارستقراطية. ورغم أنها ليست عضوة في الحزب، فإن فاسيا عرفت أنها زوجة عامل ذي مركز متقدم. طلبت أن تقابل الرئيس فوراً، قالت إنها تحمل رسالة من عضو في اللجنة المركزية. إنها جاءت من موسكو وليس لديها وقت للانتظار. للوهلة الأولى كان السكرتير صارماً معها، ولكن حين رأى رسالة اللجنة المركزية تردد. لكنه قال ليس بوسعه أن يتجاوز القوانين. وبما أن هذه القضية شخصية فهل تتفضل وتجلس بانتظار دورها.

ثار ساكن السيدة manquee ـ هكذا أسمتها ـ فاسيا في نفسها. وأوضحت أنها تحتقر هذا النظام هنا في الأقاليم! لو كانت في موسكو

لسمحوا لها بالدخول فوراً. في موسكو الجميع يناضل ضد البيروقراطية. ولكن انظروا إلى هذا المكان. انظروا إلى هؤلاء المسؤولين الصغار، بكل القوانين والتعليمات التي اخترعوها. جلست ممتعضة وسوت كميها بدقة.

ثم اندفع رجل عملاق فظ يعتمر قبعة على مؤخرة رأسه ومعطفاً محلول الأزرار، تأملته ڤاسيا فقدرت من فورها أنه nepman.

- أيها الرفيق السكرتير، إنني أسألك، أي نظام هذا؟ وقتي ثمين لكل دقيقة ثمنها. ثمة حمولة في طريقها الآن إلينا، بينما أنتم لا تقومون إلا بتأخيري هنا ولا تشتغلون إلا بالتوافه وترغموني على ملء القسيمة تلو القسيمة. أرجوك أن تعلن للرئيس عن قدومي الآن. اسمي كوندراشيف.

فكرت فاسيا أن هيئته تنم عن ثقة ورضا أبلهين. وقد يحسب المرء - نتيجة تصرفاته - أنه لينين نفسه. واستولى عليها شعور ببغض البورجوازية الناهضة. حَرِي بهم أن يعتقلوا هذا الرجل بالذات وزجه في السّجن، هذا الوجه المتغطرس الممتلىء

اعتذر السكرتير. قال إنه يتقيد بالتعليمات. إلا أن الرجل لم يلتفت إلى هذه الحجة، وواصل الحاحه مطالباً بالدخول. في النهاية نال مراده إذ قام السكرتير وبلغ الرئيس بوجوده. وعادالسكرتيرمن فوره وبدا مرتبكاً. قال بصوت كسير:

- الرفيق يسألك أن تنتظر. إنه سيرى مراجِعَيْن قبل أن يقابلك كليهما يحمل قضية طارئة.

- ما معنى هذه التعليمات اللعينة بحق الجحيم؟ حاولوا أن تتعاملوا مع هؤلاء الناس فتروا أنهم لا يقومون بأي شيء سوى توسل مجموعة طلبات سخيفة، ثم يتطاولون عليك ويشتمونك متهمين إياك بالتخريب. ولكننا نعلم من هم المخربين الحقيقيين، أليس كذلك؟

جفف عرق جبينه بمنديله واتخذ مجلسه متنافخاً. رمقته «السيدة» بنظرة مستحسنة. ورمقه «الخبير» بنظرة انتقادية مراقبة من وراء الصحيفة. أما العمال فقد ظلوا مستغرقين في قضيتهم، وبالتالي غافلين عما يحدث. جاء دورهم.

أحست ڤاسيا ضجر الانتظار، فسعت نحو النافذة ورنت إلى الحديقة حيث يلعب طفلان ويلاحقان كلباً. رنت أصواتهم الصبيانية:

ـ شد ذيل بوبكا. سوف ينبح لكنه لن يعض. اقبض عليه. بسرعة.

أخيراً جاء دور ڤاسيا فدلفت إلى غرفة الرئيس. ووراء مكتب كبير يجلس رجل ملتح الذقن ويضع نظارة طبية على عينيه. بدت عظامه وكأنها ناتئة من كتفيه الناحلين الضامرين. رمق ڤاسيا بنظرة لا تخلو من فتور، ومد يده مصافحاً دون أن يتكلف الوقوف.

ـ بماذا أستطيع مساعدتك؟ هل الأمر شخصي؟

سألها بصوت محايد ـ إذ كانت بالنسبة له مجرد حاملة عريضة أخرى ـ قالت ڤاسيا وقد قر قرارها على أن لا تطرح قضية ڤولوديا من فورها إذ أنها قضية معقدة:

ـ جئت لأقدم نفسي للجنة. وصلت إلى البلدة منذ زمن قصير.

ـ نعم، بلغني ذلك. هل ستبقين معنا هنا فترة طويلة؟

ـ لدي إجازة شهرين. ولكن بما أني مريضة فقد أمكث هنا فترة أطول في الأغلب.

ـ هل تخلدين إلى الراحة أم ستعملين؟

سألها دون أن ينظر إليها إذ كان يقلب الأوراق أمامه وكأنما يقول ليس لدي الكثير من الوقت لأبدده في أحاديث صغيرة ثانوية مثل هذه.

أجابت ڤاسيا:

- ليس بوسعي أن أقوم بعمل دائم. لكن بوسعكم الاعتماد علي في الاعلام.

- نعم، قد نستخدمك. سوف نبدأ الأسبوع القادم حملة حول تحويل نظام الميزانية المحلية. بلغني أنك خبيرة في حقل الإسكان.

رنا إلى ڤاسيا ثانية ثم غرق في أوراقه مرة أخرى.

أجابت:

- لقد عملت في دائرة الإسكان طوال سنتين. ونظمت منزلاً جماعياً.

- صحيح عظيم. في هذه الحالة. بوسعك أن ترينا كيف نجعل منازلنا الجماعية مشروعات ذات مردود.

قالت فاسيا وهي تهز رأسها سلباً:

- عفواً لكنني عاجزة عن ذلك. إذ أن مشروعنا انهار ما إن أصبح مكتفٍ ذاتياً. أعتقد أن منازلنا الجماعية ينبغي أن تكون أشبه بالمدارس، أماكن توحي بالروح الشيوعية.

قاطعها قائلاً:

- استمعي إلي، ليس لدي وقتاً أضيعه على مثل هذه المسائل. ولكن إذا كان بوسعك أن تقترحي علينا كيف نتناول هذه المسألة - فضلاً عن تقدير مادي للتكاليف وغيره - فإن ذلك يساعدنا في تخفيض ميزانية المقاطعة... إذن أنت تعتقدين أن الإسكان يمكن أن يستخدم كوسيلة لتثقيف الناس، أليس كذلك؟ ولكن نحن نملك مدارس لمثل هذا الهدف، بل وجامعات أيضاً.

أطلق الرئيس ضحكة متعالية من قمم حكمته. فشعرت ڤاسيا بالغضب وانتفضت واقفة لتنصرف.

ـ وداعاً يا رفيق.
ـ إلى اللقاء.

قال ذلك ورمقها بنظرة متفحصة. ردت على نظرته هذه بنظرة باردة ثابتة. قال مقترحاً:

ـ وإذا أردت أن تعملي في دائرة الدعاية فما عليك إلا أن تذهبي وتسجلي. ولماذا لا تذهبي إلى الدائرة النسائية أيضاً؟ إنهن بحاجة إلى مزيد من العاملات دائماً.

قالت فجأة:
ـ وبما أنني هنا أود أن أسأل عن قضية ڤلاديمير ايڤانوڤيتش.

وحدقت إلى الرئيس بنظرة ثاقبة لو نطقت لقالت أعرف أنك وراء هذه الاتهامات.

ـ نعم، حسن، آ.. آ.. كيف أفسر لك الأمر؟

قطب الرئيس ونحى سيجارته إلى زاوية فمه المائل واتخذت ملامحه فجأة هيئة الجد:
ـ اسمعي، لقد سمعت عنك، أنت رفيقة حزبية وكادر متقدم. وليس من اللياقة أن أبحث معك قضية ڤلاديمير ايڤانوڤيتش.

ـ ولكن ما هي التهم التي وجهتها إليه؟ لا يمكن لڤلاديمير ايڤانوڤيتش القيام بأي عمل إجرامي.

ـ حسناً، أعتقد أن ذلك يعتمد على مرادك من معنى إجرامي، أليس كذلك؟ في أية حال، لا يسعني أن أبحث القضية معك. عليك أن تبحثي عن المعلومات في لجنة المراقبة.

هز رأسه لها ثم دفن نفسه مرة أخرى في الأوراق. ولاحظت ڤاسيا أن ملامحه لو نطقت لقالت: لا تزعجيني الآن، إنني مشغول.

انصرفت ڤاسيا والغضب والخيبة يملآن نفسها. لا يُستقبل الناس في مسقط رأسها بهذه الطريقة، ولا حتى غير الحزبي. لقد مضت إلى هناك لتتحدث مع رفاقها فإذا بهم يعاملونها وكأنها غريبة.

كان ڤلاديمير على حق حين قال إنهم تحولوا إلى موظفين صغار يتصرفون مثل حكام العهد البائد. كانت ڤاسيا تمشي مستغرقة في أفكارها حتى إنها اصطدمت بشخص يمشي في الاتجاه المضاد. وإذا به صديقها القديم ميخايلو باڤلوڤيتش، العامل في قسم الآلات التابعة للمصنع حيث كانت تعمل ڤاسيا أيضاً.

هتف:

ـ لا أصدق عيني. ڤالسا عزيزتي.

قالت:

ـ ميخائيلو بوڤلوڤيتش، صديقي العزيز.

تبادلا القبل وتعانقا.

ـ إذن أتيت لتقيمي مع زوجك، أليس كذلك؟

ـ وماذا تفعل أنت هنا؟

قال ضاحكاً:

ـ جئت لكي أطهر الحزب. إنني عضو في لجنة المراقبة. إنه عمل يستغرق وقتي كله، فثمة أوضاع مشبوهة علينا معالجتها.

كان له لحية حمراء ووجه رفيق وحماسته لم تفتر منذ عرفته ڤاسيا. تبادلا الأخبار والأسئلة فرحين باللقاء.

أصر ميخائيلو باڤلوڤيتش أن تصحبه ڤاسيا إلى منزله. وهو غرفة بواب يقيم في بيتٍ كان ملكاً لأسرة ارستقراطية. كانت الغرفة متواضعة تحتوي على سرير وسلة إلى جواره تتضمن أشياءه، ومقعدين وطاولة مجللة بصفحات الجرائد، وبضعة كؤوس وتبغ. لقد كان ينوي أن يقيم هنا

مؤقتا وإذا بالمؤقت يتحول إلى دائم.

استحضرا ذكريات أصدقاء ورفاق قدامى، وتذكرا بلدتهم، تحادثا عن القيم التي ازدهرت وتطورت والقيم التي هوت إلى الحضيض. ثم دار الحديث حول الخطة الاقتصادية الجديدة. فامتعض ميخائيلو من الاسم وأخبرها أنه هو أيضاً لا يميل لرئيس اللجنة المحلية. قال:

- إنه من الذين وثبوا فجأة إلى السطح. إنه مجرد مدع صغير. لكنه يعمل بجدية ونشاط، وهو ذكي واع. لكنه يحصر المسؤوليات في شخصه. وكأنما يرغب في تسليط الأضواء على اسمه ليثبت للجميع أنه الرئيس. والعمال يعرضون عن تصرفه. ويقولون: «المؤتمر قرر على المزيد من الديموقراطية، فإذا بنا إزاء مزيد من البيروقراطية وكلف واحترام مفرطين للرتب. ثمة كثير من التآمر والخداع والمكائد تجري في الخفاء هذه الأيام. وهذا يعني وجود تكتلات وتجمعات جديدة، وبالتالي يتأخر العمل وسلطة الحزب تتعرض للتقويض والاستهتار. موقع الرئيس يفرض عليه أن يوحد الجميع، عليه أن يكون محايداً وموضوعياً مثل أب. ولكنه بدلاً من ذلك يضطهد الناس ويقمعهم».

- اسمع يا عزيزي ميخائيلو باڤلوڤيتش، أي مسار تأخذه قضية ڤلاديمير؟ بوسعك أن تخبرني كصديق.

مرر ميخائيلو باڤلوڤيتش أصابعه في لحيته وأطرق متفكراً ثم أنبأ ڤاسيا أن القضية بحد ذاتها لا تساوي كوبيكاً واحداً. ولو أن الشيوعيين يُدفعون إلى المحاكمة نتيجة تهم شبيهة بالتهم الموجهة لنشاطات ڤلاديمير لما ظل شيوعي واحد بلا محاكمة.

لقد بدأ كل شيء منذ وصل ڤلاديمير إلى هنا. فقد ساءت العلاقة بينه وبين الرئيس الذي راح يأمره بطريقة منفرة منذ البداية. إذ إن ڤلاديمير رفض هذه الأوامر. فقد قال ڤلاديمير: لا شأن لي بقوانينك. قد يكون

هـذا خط الحزب، لكنني لست تـابعاً لـك. لن أتعامـل إلا مع السلطات الصناعية. فليحكموا هم على عملي.

ولقد بلغت التقارير التي تتناول هـذا الخلاف إلى مـوسكو. وعمـدت لجنة موسكو الحزبيـة إلى حمايـة المديـر وتكلف الوقـوف إلى جانب الـرئيس وبالتالي لم تحسم القضية. . وبدوا كأن كليهما على حق.

ولكن ما لبثت نتائج الخلاف أن تفـاقمت وتمسك كـل بموقفـه بعناد. وكان كل منهما يلجأ إلى كتابة تقـرير في الآخـر وارسالـه إلى موسكـو ما إن يحدث أي خلاف مهما كان بسيطاً.

وأخيـراً عمدت مـوسكـو إلى إرسـال وفـد لحسم المسـألـة. واتخـذت قرارات حازمة ذات لهجة قاسية. ولكن ما إن انصرف الـوفد مغـادراً حتى عـاد النزاع عـلى أشده. عنـد ذاك دُعيت لجنـة المـراقبـة للتحقيق في هـذه المسألة. وقد عزم ميخائيلو باڤلوڤيتش على تسويـة القضية سلميـاً. قال إن المدير يدير الأمور حسب ما يرتئي هو. وهذا صحيح في حقـل الصناعـة، وأن اللجنة المركزية للحزب راضية عن عمله.

لم تكن هناك اتهامات مباشرة ضد ڤلاديمير. ورأى ميخائيلو باڤلوڤيتش أن قذف ڤلاديمير بالتهم أمر مستبعد. وقال للجنة إنه شخصياً يعـرف هذا «الأمريكي الفوضـوي»، وإنه عـاش معه في نفس البلدة في العـام ١٩١٧ حيث كانا يعملان سوياً. فحتى لو كان يحيا حياة مترفة إلى حد مـا في هذه الأيام، وحتى لو كان تواصله غير معتدل وتصرفاته «غير رفـاقية»، حسناً، من يستطيع أن يزعم أنه لا يعاني من هذه التهم في هذه الأيام؟.

إلاّ أن الرئيس وبعض أعضاء اللجنة الحزبية أصروا على أن تحال هذه القضية على جهة تتناولها بجدية، وعلى أن يجعلوا من هذه القضية عبرة لمن يعتبر. فهم لا يرغبون في أن يصفح الحزب عن مثل هذه التصرفات.

سألته ڤاسيا بذهول:

ـ ولكن ما هذه «النشاطات» التي أشرت إليها أكثر من مرة.

أعرف أنه يملك شقة فاخرة، ولكن هذا ما يحصل عليه أي مدير على حساب الدولة.

ـ المسألة لا تتعلق بشقته، الناس يتساءلون من أين له المال ليقيم مؤسستين مختلفتين.

سألت ڤاسيا مغضبة:

ـ ماذا تعني بمؤسستين مختلفتين؟ هل تعتقد أن ڤلاديمير إيڤانوڤيتش يعيلني ايضاً؟ أية فكرة هذه! لتعلم إذن أنني كنت أنفق من نقودي على شؤون المنزل. وذلك لأن ڤلاديمير يعوزه المال الكافي.. وهو إنما يقيم كل هذه الولائم في سبيل مصلحة عمله.

أصغى ميخائيلو باڤلوڤيتش لحديثها وهو يرمقها بنظرة مشفقة مما ضاعف من غضب ڤاسيا. لماذا يرثي وقوفها مع زوجها الفوضوي؟ كانت تعرف أنه لم يوافق في البداية حين بدأت تحيا مع ڤلاديمير.

ـ لماذا تحدق إلي بهذه النظرة؟ ألا تصدقني؟ كيف تظن أنني أنفق من ماله؟

أجاب برفق:

ـ ولكننا لا نتحدث عنك يا عزيزتي. المشكلة الأساسية تكمن في أصدقائه غير المناسبين.

وحدق إليها كأنما يريد أن يجس ردة فعلها. سألت:

ـ هل تعني ساڤيليف؟
ـ ساڤيليف وغيره أيضاً.

ـ لكن ساڤيليف ما عاد يختلف إلى منزلنا الآن، وقد وعدني ڤلاديمير أن

يقطع علاقته معه ـ بإستثناء العلاقة التي يفرضها عمله. ووعدني ايضاً أن لا يستقبل الآخرين إلا بشأن العمل فقط. ثمة كثير من الناس الذين لا يميل إليهم والذين يعيشون في عالم مختلف تماماً عن عالمنا. ولكن ما العمل وكيف يتحاشى هؤلاء المساهمين والتقنيين وهم جزء من عمله؟

غمغم ميخائلو باڤلوڤيتش بشرود وهو يمسِّد لحيته:

ـ صحيح يا عزيزتي، صحيح.

وراحت ڤاسيا تحدثه عن الأمور التي تجد أنه من العسير عليها التكيف معها هذه الأيام. لقد تغير الناس، وكذلك العمل. وأحياناً تشعر بالحيرة ولا تكاد تميز أين الخطأ وأين الصواب، فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي على الشيوعي أن يتصرف بوحيها وما ينبغي أن يعرض عنه.. ولكانت جلست إليه وناقشت معه هذه الأمور لفترة أطول لولا أن جاء صديق ليصطحبه إلى لجنة المراقبة.

قبل أن ينصرف قال ميخائيل باڤلوڤيتش أنه سيعرّف ڤاسيا إلى بعض «الرفاق» في أحد المصانع وأنه سيفكر في قضية ڤلاديمير بشكل جدي.

كان ڤلاديمير ينتظرها بفارغ الصبر قرب النافذة، إذ ما أن عادت حتى سعى إلى الرواق ليستقبلها.

ـ أخيراً عدت يا ڤاسيا المتمردة! أين كنت تكافحين؟ عند اللجنة الحزبية؟ ماذا قالوا لك إذن؟

أثناء حديثها راح هو يذرع الغرفة قلقاً يدخن.

ـ إذن يتهمونني بالحياة في مؤسستين، أليس كذلك؟ يا لهم من منافقين ومحتالين. وما شأنهم هم ـ لو عشت في خمس مؤسسات؟ ما شأنهم ما دامت حساباتي صحيحة وطالما أنني لا أسرق البضائع أو أرتشي.

هذا الحديث عن مؤسستين أزعج ڤاسيا إزعاجاً شديداً. ولكنها كانت

تشدد على سافيليف. على العلاقة أن تقطع فوراً وبطريقة حاسمة. فإذا ما جاء إلى مكتب ڤلاديمير كان عليه أن ينصرف في اللحظة التي ينتهيان فيها من مناقشة الأمور المتعلقة بالعمل. ثم سألت ڤلاديمير عن عماله. هل صحيح أنه يشتمهم ويصرخ في وجوههم؟

صرخ:

- إشاعات تافهة. قذرة. طبعاً.. في بعض الأحيان أصرخ في وجوههم، ولكن لأسباب وجيهة. فلا فائدة في معاملة بعض هؤلاء معاملة مسرفة في اللين والمرونة، وخاصة الحمالين. انهم مجموعة من الكسالى والطائشين.

لم تنبئه ڤاسيا بأن الحزب يفكر بفصله. بدلاً من ذلك، عزمت على أن تبادر فتقوم ببعض التغييرات في البيت. منذ الآن لن يكون ثمة ضيوف يترددون إلى البيت، وسوف يأكلان ببساطة، إلى ذلك سوف تبيع الجواد الذي إشتراه ڤلاديمير. إذ ما فائدة الجياد ما دام المرء يملك سيارة؟ حين اقترحت هذا الإقتراح على ڤلاديمير إستشاط دمه وقال إنه جواد جيد وأنه مروض لحمل سرج سيدة أيضاً. من النادر العثور على جواد مثله هذه الأيام. لقد عثر عليه صدفة ولحسن حظه. وما كان باهظ الثمن. الجواد يعني رأسمال هذه الأيام.

- رأسمال! هل تنوي أن تنطلق في العمل كرأسمالي. عليك أن تتخلى عن عادات التبذير يا عزيزي، وإلا ندمت فيها بعد.

- إذن أنت تعتقدين أنهم سيفصلوني من الحزب، أليس كذلك؟ ماذا حل بالحزب حتى يبدأ بفصل الناس بسبب أخلاقهم؟ فليفصلوا، إنني لا أكترث. سوف أقصر عملي على مؤسسات الدولة.

لم تحاول ڤاسيا أن تنقض أقواله. ولكنها ألحت على تغيير أسلوب حياتهما - ينبغي أن يعيشا بطريقة أكثر تواضعاً. وعليه أن يقطع علاقاته مع أصحابه غير المناسبين وهذا هو الأهم. وعدته أن تناقش موضوعه مع

ميخائيلو باڤلوڤيتش مرة أخرى، بل والسعي إلى موسكو إذا إقتضى الأمر وبحث المسألة مع توربوركوف، وهو الذي ساعد على تبرئته من التهمة السابقة.

رنا ڤلاديمير إلى ڤاسيا الجالسة على حافة النافذة، وكانت شاحبة وناحلة ووجهها ضعيف وعينيها الواسعتين حزينتين. القى سيجارته على الأرض، ودنا منها فقبلها ضاغطاً بوجهه على وجهها.

- ڤاسيا يا حبيبتي، لا تتخلي عني. ارجوك أن تساعديني، قولي لي ماذا أفعل. أعرف أني كنت مخطئاً. ولكنني أخطأت بحقك لا بحقهم.

- ولكن ماذا فعلت يا ڤولوديا؟

- آه يا ڤاسيا، ألا تفهمين حقاً؟ ألم تعرفي حتى الآن؟

- إذا كنت تتكلم عن خيانتك لنفسك ولطبقتك، فلا داعي للتبرير.

تنهد وابتعد عنها متفطر القلب. ثم انثنى عن الموضوع فجأة وسأل:

- لماذا لم يُعَدّ طعام العشاء حتى الآن؟ إنني جائع. لم أحب طعاماً منذ الصباح.

عمد ميخائيلو باڤلوڤيتش بعد اللقاء الأول إلى المعارفة ما بين ڤاسيا ومجموعة من النساء اللواتي يعملن في صنع الحصير ومهد لإتصالها بهن. فبدأت تختلف إلى المصنع لمساعدتهن في تحسين أوضاعهن. كانت العودة للعمل بين الناس بهجة حقيقية بالنسبة لها. كأنها الآن في مسقط رأسها. والتقت ميخائيلو باڤلوڤيتش ونشأت بينها وبين أصدقائه علاقات حسنة ورأت أنها تشترك معهم في الآراء. كان هؤلاء الرجال متفقين - دون أن يتكتلوا - على مهاجمة رئيس اللجنة وما كانوا يحترمون مديريهم. ولكنهم يحترمون عاملاً قديماً لم يفقد صلته بالجماهير ولم يعمد إلى التصرف كرب عمل. وكانوا قد انتخبوه مديراً لصناعة صب الحديد.

قضية ڤلاديمير لم تحل بعد، وحسب ميخائيلو باڤلوڤيتش فان إثباتات جديدة قد أنكشفت. ونبه ڤاسيا إلى أنها إثباتات ليست في مصلحة ڤلاديمير.

منذ الآن، على ڤلاديمير أن يكون حذراً وأن يتحاشى أي تعامل مع ساڤيليڤ خاصة وأن الأخير متورط في قضايا قذرة. ومهما احتجت مؤسسات الدولة، فمن الواضح ان الـ GPU عازمة على معاقبة هذا الرجل هذه المرة.

امتلأت نفس ڤاسيا بالقلق خوفاً على ڤلاديمير. بدت لها الأمور غير عادلة، خاصة وأنه قد بدأ يعمل منذ الصباح حتى الليل. وفي اللحظة التي يعود فيها إلى البيت يجلس إلى دفاتره. لقد تلقى تعليمات من المركز الحزبي تطالبه بإعادة تنظيم عملية مسك دفاتر حسابات المؤسسة..فأرسل في طلب موظف في البنك ليساعده في هذه المهمة. فكانا يجلسان إلى الملفات حتى الساعة الثالثة صباحاً. وبدأ نومه يضطرب ووزنه يتضاءل وما هذا بالأمر المستغرب إذ تضاعف حمله وكثرت مسؤولياته. فإلى هذه المهمات الجديدة الهامة، كان عليه أن يتحمل كل هذه المكائد الغادرة. نزف قلب ڤاسيا من أجله، ولم تملك إلا أن تشعر بالعطف نحو زوجها الضحية المسكين.

ما عادا يستقبلان الضيوف، وتوقفا عن ذكر ساڤيليڤ وعلما أنه قد غادر هذه المنطقة. كف ڤلاديمير عن الاختلاف إلى المسرح والتردد على الأصدقاء واكتفى بالبقاء مساء في البيت مغتماً منشغلاً. وجهدت ڤاسيا في محاولة انتشاله من مزاجه الكئيب هذا والتخفيف من عبء مهماته. ولم تنجح في إبعاده عن بالها إلا حين كانت تجتمعَ بنساء مصنع الحُصر. كانت حيواتهن عسيرة صعبة. رواتبهن خفيضة متدنية، ونتيجة لعدم وجود وقت كاف لم تُراجع رواتبهن رغم انهن يستحققّ الزيادة. ولم يزد تدخل الادارة لمصلحتهن الأمور إلا سوءاً مما أثار حنق ڤاسيا. فراحت تضغط على السلطات وتناضل في سبيل مصلحة النساء. فضلاً عن أنها ساعدت في دفع نقابة النساء إلى الأمام كي تقوى على رفع قضيتها إلى لجنة التحكيم. عندما تكون ڤاسيا في المصنع فإنها تندفع هنا وهناك ناسية العالم الخارجي تماماً، إلى

أن يحين وقت العودة إلى المنزل.

وكانت تتمشى مع ليزا سوروكينا. (المنظِمة) وهي فتاة شديدة الذكاء ـ وقد أقامت ڤاسيا معها علاقة صداقة حميمة. كانتا تتبادلان الحديث أثناء تسيارهما، فتفرضان خطة تحركهما وتتناقشان في أيهن الفضلى لعرض قضيتهن أمام لجنة التحكيم. والوقت يمر بسرعة حتى أنهما كانتا تبلغان بيت ڤاسيا دون أن تلاحظ هي ذلك.

ذات يوم عادت من اجتماع فاستقبلها ڤلاديمير. بدا وكأنه شخص مختلف، يتوهج بالسعادة ضمها وقال:

ـ عليك أن تهنئيني يا ڤاسيا. إستلمت لتوي رسالة من موسكو تعلمني بأني عُينت في مركز جديد. بكلمة أخرى لقد رُفعت. سوف أكون مديراً مسؤولاً عن منطقة كاملة منذ الآن. ما عليّ سوى البقاء هنا لشهرين ثم أمضي. سنسخر من لجنة المراقبة الآن، تُرى بماذا سيعلق الرئيس الآن؟

لكن ڤاسيا حذرته:

ـ لا تبتهج منذ الآن. لعل التهم تحول بينك وبين الترقية.

ـ كلام فارغ ستكف اللجنة الآن عن مضايقتي. اتضح انهم بحاجة إلي للعمل.

كان جذلاً كصبي صغير. أضاف وهو يعانقها:

لقد احضرت لك هدية صغيرة احتفالاً بهذه المناسبة.

قاد ڤاسيا إلى غرفة النوم، وإذا بقطعة من الحرير الأزرق على السرير وإلى جوارها بعض الشاش.

ـ انظري، بوسعك أن تخيطي من هذا الحرير ثوباً جميلاً يا حبيبتي، بوسعك الآن أن تتأنقي. إن هذا اللون الأزرق ـ الرمادي يناسبك. أما هذا الشاش فتخيطينه قمصاناً.

تعجبت قاسيا وقالت ضاحكة:

- قمصاناً! من هذا القماش؟

ألح قائلاً:

- هذا أفضل شاش نسائي. أعرف أنه يستخدم كملابس داخلية، ولكني أتمنى عن إرتداء هذه القمصان الشَعرية أنها تذكرني بالبالونات.

- ولكن لا بد أننا نستطيع أن نخيط منها شيئاً أفضل من القمصان.

أما بشأن الحرير فصحيح أنه جميل ولكن حريّ بك أن لا تشتريه. هل دفعت ثمنه نقداً؟ كيف تنفق نقودك على مثل هذه الأشياء؟

هزت رأسها، إذ لم تثر هدايا ڤولوديا في نفسها بهجة ولا سعادة. لقد أزعجها تبذيره. لكنها رغبت عن جرح مشاعره.

سأل ڤولوديا:

- ألم تعجبك إذن؟

- إنها قطعة جميلة. ولكن يا ڤولوديا عليك أن ترى أنها لا تناسبني.

- ولكن ماذا سترتدين إذن عند ذهابنا إلى المسرح؟

- إذن هذا ما ينبغي أن ترتديه زوجة المدير إذا ما قصدت المسرح، أليس كذلك؟

تصورت نفسها مرتدية هذا الثوب فانفجرت ضاحكة:

- شكراً يا حبيبي على لطفك.

وقفت على اصابع قدميها وعانقت ڤولوديا وقبلته.

- إذن لم تنسي كيف تقبلين يا ڤاسيا. اعتقدت أنك ما عدت تحبين زوجك المسكين. بعد أن صرفتني من الغرفة وانقطعت عن تقبيلي.

ـ ولكنك تعلم يا ڤولوديا أن كلينا كان يفتقر الى الوقت ـ كنت مشغولاً بإستمرار.

سأل:

ـ إذن لا تزالين تحبينني؟

ـ كيف لي أن اتوقف عن حبك؟

ـ هل تريدين أن أذكرك كيف كنا نمارس الحب؟

سألها، فانفجرا ضاحكين وكأنهما التقيا أخيراً بعد فراق طويل.

في اليوم التالي وبينما كانت ڤاسيا على وشك المضي الى المصنع تذكرت كتاب بوخارين الف باء الشيوعية والذي كانت قررت أن تأخذه معها. كان على رف كتب ڤولوديا، فهرعت عائدة إلى غرفة المطالعة لتأخذه. عندما فتحت الدولاب سقطت علبة على الأرض. انحنت ڤاسيا لتلتقطها وإذا بقلبها يخفق خفقاً متداركاً. فقد وقع بصرها على قطعة قماش من الحرير الأرزق مطابقة تماماً للقطعة التي إشتراها ڤلاديمير لها، ومع نفس الشاش ايضاً. راودتها أفكار قاتمة باهتة: «إنه يحيا في مؤسستين» أيعقل أن يكون ذلك صحيحاً؟ فزعت من مجرد التفكير في هذا الأمر. غمرتها موجة من الشكوك والغيرة. «إنه يحيا في مؤسستين. . .» من الواضح انه بات غريب الأطوار مؤخراً، فهو يتصرف كأنه غريب عنها حيناً فلا يكاد يتعرف إليها، ويبالغ في التودد اليها تارة أخرى. وكأنما يشعر بالذنب تجاه شيء ما.

وبدأت تتذكر كيف كان يفوح بالعطر كلما عاد من المسرح، وكيف يتأنق أمام المرآه كلما همَّ بالخروج في المساء. وفجأة تذكرت ايضاً تلك الممرضة ذات الشفتين المكتنزتين، وبقعة الدم على الغطاء.

غام كل شيء أمام عينيها، شعرت بالخدر في يديها، وقبض وجع لا يوصف على قلبها. كيف يسعه أن يخدعها، وهي أعز أصدقائه! زوجها الذي تعبد ورفيقها، كيف يمارس الحب مع امرأة أخرى من وراء ظهرها بينما هي

هنا إلى جانبه. لو كانت تعيش بعيدة عنه لربما اختلف الأمر، إذ أنها لم تتوقع أن يُخلص الرجل لها دائماً. ولكن الآن، وبينما هي تمنحه كل حبها، كل حنانها، كل شيء، كيف يفعل ذلك؟

لعله توقف عن محبتها. عجزت عن مجرد التفكير في هذا الخاطر الذي لا يحتمل. وراحت تشد على القش بضراوة ناشدة شيئاً من العزاء. لو كان قد توقف عن حبها فعلاً فلم يعاملها إذن بكل هذا الإحترام والحب؟ ولماذا أرسل في طلبها أساساً؟ مستحيل - انهما صديقان وحبيبان وقد عانا الكثير معاً حتى باتا كائناً واحداً. ولكن هل هذا صحيح؟ أهي كارثة أخرى؟ إنها عاجزة عن تصديق ذلك بل هي ترفض التصديق.

ورغم ذلك.. لماذا لا يقضي إلا وقتاً نزيراً في البيت؟ ولمَ هو دائماً معذب مكتئب؟ لماذا فقد بهجته لرؤيتها؟ لماذا ينتهز أي فرصة، مثل سعالها على سبيل المثال، لينام منفصلاً عنها؟ رغبت في البكاء وهي تفكر في مثل هذه الخواطر. لكنها كانت مروعة إلى حد حال دونها وإدراك معاني هذه الخواطر إدراكاً كلياً. قالت لنفسها: كل هذا كذب، كذب. إنه يحبني، لا بد أن يحبني. ألم يمارس أمس الحب معي. لعل قطعة الحرير هذه ملك شخص آخر، لعله يريد أن يوصلها إلى شخص.. لماذا قفزت إلى إستنتاج قد يكون غير صحيح أي أن قطعة الحرير هذه له؟ حتى اسمه غير مكتوب عليها. لعل خيالها ابتدع القضية كلها.

وبدأت تشعر بالخجل من شكوكها فيه. فهي تشبه امرأة عجوز تراقب زوجها طيلة الوقت. ولكن رغم كل محاولاتها في بث مشاعر الطمأنينة في نفسها فإن ثعبان الغيرة واصل إزعاجه لها، ورغم كل محاولاتها فإنه لم ينصرف عنها. لا بد من تفسير بسيط. حين يعود ڤلاديمير سوف نسأله عن كل شيء، سوف يناقشان هذه المسألة، وستمنحه فرصة ليفسر الأمر. عند ذاك ستعرف الحقيقة. تناولت الكتاب ومضت إلى المصنع. وكانت قد تأخرت كثيراً.

بعـد العمل سعت إلى البيت مسـرعـة، راغبـة في عـدم التـأخـر عن العشاء. وإذا كانت منشغلة في المصنع فإن الغيرة قد عـاودتها ثـانية مـا أن وطـأتَ قدمهـا الشارع. مؤسستـان، قطعتـان من الحـريـر، قـطعتـان من القماش.. وكيف تسنى لڤلاديمير أن يعرف أن النساء يلبسن ملابس داخلية من هذا النوع؟ لا شك في أنه استقى معلوماته هذه من العاهرات والسيدات اللواتي يملكن مالاً يبذرنه.

وما الذي قاله عن قمصانها؟ قمصان تـذكره بـالبالـونات. هـل يكره قمصانها فعلاً؟ في الأيام الغابرة كان يحب أن تلبس هذه القمصان. ولكن في تلك الأيام ما كان ليمضي خارج البيت تاركاً إياها وحيـدة رغم أنها قد جاءت للتو. ولو كان ذاهباً إلى إجتماع بالفعل كما يزعم فلماذا يتأنق هكذا أمام المرآة؟ ولماذا يعود والعـطر يفوح منـه؟ لماذا لم يعـد يرنـو إليها بنـظراته البهجة القديمة المميزة؟

كـانت تنشد جـواباً، لمن قـطعة القمـاش تلك؟ لمـاذا واراهـا في رف الكتب؟ لماذا لم يتركها على الطاولة؟ لو حاول أن يتحاشى أسئلتها أو عمـد إلى الكـذب فإنها لن تغفـر له أبـداً. ارتقت الـدرجـات بسـرعـة وقـرعت الجرس. كانت السيارة تقف في الخارج ـ لا بد وأن ڤلاديمير قد عاد.

عليه أن يفسر لها هذه الأمور ما أن تراه. إذا كان يخدعهـا ويذلهـا كما يفعل أي زوج يذل زوجته التي لا يحب... مجرد التفكير بهذا الخاطر جعلها تتأجج بالغضب والإضطراب. آوه، لماذا تأخر في فتح الباب.

أخيراً صر المزلاج ثم فتحت ماريا سيمينوڤا الباب. قالت لڤاسيا:

ـ لدينا ضيوف من موسكو. ستة أشخاص. ست أفواه تتطلب طعاماً، أي إزعاج.

لم يسع ڤاسيا أن تتخمن من يكون هؤلاء الضيوف. ترامت أصوات إلى مسمعها من الصالـة. كان ڤـلاديمير يقـوم بدور المضيـف. فعـارف ما بـين

الضيوف وزوجته. وكان الضيوف من النقابة حضروا ومعهم خطط لبرنامج العمل الجديد. وتلهفت ڤاسيا لسماع آخر الأخبار من موسكو حول التطورات السياسية الأخيرة التي تشغل الجميع.

لكنها رأت ماريا سيمينوڤا تقف بالباب تومىء لها خلسة. كانت بحاجة لمساعدة في المطبخ، لقد أرسل ڤاسيا الساعي ليحضر نبيذاً، ومضى ايڤان ايڤانوڤيتش ليحضر المشهيات، بينما حملت ماريا سيمينوڤا المسكينة العبء كله. فهي تشرف على الشواء في المطبخ وتعد المائدة في آن معاً. وكان ڤلاديمير قد أمرّها أن تعد كل شيء حسب الأصول. على ڤاسيا أن تساعدها إذن. فهرعتا إلى العمل. وعاد إيڤان ايڤانوڤيتش فساعدهما. في هذه الأثناء تناست ڤاسيا مسألة الحرير الأزرق. ولم تركز سوى على أن لا تخذل ڤولوديا. فلا يسعه أن يُحرج أمام رجال النقابة الآن بعد أن أصبح مديراً. وسرعان ما هرعت ڤاسيا الأخرى إلى الداخل حاملة الخمرة، ففتح إيڤان ايڤانوڤيتش الزجاجات.

بدت المائدة وكأنها معدة لوليمة عيد الفصح. فقد ازدحمت فيها المشهيات والخمرة والزهور ومناديل موروزوف وأجود انواع السكاكين الفضية. دعوا الضيوف ليجلسوا إلى المائدة. رمق ڤلاديمير المائدة بنظرة متفحصة قلقة. ثم بدا مرتاحاً مطمئناً.

كان بوسعه أن يرنو إلى ڤاسيا بنظرة إمتنان خاطفة لإجهاد نفسها في سبيل سعادته ورضاه. ولكنه لم يفعل، مما بعث قلقها مجدداً. شعرت بأنها مرفوضة معزولة. تبادلت مع الضيوف أحاديث عادية، لكن ذهنها لم يخل للحظة من قطعة الحرير الزرقاء. لمن هي يا ترى؟ بدأت ترى ڤولوديا بعينين جديدتين ـ وبدا لها كأنه غريب. فمن يخدعها هكذا ويكذب عليها ويسمح لثعبان جحيمي أن يلج قلبها لا يمكن أن يكون إلا غريباً.

شُغلت ڤاسيا طوال ذلك المساء، وأرسل الساعي ليجلب مزيداً من

الوسائد ليرتاح الضيوف في نومهم. وقضت معظم الوقت في ترتيب الأسرة في غرفة المكتبة وعيناها على رف الكتب المشؤوم. كانت قطعة الحرير الأزرق في مكانها وڤاسيا لا تعرف من صاحبتها. كانت مرهقة.

أعدت الشاي للضيوف الذين ما تحدثوا إلا عن قضاياهم الشخصية ومراتب السلع، وطرق رزم البضائع ومواصفاتها والتقديرات المتعلقة بها. إنه عالم التجارة مرة أخرى. كل هؤلاء الرجال هم من التجار القدامى بما فيهم الشيوعيين اللذين أصبحا «تاجرين أحمرين حقيقيين»، كان ڤلاديمير منتشياً في هذه الجلسة. تكلم بمباهاة عن عمله الذي فاق أعمال الآخرين نجاحاً والذي تزداد أرباحه شهرياً. وكان من الواضح أن التجار يخصّونه بإحترام كبير، ويصغون بإهتمام إلى كل كلمة يقولها غير ملتفت إلى ما يقوله المدراء الآخرون.

ولو رأت ڤاسيا هذا الاعجاب في وقت آخر لفرحت لڤلاديمير، لكنها اليوم بالذات لم تكترث. ها هو يتحدث عن العمل، العمل متجاهلاً إياها تماماً. ألا يسعه أن يرى كم هي مرهقة، وكم تعذبها الغيرة؟

لم تستطع أن تقرر إذا مّا كان قادراً على خداعها. لعله يخدعها في مجال العمل ايضاً. لعل اللجنة الحزبية على حق في محاكمته. أوه عَمَّ يتحدث هؤلاء النقابيون الآن؟ لم يتوقفوا عن الكلام طوال النهار. ليتهم ينصرفوا ويتركوها وحدها مع ڤلاديمير، فتسأله على قطعة القماش.

بدأت ڤاسيا تتهيأ للنوم. سينام ڤلاديمير معها إذ سيحتل الضيوف الغرف الأخرى. كانت بإنتظاره، تصغي لوقع خطواته. وكان قد تمنى لضيوفه نوماً سعيداً وها هو يلقي أوامر اليوم التالي على إيڤان ايڤانوڤيتش. حين سمعته يدنو من الباب راح قلبها يخفق خفقاً متداركاً واحست بركبتيها تتخاذلان فجلست على السرير. عزمت على استجوابه فور دخوله إلى الغرفة.

لكن ڤلاديمير كان متشاغلاً بنفسه حتى أنه لم يمنحها الفرصة لتسأل. سألها هو رأيها في كيفية إعادة تنظيم البيروقراطية من أجل تقوية مواقع الشيوعيين ولسيطرة الحزب على النقابات البورجوازية.

توسلها قائلاً:

ـ أشيري علي يا ڤاسيا فأنت خبيرة في هذه المسائل. هلا فكرت في الأمر؟ غداً سوف أذهب معهم للبحث في العقد الجديد. أريدك أن تقرئيه بانتباه وتمعن. إن البورجوازيين يفعلون المستحيل في سبيل إنتهاك سلطة العمال وتخطيها. لكن لا أمل لهم فلا تقلقي. سوف نقضي على محاولاتهم هذه. ما علينا سوى إعادة تنظيم البيروقراطية حتى تعجز عن التحرك شبراً واحداً دون التعرض لعقوبة الحزب والشيوعيين الحقيقيين.

تساءلت ڤاسيا:

ـ ولكن كيف تقول ذلك وأنت نفسك لا تنفذ تعليمات الحزب. ألم تقل من قبل أن فصلك من الحزب ليس بالكارثة وأنك لا تكترث.

تضاحك ڤلاديمير وقال:

ـ لا عليك بما قلته، فقد قلته بعد أن فقدت أعصابي.

أنت تعرفين حقيقة مشاعري. كيف لي أن أعيش دون الحزب؟ هل تعتقدين حقاً أنني قادر على العزوف عنه؟

راح يخلع نعليه وهو يفكر بصوت مرتفع:

ـ حين اتجاوز هذه القضية السخيفة سوف نعيش معاً بطريقة مناسبة. وسوف ترين بنفسك انني سأصبح شيوعياً نموذجياً بعدما ينقلوني إلى المقاطعة الجديدة. ولن تتكرر مجابهاتي مع الرئيس. بل وإنني سوف اصبح في «بانتيون» الحزب.

كان سعيداً، عيناه مضيئتان، وكأنه ليس نفس الشخص صاحب المزاج الناري. قال:

ـ لنأوي إلى الفراش.

كان على وشك إطفاء النور حين استوقفته ڤاسيا.

ـ لا أرجوك انتظر لحظة، إنني.. ثمة ما أريد أن أسألك عنه..

تلعثمت وهي تنهض وتتكىء على مرفقها لترى وجه ڤولوديا بطريقة أفضل كان قلبها يخفق بعنف وبدا صوتها غريباً. مما أثار حذر ڤلاديمير وقلقه.

قال مشيحاً بوجهه نحو الحائط:

ـ حسناً، قولي ما عندك.

ـ أريد أن أعرف لماذا تحتفظ بتلك القطعة بين كتبك، قطعة الحرير والشاش تلك؟

ـ أي حرير؟ آه لا بد أنك تتحدثين عن مسطرة القماش.

ـ لا. لا أعني مسطرة القماش. أنني أسألك عن قطعة القماش كلها، المشابهة لقطعتي. اريد أن أعرف لمن هي! اخبرني، لمن؟

تأملت وجه ڤلاديمير بإمعان.

ـ حسناً، هل ترغبين فعلاً بمعرفة صاحب هذه القطعة؛ ألم تخمني بعد؟

ـ لا.

قال ببساطة ودون عجالة:

ـ لقد طلب إيڤان إيڤانوڤيتش مني أن أحضر له قطعة من القماش نفسه ليهديها إلى خطيبته. إنه يزعجني دائماً بطلباته. فكلما اقتنيت شيئاً رغب في

إقتناء مثله. أنه يقلد كل ما أقوم به.

تضرجت وجنتي ڤاسيا خجلاً من نفسها:

ـ إيڤان إيڤانوڤيتش؟ لخطيبته؟ اوه.. وأنا التي ظننت..

ضحك ڤلاديمير والتفت نحوها قائلاً:

ـ ماذا ظننت؟

قالت ڤاسيا وهي تقبله وقد غمرها شعور بالخجل:

ـ أوه ڤاسيا يا حبيبي.

كيف تخطر مثل هذه الإتهامات ضده على بالها فتشك بصديقها هكذا؟

ـ هيا قولي لي ماذا ظننت؟ أنك تتصرفين كتحري ممتاز أحياناً. لقد تحولت إلى محقق دائم.

ضم ڤاسيا، ولكن لاح في عينيه أثر من قلق.

ـ دعينا نام الآن. ولنكف عن تبادل القبلات. علينا أن نقوم بواجبنا تجاه ضيوفنا غداً. علي أن استيقظ باكراً وإلا عجزنا عن الانتهاء من أعمالنا.

أطفأ الضوء. شعرت بالراحة وكانت توشك أن تغفو حين لسعها ثعبان الشك مرة أخرى. فجأة أحست بأنها يقظة إلى اقصى حدود اليقظة.

لماذا قال أنني كالتحري؟ هذا يعني أن ثمة ما يدعو إلى التجسس عليه. كان ڤلاديمير قد نام نوماً عميقاً. إلا أن ڤاسيا ترقد إلى جانبه يقظة كل اليقظة، ترتعش وتحدِّق إلى العتمة. هل تصدقه أم لا؟ طوال الليل الذي لم يغمض فيه جفنيها ظل هذا السؤال يلح على بالها. ولا جواب.

بعدما انصرف رجال النقابة، ازداد عمل ڤلاديمير الذي بدأ يعيد تنظيم العُمل. وكأنه ليس غارقاً أصلاً بالمشاكل المقلقة. ولكن لم يخل الأمر من نتائج عوضت هذا العمل الشاق.

ذات يوم دعا ميخائيلو باڤلوڤيتش ڤاسيا إلى غرفته ليطلعها على قرار خاص جاءه من مركز الحزب. لقد الغيت الاتهامات المدبرة والأهم من ذلك أن الاشاعات حول عناده وأطواره المتقلبة قد تبددت. لقد طويت القضية، وبوسعها الآن أن تتنفس الصعداء.

أخذت ڤاسيا نفساً عميقاً وتنهدت بارتياح وكادت أن تذعن للعادات القديمة وتقول: شكراً لله. ميخائيلو باڤلوڤيتش نفسه سُر للنتيجة ايضاً. فهو معجب بڤاسيا ويتعاطف معها.

لكن ڤاسيا سرعان ما عانت من ضربة قاسية. عندما وضعت النسوة قضيتهن بين يدي لجنة التحكيم، صدر قرار يؤيد وجهة نظر الإدارة. تسخطت النساء وتحدث البعض عن اللجوء إلى إضراب. وعمد المناشفة، الذين كانوا يعملون تحت ستار اللامنحازين والعمال غير الأعضاء في الحزب، الى إذكاء نار الغضب في النفوس والحض على الاضراب. كانت ڤاسيا تعاني من حرارة مرتفعة وسعال حاد. ورغم ذلك قضت معظم وقتها في المصنع تجادل الادارة في حمية وغضب. تطالب بالتنازلات، وفي الوقت نفسه كانت تحاول تهدئة النساء وتحثهن على إتباع المنطق.

كانت مستغرقَة في عملها إلى حد نسيت معه قصة الحرير الأزرق. ولكنها عادت وتذكرت على نحو مفاجىء ومنذ ذلك الوقت وثعبان القلق يزايلها.

حدث كل شيء بسبب كلب. ففي أحد الأيام جاء الساعي حاملاً كلب (بودل)(*) وثمة وشاح معقود بين أذنيه.

سألت ڤاسيا:

ـ لمن هذا الكلب؟ من أين جئت به؟ لماذا احضرته إلى هنا؟

(*) البودل كلب ذكي كثيف الشعر أجعده.

قال الصبي أن ڤلاديمير أمره بحمل البودل الى البيت. أما صاحبه ساڤيليف. وعندما سافر هذا الأخير نحل الكلب وهزل. اهتمام ڤلاديمير المفاجىء بهذا الكلب أثار دهشة ڤاسيا. من المؤكد أنه لم يفعل ذلك لإرضاء ساڤيليف. عاودها بغضها القديم لساڤيليف، وثار سخطها لدى معرفتها بأن علاقة ڤلاديمير بهذا الرجل السيء الصيت لم تنقطع. حين عاد ڤلاديمير إلى المنزل اندفع الكلب نحوه وكأنما يرحب بسيده. ربت ڤلاديمير عليه وحادثه.

سألته ڤاسيا:

- من اين جاء هذا الكلب يا ڤولوديا؟ هل هو ملك ساڤيليف؟

أجاب:

- لا. إنه ملك خطيبة إيڤان ايڤانوڤيتش. سافرت، فطلب مني إيڤان إيڤانوڤيتش أن احتفظ به إلى أن تعود.

- لكن الصبي الساعي قال انه ملك ساڤيليف.

- إنه مخطىء. كان الكلب عند ساڤيليف لأيام معدودة، حين احضره ڤاسيا من عنده. لهذا التبس عليه الأمر.

رغم بساطة هذا التفسير فإنه لم يقنع ڤاسيا. مرة أخرى لم تعرف أتصدقه أم لا حين جاء ايڤان ايڤانوڤيتش سألته عن صاحب الكلب. فحكى لها قصة الكلب بالتفصيل. لقد سألته خطيبته أن يعتني بالكلب، ولكن لا متسع للكلب عنده. فأرسله الى ساڤيليف، ولكن لم يكن عند الأخير سوى خادم واحدة وكانت تقضي معظم أوقاتها خارج المنزل فتضطر إلى حبس الكلب في المنزل وتركه وحيداً.. إلى آخر. لكن أياً كانت القصة الحقيقة فإن ڤاسيا احست ببغض تجاه الكلب.

بعد هذه الحادثة بوقت قصير، سافر ڤلاديمير فغاب عدة أيام، ليحضر

مؤتمر النقابة. وظنت ڤاسيا انها ستعاني من الوحدة والكآبة بدونه. لكنها شعرت فجأة بأنها تحررت من ثقل القلق الذي كانت تحمل عبئه حين تكون معه. وتبددت تلك المشاعر الصامتة التي كان يثيرها إهماله لها. بدونه سارت الأمور بطريقة أفضل. فخلال وجوده إلى جانبها كان قلبها الانثوي الأحمق يتوق إلى آيات تنبىء عن حبه لها، رغم انها تدرك أنه مشغول وغارق في مشاكل العمل. وبدونه، ما عاد ثمة إنتظار، ولا إصغاء، ولا مغالبة لمشاعر الامتعاض.

دعت ڤاسيا أصحابها من المصنع إلى العشاء. فجاء ميخائيلو باڤلوڤيتش وليزا سوروكينا. إنها تحب استضافة أصحابها. بعد الانتهاء من وجبة الطعام، راحوا يناقشون أموراً حزبية. وتمشوا في الحديقة. غنوا الأغاني وكانوا سعداء. خاصة ڤاسيا، كم يختلف هذا عن إجراء مناقشة سياسية في الصالة مع رجال من أمثال ساڤيليڤ أو النقابيين. مر الوقت بسرعة.

عاد ڤلاديمير ذات صباح بقطار مبكر فألفاها تحتسي الشاي. هبت لاستقباله، لكنه اكتفى بالضغط على يدها ثم رفعها إلى شفتيه فترة طويلة. حين رفع رأسه رأت عينيه طافحتين بالدموع.

سألته متوجسة:

ـ ما الأمر يا ڤولوديا؟ هل هناك مزيداً من المشاكل؟

ـ لا يا ڤاسيا، ليست مشاكل، إنما الحياة عسيرة، هذا كل شيء.. لقد مللتها.

جلس إلى المائدة، دفن وجهه بين يديه وانسكبت الدموع على وجنتيه.

ـ قل لي يا ڤولوديا ما الذي يزعجك. قل لي يا حبيبي فذلك يسهل الأمور في النهاية.

سألها بصوت حزين:

ـ أتعتقديم ذلك يا ڤاسياك؟ فكرت في الأمر ملياً، استنزفت عقلي، لن تتصوري أية معاناة عانيت يا ڤاسيا. لا أعتقد أن الحديث حولها سيسهل الأمور. إنني عاجز عن إيجاد حل.

هذا الغمز في حديثه جعل قلب ڤاسيا يتوقف عن الوجيب وهلة.

ـ ڤولوديا، ينبغي أن تكف عن تعذيبي هكذا. ما الذي تتحدث عنه؟ قل لي الحقيقة، أتوسلك. ليس بوسعي أن أتحمل أكثر. لقد هدني القلق وأعياني. ما عدت أعرف للراحة طعماً.

وبينما هي تتحدث بدت وكأنها تختنق ثم جعلت تسعل.

ـ أترين؟ ها قد بدأت تسعلين. كيف لي أن أحدثك الآن.

في صوته عتاب وحزن، وحين واصلت سعالها عبس وأشعل لفافة تبغ. ثم قال:

ـ لماذا لا تحتسين الشاي؟ ربما أوقف سعالك.

قالت:

ـ سوف أتناول المعيَّنة(1).

خفّت حدة سعالها وسكبت الشاي لڤلاديمير. وبدأ يحدثها عن مشاكل العمل بطريقته المميزة. لقد أنبأه إيڤان ايڤانوڤيتش بهذه المشكلات ما إن غادر القطار. الحمالون يسببون الكثير من الاضطرابات، يطالبون برفع الرواتب وخفض الإنتاج. ولهذه الأسباب خسرت المؤسسة خسارة باهظة. وها هم الحمالون يهددون باللجوء إلى الإضراب إن لم تدفع لهم المؤسسة فوراً. ويعتقد فلاديمير أن ثمة مخربين بين العمال يحرضونهم: وليس بوسعه

---

(1) المعيَّنة: قطعة حلوى صغيرة مشتملة عادة على مادة طبية: Lozenge.

أن يراقبهم جميعاً. أي وضع هذا! لم يغب سوى بضعة أيام ليعود فيجد هذه الأزمة. ما الذي يفعله غيره من المدراء؟ يبدو أنهم لا يريدون صب الزيت على النار. وبالنتيجة سوف يمنحون الرئيس مزيداً من الذخيرة...

سألته ڤاسيا فجأة:

ـ هل هذا ما دفعك إلى القول بأن الحياة صعبة وأن ليس ثمة حل؟ كل هذا بسبب الحمالين؟

ـ طبعاً. ماذا حسبت إذن؟

نفث ڤلاديمير دخان سيجارته وحرك الشاي ببطء وأناة ثم تابع حديثه عن المشكلة، وأنجح الطرق لحلها دون فضائح وضجة إعلامية.

لكن ڤاسيا استقبلت حديثه بأُذُنٍ نصف معرضة. عادت الشكوك تراودها. هل يبكي حقاً لمجرد وجود مشاكل بينه وبين الحمالين؟ ليس هذا ڤلاديمير الذي تعرف. لا بد من وجود شيء آخر ينهش باله ـ مثل الحرير الأزرق على سبيل المثال...

لكنها غالبت مشاعر الغيرة، لن تذعن لها الآن. لا بد أن ڤلاديمير متعب مجهد. لقد نال منه الإعياء بسبب تعامله مع لجنة المراقبة حتى بات قابلاً للإثارة لقاء أي سبب مهما كان تافهاً.

رغم ذلك كانت ڤاسيا تواقة لمزيد من التأكيدات والتطمينات. كانت ترغب رغبة عارمة في أن تؤمن فعلاً بأن هموم ڤلاديمير ليست سوى هموم العمل.

- ٧ -

أخيراً ربحت قاسيا قضية المصنع لقد أقنعت الإدارة بالقيام بالتنازلات، بعد ذلك حملتها النسوة المبتهجات على الأكتاف وهللن لها. أدركت قاسيا أنه لولا الرئيس لما ربحن القضية. إذ أنها تحدثت إليه مطولاً وتبين لها أنه شخص لا يساوم ويرفض مداراة الإدارة أو مسايرتها.

هرعت بعد هذا النصر إلى البيت. حين دنت من المنزل رأت الباحة تزدحم بالحمالين. كانوا يتجادلون بحدة. بعض الغاضبين هتفوا: «ارفعوا الرواتب وإلا توقفنا عن العمل،وليُحَمِّل المدراءوالموظفون بدلاً منا.

اندست قاسيا بين العمال وأخذت تضغي لأحاديثهم. ثم راحت توجه إليهم الأسئلة. فشرعوا جميعاً يتحدثون بصخب ويشرحون لها أسباب نقمتهم: الإدارة تدفع لهم مبالغ زهيدة، لا يتمتعون بنظام «الوقت الإضافي»، وثمة تلاعب في الحسابات. تحلق الرجال حولها، وهددوا الإدارة وطلبوا منها أن تنقل قضيتهم إلى زوجها.

أصغت لكل ما طرحوه وواصلت استجوابهم. كانت شكاواهم مألوفة بالنسبة لها، ومطاليبهم معقولة. وتبين لها أن الحمالين غاضبون من المدراء والمسؤولين والموظفين لأنهم يعيشون حياة امتيازات على حساب الحمالين الذين يعجزون عن شراء حتى الطعام والملابس لأطفالهم.

أدركت قاسيا أنهم بحاجة إلى مساعدة حتى تُسمع قضيتهم. ينبغي

أن يضغطوا على الإدارة من خلال نقابتهم. لن يصلوا إلى أية نتيجة بلا تنظيم صحيح ومخططات ملموسة. وافق أقطابهم على أقوالها. قر قرارهم على صياغة مطاليبهم، فإن استقبلتها الإدارة بآذان معرضة حملوها إلى لجنة التحكيم. تحمست لقضيتهم ناسية وضعها كزوجة المدير. ليس لها خيار، عليها أن تنصح هؤلاء الأصدقاء الذين تنقصهم الخبرة والقيادة المناسبة.

دعت زعماء العمال إلى المنزل كي يصوغوا مطاليبهم. وبينما كانوا يجتازون غرف الاستقبال متوجهين إلى غرفة نوم ڤاسيا، اختلسوا النظر إلى أثاث المدير. في تلك اللحظة فقط أدركت ڤاسيا أن دعوتهم إلى المنزل أمر غير مألوف. لكن الأوان قد فات. جلس الرجال إلى طاولتها وبدأوا يصوغون مطاليبهم ويكتبونها.

هدأ الصخب في الخارج. انقسم العمال إلى مجموعات صغيرة ينتظرون، يتحادثون، يدخنون. فجأة بدأوا يغمغمون ـ اقتربت سيارة المدير وترجل ڤلاديمير منها.

سمعته ڤاسيا يصرخ مغضباً:

ـ ماذا يحدث هنا؟ هل قررتم أن تعقدوا الاجتماعات هنا؟ هل جئتم إلى هنا لكي تهددوني بشكاويكم؟ حسناً، إنني على غير استعداد لمناقشتها هنا، هل تفهمون؟ هذا بيتي الخاص. عليكم أن تذهبوا إلى مكتب المدير. وإذا كنتم تشكون الرواتب فاذهبوا إلى النقابة، لأن هذه المسألة لا علاقة لها بالإدارة. فمتاعبهم كثيرة أصلاً. إذا قررتم الإضراب فهذا شأنكم. إذا وافقت نقابتكم فاسعوا إلى الإضراب. ولكن انصرفوا الآن في هذه اللحظة. إنني أرفض الإصغاء نهائياً. سوف نبحث الموضوع في المكتب.

صفق الباب وراءه. وقصد غرفة النوم من فوره. حين فتح الباب ألفى ڤاسيا تجلس إلى الطاولة وتتحدث إلى الحمالين. جمد في مكانه.

ـ ما الذي يجري هنا؟ كيف دخلتم أيها الرجال إلى هنا. كيف تجرؤون على اقتحام منزلي دون إذني؟ انصرفوا، هيا.

احتج الحمالون قائلين:

ـ ولكننا، لم نأت إلى هنا بـ.. إنها زوجتك.
ـ اغربوا عن وجهي، وإلّا...

كان ڤلاديمير قد ابيضّ غضباً. وبدا وكأنه يوشك على فقدان السيطرة على نفسه والإنقضاض عليهم. ولكن بينما كان الحمالون يسعون إلى الباب تدخلت ڤاسيا.

ـ هل جننت يا ڤلاديمير؟ كيف تجرؤ؟ أنا التي دعوتهم. يا رفاق، أرجوكم أن تنتظروا، لا تنصرفوا.

هرعت لتوقفهم. إلا أن ڤلاديمير أمسك بها واعتصر مرفقها بقبضته حتى صرخت من الوجع.

ـ إذن أنت التي دعوتهم أليس كذلك؟ ومن الذي سألك تدخلاً في شؤوني أريد أن أعرف؟ ليس عليك أن تجيبي المؤسسة. لماذا لا تنصرفين إلى مصنع الحصير إذا كنت مغرمة بتنظيم الاضرابات. أيتها الفضولية الحشرية.

ـ إذن أنت تحاول أن تتخلص مني، أليس كذلك؛ أحسب أنني إذا كنت على علاقة حسنة بأصدقائي هؤلاء فإنني لن أصون مصالحك مديراً وأخفض بالتالي أسهمك.

صرخ في وجهها:
ـ منافقة حقيرة.

شعرت ڤاسيا كأنه جلدها بسوط. حقيرة؟ هي، حقيرة! واجه كل منهما الآخر بعداء كلي، كأنهما من ألد الأعداء. وملأ حزن صامت قلبها.

شعرت بقلق أسود بدا أنه سحرٌ ينهي كل سعادتها.

عندما انصرف الحمالون قصد ڤلاديمير من فوره مكتب الإدارة، تاركاً ڤاسيا تتقلب على الفراش ووجهها مدفون في اللحاف الحريري الذي تبلل بدموعها. لكن البكاء لا يبدد مثل هذا الحزن. إنها حقيرة في نظر ڤلاديمير، لقد أصبحا غريبين، عدُوَّين في حرب.

كانت الأيام التالية رمادية وبلا بهجة. يقضي ڤلاديمير معظم وقته في المنزل، ولكن بلا جدوى إذ أن الغربة كانت تترسخ بينهما وباتا لا يتبادلان الحديث إلا عند الضرورة القصوى، وبدأ كلاهما يحيا حياته الخاصة كل على طريقته. عندما مرضت ڤاسيا مرة أخرى عمد ايڤان ايڤانوڤيتش نفسه إلى استدعاء الطبيب الذي انبأها أنها بحاجة إلى مزيد من الراحة. كان ڤلاديمير وايڤان ايڤانوڤيتش غارقين في ضبط حسابات الدائرة. فيجلسان في المكتبة حتى ساعة متقدمة من الليل، لا يخرجان إلا ليصيبا شيئاً من الطعام، كلاهما صامت وسيء المزاج.

أقبلت ليزا سوروكينا لزيارة ڤاسيا حاملة أنباء عن المصنع ورسائل الحب والتعاطف من النسوة هناك لها. إلا أن شقاء ڤاسيا الذي سببته تلك الحادثة مع ڤلاديمير كان يستولي عليها فهي لا تكترث بمرضها. كانت تعرف إن كلاً منهما عاجز عن نسيان تلك المجابهة بشأن الحمالين، وأن كلاً منهما عاجز عن أن يغفر من أعماق قلبه للآخر.

فكرت ڤاسيا بالعودة إلى مسقط رأسها. شعرت بالشوق إلى موطنها الذي كانت تسكنه، لكنها بلا مسكن. فلا يسعها أن تسكن مع أبويها إذ أنهما سوف يمعنان في الشكوى من حياتها وسوف يلعنان البلاشفة. ليس ثمة مكان تأوي إليه. كتبت إلى غروشا تسألها أن تجد لها غرفة، وإلى ستيبان اليكسيڤيتش تتوسله أن يجد لها عملاً حزبياً في مصنع: إنها مصممة على الرحيل حالما تسمع منهما. فما جدوى البقاء ما دام أحد لا يحتاج إليها بعد الآن؟ فڤلاديمير قادر على أن يعيش بدونها.

مرت الأيام ببطء كئيبة ومضجرة.

إنـه منتصف الصيف. الكرز ينضـج في الحديقـة وأشجـار البـرقـوق تتحول إلى زرقاء داكنـة. تفتحت زنابق بيضـاء رقيقة تتمـايل عـلى سيقان مديدة ناحلة. لكن أياً من هذه الأشياء لم يعد جلاباً للبهجة في نفس ڤاسيا حين كانت تتمشى في الحديقة. تذكرت كم كانت سعيدة في الربيع السابق حـين كانت تـرقد عـلى مقعدهـا، فشعرت بمـزيد من الأسى. أحست أنها كانت شخصاً مختلفاً تماماً آنذاك، أكثر براءة، أكثر ثقة. لقد فقدت شيئاً لا تتبينه ولا تستطيع أن تخلع عليه اسماً محدداً. ولكنهـا تعرف أنها فقـدته إلى الأبد.

بين الحين والآخر كان ڤلاديمير يدنو من النافذة ويـرنو إلى ڤـاسيا بقلق بينـما هي تتزرع الحـديقة في خـطوات لا نهائية. يقف هنـاك عابسـاً ثم ما يلبث أن ينكفىء إلى عمله مع إيڤان ايڤانوڤيتش. فترسل ڤاسيا تنهيدة تنم عن خيبة عميقة. إذ هي تأمل دائـماً في أنه قـد يقبل إلى الحـديقة ليـراها، ولكنه لم يفعل ذلك أبداً. لا وقت لـديه لهـا. من الواضـح تمامـاً أن عمله أكثر أهمية من شقائها.

ذات صبـاح استيقظت ڤـاسيا عـلى صوت خشخشـة فرأت ڤـلاديمـير يفتش عن شيء في الخزانة.

ـ ماذا تفعل في مثل هذه الساعة المبكرة يا ڤولوديا؟

أجاب:

ـ ذاهب لاستلام بضاعة برسم الأمانة من القطار.

سألته:

ـ وحدك؟

قال:

ـ نعم. علي أن أستلم البضاعة.

بينما كانت تتأمله وهو يجهد في محاولة عقد ربطة العنق أمام المرآة دفق كل حبها القديم له من جديد.

قالت:

- تعال إلى هنا يا ڤولوديا دعني أساعدك في عقد الربطة.

دنا منها مذعناً وجلس على السرير بينما جعلت تعقد ربطته. تبادلا نظرات ذات مغزى وتعانقا بصمت.

- أوه يا حبيبتي ڤاسيك، من المؤلم أن نصبح غريبين هكذا. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر بهذه الطريقة، أليس كذلك؟

سألها بحزن وهو يضم رأسها الجعدي الشعر إلى صدره. قالت:

- أتعتقد أنني لا أتألم أيضاً؟ الحياة غير جديرة بالعيش إذا استمر هذا الوضع.

- لماذا أخفقنا هكذا يا ڤاسيا؟

- لا أدري.. ثمة ما هو مرعب وقع بيننا...!

قاطعها قائلاً:

- لا يا ڤاسيا. لا يمكن لأي حائل أن يحول بيننا. إنني أنتمي لك.

- إذن فأنت لا تزال تحبني؟

قال وهو يقبلها:

- لا تقولي ذلك. لنضع حداً لخلافاتنا الآن. فليس الأمر سوى حماقة تسبب لكلينا الشقاء. لو فقدتك لتحطمت يا ڤاسيا، أنت تعرفين إنني عاجز عن العيش بدونك. فلنتوقف عن الاختلاف من الآن فصاعداً.

- حسناً. ولكن عليك أن تقلع عن القاء الأوامر علي.

- وعليك أن تقلعي عن تحريض الحمالين ضدي.

انفجرا يضحكان.

ـ عودي إلى النوم الآن يا ڤاسيا. وإلا عاودك المرض ثانية اليوم إن لم تأخذي قسطك من الراحة والنوم. سوف أعود بعد ساعة أو ساعتين.

ضمها وقبل عينيها ثم غادر الغرفة تاركاً ڤاسيا مبتهجة مطمئنة حتى أنها نامت من فورها نوماً عميقاً لطيفاً. عادت السعادة القديمة، وتبددت جميع مخاوفها.

لم يعد ڤلاديمير مباشرة بعد تفريغ البضاعة، ولكنه اتصل قائلاً إنه سيضطر إلى الذهاب إلى مكتبه وأنه سيعود عند الغداء.

أحست ڤاسيا بتحسن كبير لكنها لم تمض إلى المصنع. فمكثت في البيت تساعد ماريا سيمينوڤا في العمل المنزلي فنظفتا البيت كله.

قبل الغداء بقليل رن الهاتف وردت ڤاسيا. سألها صوت أنثوي:

ـ هللو، هل ڤلاديمير ايڤانوڤيتش موجود؟
ـ لا لم يعد بعد. من يتكلم؟
ـ إنني أتكلم من مكتبه.
ـ إذن لماذا تتصلي بالبيت؟ لا بد وأن يكون في المكتب الآن.

قالت المرأة:
ـ لا، إنه ليس في المكتب، لقد غادره. آسفة للازعاج.

كانت ڤاسيا تعرف هذا الصوت. تعرفه ولا تحبه. تذكرت عند ذاك أن هذه المرأة اتصلت عدة مرات عندما وصلت ڤاسيا إلى هنا لأول مرة. ثم توقفت عن الاتصال فجأة.

سعت ڤاسيا من فورها لتسأل ايڤان ايڤانوڤيتش عن هذه التي تتصل كل هذه المرات من المكتب ـ وخلال ساعات الدوام. قال ايڤان ايڤانوڤيتش إنها لا بد وأن تكون إحدى السكرتيرات. ولماذا تتصل به سكرتيرة؟ مرة أخرى غمرتها الشكوك المألوفة وتحركت الأفعى البائسة.

عاد ڤلاديمير ومعه ضيفين إلى الغداء. دار الحديث كله حول البضاعة التي استلمت ذلك الصباح، إلا أن ڤلاديمير وجد الوقت الكافي ليسأل ڤاسيا عن صحتها وإذا ما كانت تأخذ حمامات شمس كما أشار عليها الطبيب.

قالت ڤاسيا ببرود:

ـ لا، لم آخذ حمام شمس.

وقبل أن تعي ماذا تقول أضافت:

ـ تلك السيدة اتصلت مرة أخرى. السيدة التي تتصل دائماً من المكتب.

قال ڤلاديمير وقد اتسعت عيناه دهشة:

ـ سيدة؟ ترى من تكون؟ من المكتب، تقولين؟ إذن لا بد وأنها شيلفونوڤا ـ سيدة بلا شك! إنها سيدة وربة عائلة ولها أطفال. سوف أخبرك في أية حال. لقد رأيتها يا ڤاسيا. تلك المرأة البدينة ذات الوجه المليء بالنتوء.

تكلم بلا تكلف، إلا أن قلق ڤاسيا لم يكن من النوع الذي يسكن بيسر. بدا لها كلام زوجها ذا رنين كاذب.

بعد الغداء انصرف المديران، وفكرت ڤاسيا مبتهجة بقضاء بقية النهار مع ڤلاديمير. إذا بقي معها فإنه التعويض الذي منت النفس به بعد حديثهما في الصباح. ولكن ما إن ودع ڤلاديمير المديرين حتى ترامى صوت رنين الهاتف من غرفة المكتبة. سارع ڤلاديمير برفع السماعة.

قال بفظاظة:

ـ نعم، نعم، أنا أتحدث . . .
ـ ولكني قلت لك أن لا تتصل بي . . .
ـ نعم، طبعاً، إذا سمحت لي الظروف العائلية.

ضحكا.

ـ لا، لا، مستحيل. أرفض ذلك رفضاً باتاً نهائياً... حسن، حسن. أذعن.

ـ ولكن لوقت قصير جداً. مع السلامة.

وقفت ڤاسيا في الغرفة المجاورة تصغي. ترى، إلى من يتحدث؟ ومن ذا الذي وعده بمقابلته لفترة قصيرة من يمنع ويرفض بهذه الطريقة؟

خرج ڤلاديمير من غرفة المكتبة إلى غرفة النوم، متجاهلاً ڤاسيا رغم أنه مر بجوارها. لحقته. كان يقف إزاء المرآة يسرح شعره. سألته:

ـ إلى من كنت تتحدث بالهاتف يا ڤولوديا؟

أجاب:

ـ ساڤيليڤ.

ـ اذن فقد عاد، أليس كذلك؟

ـ نعم. عاد هذا الصباح.

ـ هل قابلته؟

قال بامتعاض:

ـ هل لك أن تخبريني لماذا كل هذه الأسئلة؟ أتستجوبيني؟ تعرفين جيداً أن البضاعة وصلت هذا الصباح.

ـ إذن فأنت تهم بالسعي لمقابلته؟ هل وعدته؟

ـ نعم، سأذهب لأقابله.

التزما الصمت. قلب ڤاسيا ينبض بقوة وكأنما سينفجر، لكنها لم تعد تكترث لأي شيء. عذاب الشك هذا لا يطاق. سعت إلى ڤولوديا، تناولت يده وقالت بمحبة:

ـ ڤولوديا، أرجوك، أتوسل إليك أن لا تذهب! أرجوك لا تعود إلى سابق عهدك.

سأل:
ـ ماذا تعنين بسابق عهدك، عم تتحدثين؟

ـ تعرف جيداً ماذا أعني ـ علاقتك مع هذا الطفيلي المضارب. لقد عرفت من مصادر مطلعة أن التهمة الأساسية ضدك هي أصحابك غير المناسبين.

ـ آه، إذن فأنت تهمين بإثارة هذا الموضوع ثانية، أليس كذلك؟ ترددين ببغاوية ما يصرخه زعماء الحزب في وجهي؟ هل ترغبين في التسبب بانهياري؟ في تحطيم إرادتي حتى تقيديني بأسلاك مآزرك؟

انتزع ڤلاديمير يده من يدها بعنف.

ـ توقف يا ڤلاديمير، توقف. ما الذي تعنيه ـ أنا لا أرغب في تقييدك بأسلاك مآزري. كن متعقلاً. إننا نتحدث عنك، لا عني. يجب أن لا تحفر قبرك بيدك بهذه الطريقة. لديك أعداء بما فيه الكفاية، من دون عودتك لوصل ما انقطع من علاقتك بساڤيليڤ.

ـ وما علاقة ساڤيليڤ بالأمر؟
ـ لكنك ذاهب لرؤية ساڤيليڤ، أليس كذلك؟

حدقت ڤاسيا إليه باضطراب.

ـ نعم، طبعاً. ولكن ما الخلل في ذلك؟ إنها زيارة عمل. ألا تفهمين؟ ليس في وسعي أن أتخلص منها الآن.

قالت بقوة:
ـ لا أصدقك. إني على يقين من أنك قادر على تأجيل الزيارة حتى الغد. كل ما عليك أن تفعل هو الاتصال بالمكتب وأن تخبرهم...

قال وقد رق قليلاً:

ـ أوه يا ڤاسيا، أية طفلة أنت. حسن، ما دمت مصرة على معرفة الحقيقة فإني سأقولها لك. ساڤيليڤ لم يتصل بشأن العمل. لقد صفينا أعمالنا في المكتب. ولكن ثمة حفلة صغيرة يقيمها أصدقاء حميمون في منزل ساڤيليڤ ولقد دعاني للعب الورق. لم أطأ أرض منزله منذ شهر، فأنا غارق هنا في العمل طوال الوقت. عليك أن تسمحي لي بين الحين والآخر بأن أفعل ما أشاء يا ڤاسيا. لا زلت شاباً، أريد أن أتمتع بحياتي قليلاً. لا يسعك أن تتوقعي مني أن أعيش دائماً مثل ناسك.

قالت ڤاسيا باكتئاب:

ـ نعم، إنني أفهمك يا ڤولوديا. بالطبع، أنت على حق يا عزيزي، إنني لا أود أن أحول بينك وبين الترفيه عن نفسك. ولكني أتوسلك أن لا تعاود سيرتك الماضية مع ساڤيليڤ ـ إنه محتال مخاتل وأنت تعرف ذلك. حتى إنك لا تحترمه. ماذا يعني بالنسبة إليك في أية حال؟ سينتشر الخبر بين الناس وسيقولون: عادت علاقة الصداقة بين ڤلاديمير ايڤانوڤيتش وساڤيليڤ مرة أخرى. فما الذي ستفعله عند ذاك؟ ڤولوديا يا حبيبي. أناشدك أن لا تذهب اليوم إلى هناك. بوسعك أن تتصل به مرة أخرى وتخبره أنك ترفض. . .

قال وقد نفذ صبره:

ـ هذا محال، إذا كان الرئيس يريد حقاً أن يقضي وقته بإقامة الدعاوى المستندة إلى صداقات الناس، فإنه كومة زبالة أكثر منه رئيس في رأيي. وأنت يا ڤاسيا تبالغين بهذا الموضوع بصورة سخيفة. .

ـ ولكن ماذا عني؟ ماذا لو كنت راغبة عن الذهاب إلى هناك يا ڤولوديا؟ أعرف أنه يبغضني، وإنني على يقين من أنه دعاك نكاية بي. لقد سمعتك وأنت تقول له على الهاتف أنك غير قادر على الذهاب بسبب «ظروف عائلية» وضحكتها. أوه يا ڤولوديا (قالت كاليائسة) إنني أشعر بكآبة

شديدة حين تضحك مني هكذا وخاصة إذا شاركك في ذلك شخص مثل ساقيليف. أنت تعرف أنني لا يمكن أن أمنعك من الذهاب.

ـ ولكن هذا بالضبط ما تفعلينه الآن.

ـ إذا كنت تعتقد ذلك، فلماذا لا تذهب. اذهب لرؤيته، ولكن شيئاً واحداً. (توقدت عيناها) تذكر أن ثمة حدوداً لطاقتي على الاحتمال. لقد ساعدتك في الخلاص من متاعبك، إن حملي يكاد يبهظني. إمضِ إن شئت، ولكنني أعرف ماذا أنا فاعلة...

اختنق صوتها.

ـ اسمعي، لقد ضقت ذرعاً بنوباتك الهستيرية الأنثوية. قال وقد فقد أعصابه وأضاف:

ـ ماذا حدث لك؟ ماذا تريدين مني؟

بدأت تبكي قالت: ـ

ـ أوه ڤولوديا، لم أطلب منك أي شيء تقريباً طوال حياتنا، ولكنني الآن أناشدك البقاء هنا، من أجلك ومن أجلي.

ـ آه يا الله من النساء. كلهن متشابهات. كل واحدة من جنسكن اللعين. لقد طفح كيلي. اندفع متجاوزاً قاسيا وسعى بسرعة إلى الصالة، وصفق الباب بعنف وراءه. وترامى صوت محرك السيارة.

ولولت ڤاسيا مثل حيوان متوجع.

- ٨ -

ـ ليزا، إنني بحاجة لمساعدتك. هل تستطيعين إيوائي؟ لقد هجرته نهائياً.

اختنق صوت ڤاسيا إلا أنها لم تستدمع. فتعاستها أعمق من أن تواسيها الدموع.

ـ إذن انفصلت عنه أخيراً. لقد آن الأوان لذلك. كنا جميعاً مذهولين بصبرك عليه كل هذه المدة.

قالت ڤاسيا:

ـ الذي ما عدت أقوى على احتماله هو أننا بتنا غرباء تماماً عن بعض يا ليزا.

ـ سوف أدهش إن لم يحدث هذا. ما الذي دفعك إلى حبه من البداية؟

لم تنبس ڤاسيا. ثم بدأت تفسر مشاعرها. لا تزال عاجزة عن تصديق ما جرى، كل ما تعرفه هو أنها غير قادرة على أن تنسى الإهانة الأخيرة. في المرة الأولى كانت على إستعداد لأن تغفر له. إلا أنها تشعر الآن وكأنه وطأ جثتها، وهي عاجزة عن تبين السبب، من المؤكد أن السبب لا يعود ببساطة إلى رغبته في لعب الورق مع وغد مثل ساڤيليڤ وشلته من القذرين.

لم يكترث ڤلاديمير بما يسببه لها من شقاء، كل ما يلتفت إليه هو أن يروح عن نفسه. أهذا ما يسمى حباً؟ كيف يتأتى لمن كان رفيقها وصديقها ـ

فضلاً عن كونه شيوعياً ـ أن يتصرف بهذه الطريقة؟

تحدثت ڤاسيا على نحو غير مترابط. ووجدت ليزا صعوبة في تصور الذي حدث بينهما، فما بالك بعلاقة ساڤيليڤ بالأمر.

ـ ولكن ألا ترين يا ليزا أن ساڤيليڤ هو السبب. إذ كان ڤلاديمير يهم بالمضي لرؤيته. . .

قاطعتها ليزا قائلة:

ـ وهل تصدقين فعلاً أنه كان في طريقه لرؤية ساڤيليڤ؟

ـ هل تعتقدين أنه لم يكن في طريقه لرؤية ساڤيليڤ؟ إلى أين كان متوجهاً إذن؟

قالت ليزا معترضة:

ـ المسألة ليست مسألة اعتقاد، يا الهي، البلدة كلها تعرف بالأمر، الوحيد الذي لا يعرف بالأمر هو انت. فإما أنك تتعامين عن رؤية ما يجري أو أنك لا ترغبين في معرفته.

ـ رؤية ماذا يا ليزا؟ قولي لي.

ـ الحقيقة أن لعزيزك ڤلاديمير صديقة.

عجزت ڤاسيا عن إستيعاب ما سمعت مباشرة فحدقت إلى ليزا بعينين متسعتين لا تلوح منهما نظرة خوف أو حزن ولكن دهشة خالصة.

ـ صديقة؟ هل قلت صديقة؟ ولكن من هي؟
ـ ليست واحدة منا، ليست عامله. إنها سكرتيرة.
ـ إذن فأنت تعرفينها.
ـ حسناً. لقد رأيتها. البلدة كلها تعرفها.
ـ كيف؟

ـ لتباهيها بثيابها الباذخة. لهذا ثار غضب اصحابنا على ڤلاديمير. ولكن ألم يخطر هذا على بالك رغم كل الذي قاله ميخائيلو باڤلوڤيتش لك عن أصدقائه؟ أنظري إلى نفسك، لست بلهاء عادة، ولكنك تصرفت كبلهاء حقيقية في هذه المسألة.

ولكن شيئاً آخر كان يلح على خاطر ڤاسيا في تلك اللحظة ويزعجها:

ـ هل يحبها؟

ـ المرء لا يدري الحقيقة في مثل هذه الحالات. ولكني أحسب أنه لا بد مغرم بها ما دامت العلاقة بينهما قد استمرت طوال هذه الشهور. لقد اعتقد الجميع أنه سيضع حداً لهذه العلاقة حين تأتين. ولكن هذا الاعتقاد لم يكن في محله. لا زال يختلف اليها في شقتها بسيارته الفارهة.

ـ إذن، هي تملك شقة أليس كذلك؟

قالت ليزا:

ـ نعم، وهي أفخم من منزلك ايضاً.

إذن هذا ما رموا إليه حين تحدثوا عن المؤسستين. الآن أدركت ڤاسيا كل شيء. بإستثناء مسألة واحدة. لماذا كذب عليها ڤولوديا وعذبها هكذا؟

ـ ولكن ماذا تنتظرين؟ ماذا تتوقعين منه.. أن يحضرها لرؤيتك؟ أو أن يسألك إذناً بالاختلاف إليها؟ كان أمر إدراك ما يجري مرهوناً بك، ولكن لم تري لأنك حمقاء، فلا تلومي إلا نفسك.

ـ أرجوك يا ليزا. لا حاجة بك إلى تذكيري المتواصل بأنني تصرفت كحمقاء. في أية حال، ليس هذا المهم في الأمر. الأمر المهم هو ما إذا كان يحبها فعلاً أو أنها مجرد شيء من هذه الأشياء.

ـ ماذا تقصدين بـ «شيء من هذه الأشياء»؟ لا شك في أنه متيم بها ما دام ينفق كل هذا المال عليها، انه يهديها هدايا ثمينة...

ـ هل تعتقدين ذلك؟ لست واثقة من ذلك.. ف..

ـ اسمعي، ألا زلت تعتقدين أنه يحبك؟ ڤاسيا يا عزيزتي عليك أن تقلقي عن خداع نفسك، وإلا إزداد ألمك. لا شك في أنه كلف بك، فانت زوجته وصديقته ايضاً. أما بالنسبة للحب، فصدقيني يا ڤاسيا، لقد كف عن حبك منذ زمن بعيد.

هزت ڤاسيا رأسها سلباً وقالت:

ـ لا أصدقك.

أزعج موقف ڤاسيا ليزا التي رأته حماقة لا غير. فراحت تصف لها صديقة ڤولوديا بنعوت تقصدت فيها المبالغة بإطرائها. فقالت إنها رائعة الجمال، رائعة الإناقة. ترتدي الحرير دائماً ويتحلق حولها المعجبون. ويتراكضون ليؤدوا لها الخدمات، ومن بينهم ساڤيليڤ فهو صديقها الحميم. انهم يقضون ليالٍ حمراء وتقول الشائعات أن فلاديمير وساڤيليڤ يقتسمان مصاريفها في ما بينهما. مجرد التفكير بأن ڤلاديمير متورط في مثل هذه الأجواء أثار في نفس ڤاسيا مشاعر الأسى والألم. أيسعه أن يحب هذه العاهرة فعلاً؟ ليس بوسعها أن تصدق. مهما حكى الناس، إنها لا تصدق. فالقصة غير منطقية.

زمجرت ليزا بغضب:

ـ حسناً. إذا كنت تأبين التصديق فهذا شأنك. ولكن اسألي من أردت وستلقين نفس الجواب. كانت سكرتيرة ساڤيليڤ الشخصية ثم بدأت «تزور» المدراء والله أعلم من أيضاً، وذلك من اجل تحصيل مزيد من المال. ثمة إشاعات تقول بأن إيڤان إيڤانوڤيتش وبعض المدراء يختلفون إليها. ومهما أسرفت في عهرها فإنها لا تملك تذكرة ـ وبوسعها أن تشكر الحكومة السوڤييتية على هذا.

اعترضت ڤاسيا قائلة:

ـ لكن ڤلاديمير لا يمكن أن يحب امرأة من هذا الصنف.

ـ ما الذي يجعلك متيقنة إلى هذا الحد؟ الرجال قادرون على الوقوع في حب النساء بيسر. خاصة من كان من مثل حبيبك ڤلاديمير. وكلما كانت النساء محرومات ـ بالنسبة له ـ كلما إزداد رغبة فيهن..

ـ اسكتي يا ليزا. كيف تجرؤين على هذا القول. أنت لا تعرفينه حتى. ما الذي يجعلك تعتقدين أنك خليقة بالحكم عليه بهذه الطريقة.

ـ ولكن لماذا تدافعين عنه بينما هو يلحق بك الهوان تحت سمع وبصر البلدة كلها؟ بالنسبة لها الأمر مختلف، صدقيني، أنه يقف إلى جانبها في السراء والضراء، صدقيني.

ـ ماذا تعنين «بيلحق بي الهوان»؟ لقد اخترعت هذه القصة اختراعاً. في أية حال، تصرفات ڤلاديمير ليست من شأني. لست مسؤولة عنه. أنت لا تفهمين يا ليزا، إنني لا التفت إلى هذا، ما أحفل به هو شيء آخر مختلف تماماً.

ـ نعم، أعرف، كل ما يهمك هو أنه أقلع عن حبك.

ـ لا، ولا هذا، رغم أنه من المؤلم أن يواجه المرء هذه الحقيقة. الجوهري هو أنني أعرف ما الذي أحسه لكنني لسبب غير بيّن عاجزة عن التعبير عنه، ولا أعرف كيف حدث هذا. كنا حميمين قبل أن يبدأ هو بالكذب علي وإخفاء الحقيقة عني. ثم بدأ يخافني. أنا، من بين كل الناس ـ يبدو لي الأمر مستحيلاً. هل كان يظن أنني سأقف عائقاً في طريقه أو أنني سأتدخل في علاقته الغرامية؟ محال أن يفكر انني قد أفعل ذلك. إنني عاجزة عن فهم الذي جرى. محال أن يحب تلك المرأة كل هذا الحب..

قالت ليزا بصوت يشي بنفاذ الصبر:

ـ في أية حال، لقد أثارت فضيحة كبيرة. ولكن ليست هناك طريقة لإقناعك بالصواب يا ڤاسيا. من الواضح انك لا زلت تحت تأثير حبيبك

ڤولودكا. «أضربني، دوسني، لست آبه. فما أنا سوى زوجتك الذليلة المتواضعة». لعل مثل هذا الموقف يناسبك أما أنا فلا. لو كنت مكانك لجعلته يدفع ثمن كل ما فعله بي.

تمنعت ڤاسيا عن المحاججة، ولكن كلما قست ليزا في تهجمها على ڤلاديمير، كلما هبت ڤاسيا للدفاع عنه. كانت تنشد إقناع ليزا بأنها لا تلوم ڤلاديمير لكونه على علاقة بامرأة بل وربما لكونه يحبها ولكنها عاتبة عليه لأنه يخفي عنها الحقيقة كما قد يخفيها عن غريب.

وهو لا يعاملها على أنها غريبة وحسب، بل وعلى انها شخص غير جدير بالثقة. كان تصرفه يشي بأنه خائف منها. خائف من أن تلح على حقوقها الزوجية.

صرخت ليزا:

- هذا ما كان ينبغي عليك أن تفعليه. وعليك أن تفعليه الآن. كيف يجرؤ على إهانتك هكذا. ينبغي أن تهجريه كلياً. انه ليس خليقاً بك يا ڤاسيا، إنه لا يساوي إصبعك الصغير.

تجادلت ڤاسيا معها بحدة. كانت دائماً هكذا. فمهما اسرفت في نقد ڤلاديمير، فإنها لا تسمح للآخرين بالتهجم عليه. بل وتحتد لأن الناس يسيئون فهمه. كانت الشخص الوحيد الذي يفهم «الامريكي». وحين ذكرت هذه الكلمة الأخيرة راحت تنحب بشدة. تدفقت ذكرياتها مع ڤلاديمير الذي أحبت، الرجل الذي قاد التعاونية ودافع عن السوفييت. غمرها شعور عارم بالشقاء. التصقت بليزا تنشج. تلاشت خواطرها المتعلقة بڤلاديمير المدير. كل ما تشعر به الآن هو حنين لڤلاديمير الذي أحبته.

- الوضع كله مريع يا لزينكا، انه يُثقل عليّ.

أعرف ذلك يا عزيزتي الغالية. أتعرفين؟ لقد مررت بنفس التجربة

السنة الماضية. ولقد زودتني بالقوة لمواجهة اي شيء. غمامة صيف سوف تعبر، وستنتهي يا عزيزتي.

ربتت ليزا على رأس صديقتها تواسيها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. ثم جعلتها تأوي إلى سريرها، وجعلت من المقاعد سريراً تنام هي عليه. وكانت مرهقة فسارع النوم إليها.

أما ڤاسيا فلم تنم. تقلبت، استدارت، استوت جالسة، رقدت ثانية وقد أجهدها القلق والهواجس المتداخلة المضطربة التي عذبتها ومزقتها مزقاً. تراءت لها تلك الليلة الرهيبة حين اكتشفت بقع الدماء على السرير وحين جاؤوا ليعتقلوا ڤلاديمير. لكن ما يؤرقها ويستولي على كيانها لا يتعلق بالغيرة بقدر ما يتعلق بعدم ثقة ڤلاديمير بها.

ـ بوسعها أن تغفر له كل شيء إلا هذا. للقلب قوانين ذاتية خاصة به، إلا أنها عاجزة تماماً عن إدراك سبب عدم ثقته بها لدرجة حالت بينه وبين الاعتراف لها بأنه يحب أمرأة أخرى.

الأمر بسيط. كان يحيا وحيداً طيلة شهور. وبدأ لتوه يقيم علاقة غرامية. وهو رجل عاطفي في اية حال. تذكرت ستيشكا. افترضت أنه طارحها الحب مرة وانتهت العلاقة عند هذا الحد. لكن من الواضح أن هذه المرأة لن تتخلى عنه بهذه السهولة. قالت ليزا أنها تضغط عليه ـ إذن فهي عاجزة عن حبه، لا بد وأنها تستغله. وڤاسيا تعرف أن هذا الصنف من النساء مخادع ماكر. إنها لن تتخلى عن شخص مثل ڤلاديمير مهما رغب هو في قطع صلته بها.

تذكرت مرة أخرى كم كان كئيباً تعيساً في الفترة الأخيرة، وكيف كان متقلب الأطوار ـ فهو حميم متأجج العاطفة نحوها حيناً ثم فجأة يصير منعزلاً نائياً حيناً آخر دون سبب بيِّن. الآن أدركت كم كان يعاني. أي عذاب تعذب. أن يعيش مع الشخص الذي يحب بينما هذه المرأة القاسية تشحذُ

مخالبها خلف ظهره.

تذكرت ڤاسيا كيف كان ڤلاديمير ـ وفي أكثر من مناسبة ـ على وشك توسل الغفران منها ثم يعدل فجأة.. مثل ذلك الصباح عندما بدأت متاعبه مع الحمالين. لقد شعرت ڤاسيا بالقلق آنذاك. لكن ڤلاديمير انثنى عن الموضوع حين جعلت تسعل بقدرة قادر. هل عدل عن إعترافه بسبب من عطفه عليها؟ وإذا كان ذلك صحيحاً.. أتراه دليل على انه يحبها؟

ثم تذكرت ڤاسيا قطع الحرير الأزرق قطعتان متشابهتان للاثنتين، فأدركت أن لا شيء يدفع على الاعتقاد بأنه يحبها. كل ما كان يقوله هو: «خذي، هذه القطعة لك، لأنك زوجتي رغم أنك منفرة. لقد اشتريت لعشيقتي هدية، لكني لم أنسكِ. فخذي حريرك واصمتي».

اللعنة عليه. اللعنة عليه. كورت ڤاسيا قبضتيها، وقد غمرتها رغبة لا تؤجل بضرب ڤلاديمير. طوقتها سلاسل سموم الغيرة. وشعرت بأن التعاسة تخنقها.

راحة البال ضائعة فهي لا تجدها. هل مضى فعلاً الى ساڤيليڤ أمس؟ ولكنها سرعان ما تذكرت: ساڤيليڤ لا يحل ولا يربط. فهو ليس سوى عذر وغطاء اتخذه ڤلاديمير ليحول دون معرفة الناس لحقيقة ما يجري. لو كان ساڤيليڤ سبب كل شيء لما صفحت عنه أبداً. «إنني لا أبالي سواء غفرتي لي أم لم تغفري، فأنا ماض في هذا الطريق الذي يمت. موتي بحزنك، إنني أريد أن أفوز بكل ما يمكن أن أفوز به. ولن اضحي «بكيوبيك» واحد من أجلك، لأنك تنفريني.. لو داس مشاعرها هكذا في الأمس في سبيل عصابة المبتزين ومن أجل لعبة ورق سخيفة فإنها لن تغفر له ذلك أبداً.

لقد كانت حوادث الأمس وراء شقائها واكتئابها، وهي التي دفعتها الى الرحيل. لو كانت تعرف عند ذاك انه على علاقة بامرأة أخرى وانه يعاني من عذابات الحب لكتمت غيظها وثورتها. صحيح أنها قد تبكي وتكتئب لكنها ستتفهم.

قد تتفهم علاقته بالفتاة ولكن هل كانت لتغفر له؟ لقد غفرت له علاقته بستيشكا وكانت صديقته. أيعقل أن تصبح كلفة بالكلب «البودل» أيضاً، أو تغض النظر عن قطعة الحرير تلك نهائياً؟ ولكن ليس هذا الوقت وقت تفكير بهذه المسائل. الجوهري الآن هو: أيكون بوسعهما أن يعيشا معاً كصديقين حقيقيين. فلا يخبىء أحدهما شيئاً عن الآخر. في السابق كانا يلجان المعركة يداً بيد، لكن ها هما اليوم كل في طريق منفصل تماماً، ما الذي تبقى ليربطهما معاً؟ القلب؟ ولكن ماذا لو ابتعد ڤلاديمير بقلبه بعيداً عنها، ماذا يتبقى؟ لا شيء.

وليس من مصلح بينهما. لا شيء إلا الشقاء. لم يعرف أحد في هذا العالم شقاء مثل هذا الشقاء.

في صباح اليوم التالي، وما أن مضت ليزا إلى عملها حتى جاءت ماريا سيمينوڤا. يغطي وجهها وشاح مخرم. كان الطقس في هذا اليوم الصيفي حاراً، وكانت ماريا تلهث ووجهها محتقن. قالت:

- نهار سعيد يا ڤاسيليسا ديمنتيڤنا. إنني احمل رسالة من زوجك. امرني بأن استقل سيارة وآتيك بأسرع ما يمكن، ولكن اين يجد المرء سيارة اجرة هذه الأيام، أود أن أعرف؟ لقد انقطع نفسي.

كان المظروف مظروفاً حكومياً - فتحته ڤاسيا بأصابع خَدِرة تحركها بصعوبة. راحت تقرأ..

ڤاسيا. ماذا حدث؟ ما الذي تفعلينه بي؟ لماذا تعذبيني بهذه القسوة؟ هل ترغبين في نشر هذه الفضيحة في المنطقة كلها حتى يجد اعدائي ذخيرة جديدة يطلقونها علي؟ هل تنشدين تحطيمي كلياً؟ لقد قلت انك صديقتي. فكيف يسعك الوقوف إلى جانب أعدائي هكذا؟ إنك تمزقيني. لا يسعني أن أحيا هكذا أكثر. إن كان قرارك قد قر على انك ما عدت تحبيني فأخبريني بصراحة، ولكن لا تهاجميني من الخلف بهذه الطريقة. انت تعرفين أنني

احبك ـ قد يشاغب الناس علي، ولكن ليس ثمة أي شيء سوى حماقتي سريعة الزوال. أصغي إلي، لم أذهب إلى منزل ساڤيليف أمس ولكنني أقسم لك أنني لم أخنك حيث كنت. فحيثما كنت سيبقى قلبي معك. ما عدت احتمل. اتوسل اليك يا ڤاساي أن تشفقي علي وتعودي إلى البيت حتى أنظر إلى عينيك الرائعتين واعترف لك بالحقيقة كلها. إذا كنت صديقة حقيقية لي فإنني أعلم أنك ستأتين. وإن لم تأت فذلك يعني الوداع. صدقيني حين أقول لك أنني عاجز عن الحياة بدونك.

ڤولوديا ذو القلب المحطم.

قرأت ڤاسيا الرسالة مرتين وامتلأ قلبها ببهجة حلوة حتى أن الدموع انهمرت من عينيها. «زائلة» قال «احبك ولا أحب غيرك». وفجأة هاج ساكنها فدهمها غضب عارم. من الذي «مزق» الآخر؟ وهل هي التي يجب أن تشفق عليه؟ ولكن لماذا لا يشفق عليها هو ويكف عن تعذيبها؟ جفت دموعها وزمت شفتيها الشاحبتين. إذن يعتقد أنه تعيس. وهو الذي قضى الليلة بين ذراعي امرأة أخرى ومنحها قطعة من الحرير.

تبدد كل العطف عليه. أمس توسلته أن يبقى، كلماتها، عيناها، تتضرع لكنه دفعها وصرخ بتلك الاهانات «الرجالية» النمطية ـ ومضى.

وها هو الآن يكتب: «لا أحب إلا أنت». أي سخافة. إنه لا يحبها أبداً. ولنفترض أنه يحبها، فأي ضرب من الحب هذا، إهانات ونزاعات وقلق. بوسعها أن تستغني عن مثل هذا الحب. ثم لماذا كتب «وداعاً». فقط صدقيني حين أقول أنني عاجز عن الحياة بدونك» ماذا يعني بذلك؟ إنّه لا يعني أي شيء على الاطلاق، إنه يهدد تهديداً أجوف. مخططاً لإثارة شفقتها حتى تسعى إليه راكضة كالحمقاء. قرأت ڤاسيا رسالته للمرة الثالثة.

في هذه الأثناء جلست ماريا سيمينوڤا تمسح العرق عن وجهها اللامبالي الرائق وتهز منديلها طلباً للهواء. قالت:

ـ لقد عاد ڤلاديمير ايڤانوڤيتش ساعة غادرت المنزل. سألني إلى أين ذهبت فقلت وكيف لي أن أعرف؟ ثم سعى إلى مكتبه وجلس إلى أوراقه. ثم اتصل بايڤان ايڤانوڤيتش وسأله أن يأتي. فجلسا في غرفة المكتبة فترة. عند منتصف الليل جاء الى المطبخ وسألني إن كنت قد رجعت. وحين جاء جوابي سلباً انصرف مرة أخرى. بعد أن ودع ايڤان ايڤانوڤيتش قصد إلى غرفة النوم حيث وجد رسالتك. أعتقد ذلك لأنني سمعته ينتحب. كان يحطم نفسه حزناً كطفل. ثم راح يذرع الغرفة طوال الليل، ورفض أن يحتسي الشاي هذا الصباح ـ قال لي: «لا أرغب في أي شيء. اذهبي وابحثي عن ڤاساليسا ديمنتيڤنا واعثري عليها. طوفي بكل اصحابها حتى تجديها، ولا تعودي إلى البيت من دونها».

هذه الكلمات جعلت قلب ڤاسيا يؤلمها. إلا أن مشاعر المحبة القديمة التي كانت تكنها لڤلاديمير ما عادت سوى مصدر إزعاج يثير فيها مشاعر اليأس. إذن فقد قضى الليلة وحيداً، ينتظرها بشوق، ينتحب من أجلها، ويرسل في طلبها. شعرت بالشوق اليه وبالغيرة. من الواضح أن العلاقة بينهما لم تنكسر تماماً وأنهما مفعمين بالمشاعر العميقة المتبادلة. ولكن لماذا إطالة هذا العذاب؟ لماذا تعود فقط لتشرح وتتفهم وتمر ثانية بنفس التجارب المرة؟

سألت ماريا سيمونوڤا:

ـ ماذا فعل ڤلاديمير ايڤانوڤيتش حين انصرفت؟ هل سعى إلى المكتب؟

ـ حين انصرفت؟ اتصل بفتاته، ربما ليقول لها على الأغلب كم هو تعيس أو ربما كم هو سعيد. لا يمكن للمرء أن يعرف حقيقة تصرفات الرجال؟ إنهم لا يبالون ما داموا غير معرضين لفضيحة.

إذن فقد اتصل بصديقته هذا الصباح. بعد كتابة الرسالة اليها. لعل ليزا على حق. لعله فعلاً لا يرغب من التمسك بها سوى تجنب الفضيحة. لو لم تكن زوجته لتركها تنصرف دون أن يبالي. لقد أرسل في طلبها الآن

ليستبد بها مرة أخرى. لكنها ما عادت تحتمل. عليها أن تسيطر بطريقة أو بأخرى على قلبها الأحمق. فهي لن تعـود إليه، لن تمشي نحـو الفخ الـذي نصبه لها كالعمياء.

شعرت بالدوار.

- قولي لڤلاديمير ان لا جواب مني له. هذا كل شيء. والآن اذهبي بسرعة ارجوك. هيا.

غمغمت ماريا سيمينوڤا:

- ليس بوسعي أن أمضي بسرعة تفوق سرعة قدمي أليس كذلك؟ ثم أنك تتسرعين يا ڤاسيليسا ديمينتيڤنا. لو كنت مكانك لـفكرت وأطلت التفكير بالأمر. صحيح أنه أساء إليك، صحيح أنك زوجته، ولكنك أسأت اليه ايضاً. كان عليك أن لا تتركي زوجك الشاب هـذا وحيداً طـوال تلك الأشهـر. وانت تعرفـين انه زوج رائـع، إنـه يُعنى بـك. ألم يحضر لـك الكاكاو حين كنت مريضة؟ ألم يقل لي أن أشتري لك بيضاً طازجاً؟ إنه يُعنى بك أكثر مما تعتنين بنفسك. وما كان يرفض لك طلباً. أما بالنسبـة للمرأة الأخرى. . فإنني ارغب في أن أعرف أي رجل ليس مذنباً في هذا المضمار؟ أنت زوجته، أنت التي يحترم، أما الأخـرى فإنـه يجود بـالمال والهدايا فقط.

إن ماريا سيمينوڤا لا ولن تفهم. إنها لن تفهم أنـه إن لم يعد ڤـلاديمير صديقاً حقيقياً فإن ثقتها به سوف تتلاشى، وإذا كانت الثقة بينهما مبددة فإنهما سيعجزان عن العيش معاً.

- لماذا لا تنتظرين حتى هذا المساء يا ڤاسيليسا ديمينتيڤنا؟ بوسعي أن أذهب الآن وأخبر زوجك بأنك تفكرين في الأمر ملياً وأنك سترسلين له جواباً هذا المساء. ذلك اكـثر واقعية. وإلا إضـطررت إلى اخباره بـأنك قـررت ما قررت وأنت في عجلة من أمرك. إنك بصقت الكلمات بصقـاً وأشرت

علي بالإنصراف. حين يكون المرء متسخطاً هكذا فإنه يعمد إلى إرتكاب أخطاء يندم عليها طوال حياته. وعندها سيكون آسفاً حقاً.

ـ لا يا ماريا سيمينوڤانا، ارجوكِ لا تحاولي تغيير رأيي. إنني أعني ما أقول. لن أعود إليه أبداً. لقد انتهى كل شيء.

ارتعشت شفتاها، وانسكبت دموع كبيرة على وجنتيها.

ـ حسن، هذا راجع إليك. لقد نصحتك، والقرار قرارك.

إنصرفت ماريا سيمينوڤانا وودت ڤاسيا لو تعود مثل حيوان، لو تعوي عواءً طويلاً يسمعه الشارع كله. لقد انتهى كل شيء، ولن تعود اليه. الوداع يا ڤولوديا، الوداع ايها الحبيب. مدت ذراعيها الدقيقين إلى ڤولوديا وكلها شوق إليه بينما انهمرت الدموع على خديها الشاحبين. وضوء العقل البارد يقول لها طوال الوقت: «كفى، توقفي عن ذلك. لن تعودي إليه. انتهى كل شيء إنها النهاية» انتحبت طويلاً. ثم دفنت وجهها في وسادة ليزا ونامت وقد هدها الإعياء.

استيقظت على صوت صياح مرتفع وسمعت صوت سيارة تقترب من النافذة. من هذا؟ تطاول رأسها. لعل ڤلاديمير قد جاء ليراها. هرعت تفتح ستائر النافذة وقد امتلأت بالأمل والبهجة. لكنها رأت الصبي الساعي يقف بالباب.

قال وهو يلتقط أنفاسه:

ـ وقعت كارثة رهيبة يا ڤاسيليسا ديمينتيڤنا، لقد حاول ڤلاديمير ايڤانوڤيتش الانتحار. لقد تناول السم.

ـ ماذا قلت؟ ماذا قلت؟

اندفعت ڤاسيا نحوه، وقبضت على يده:

ـ هل مات؟

ـ لا، ليس بعد. انه لا يزال حياً، لكنه يهذي ويتوجع وجعاً عظيماً. إنه يناديك، لقد ارسلوني لأعود بك في السيارة.

هرعت ڤاسيا إلى السيارة كما هي دون أن تضع معطفاً. اسنانها تصطك وجسدها يرتعش. لقد قتلت حبيبها. دمرته، خذلته حين ناداها نداء من أعماق قلبه. اتسعت عيناها، ولاحت فيهما نظرة ذاهلة، لا من حزن بقدر ما هي من شيء كانت عاجزة عن السيطرة عليه كما الموت نفسه.

راح ڤاسيا ـ الساعي ـ الذي لم يلحظ تعابيرها يتحدث بدقة عن الذي جرى. كانت الدراما الجديدة قد أثارته. لقد ترك ڤلاديمير المكتب هذا الصباح، حيث بقي هناك ساعة ثم عاد إلى المنزل. فسعى إلى غرفة المكتبة. ورآه ڤاسيا الذي كان يمسح الأرض في الخارج يسعى إلى الخزانة حاملاً زجاجة تحتوي على مادة تستخدم في تجريب الألوان. بعد ذلك دلف ڤاسيا إلى الصالة وسمع أنيناً رهيباً. دلف إلى غرفة المكتبة فألفى ڤلاديمير ايڤانوڤيتش راقداً على الكنبة. عيناه منقلبتان الى أعلى، فمه فاغر وثمة رغوة على شفتيه. اعتقد ڤاسيا أنه ميت.

ثم دبت الفوضى. هرع ڤاسيا لاستدعاء الطبيب الذي كان يهم بتناول طعام العشاء. صرخ ڤاسيا:

ـ إسمع ثمة رجل يموت، ستجد وقتاً كافياً لتناول العشاء فيما بعد. ثم أرسل ڤاسيا إلى صيدلية بينما سارع إيڤان ايڤانوڤيتش إلى المنزل. وهذا يركض هنا وذاك يركض هناك. فقد عم الاضطراب.

حاولت ڤاسيا أن تصغي لما يقوله لكنها عجزت عن التركيز. شعرت في تلك اللحظة وكأنها لم تعد موجودة. بات ڤولوديا ومعاناته الحقيقة الوحيدة، وشعرت بنفسها تندمج فيه. إن لم ينج ڤولوديا فإن حياتها ايضاً سوف تنتهي، لن يبقى أمامها سوى الفراغ، أقفر من قبر.

- ٩ -

دلفت ڤاسيا إلى الصالة بينما كان ايڤان ايڤانوڤيتش يودع الطبيب. أوقفته:

- ألا يزال حياً؟

قال الطبيب:

- إننا نفعل كل ما بطاقتنا، لكننا لا نستطيع أن نجزم قبل الصباح.

سعت صوب غرفة النوم على رؤوس اصابعها. الأنين يرتفع. شعرت وقد غمرها الألم أنها هي ڤلاديمير وأن هذا الانين انينها.

كانت الغرفة غارقة في فوضى غير عادية. البساط ملتف على بعضه. السرير في موقع آخر - ولكن أين ڤولوديا؟ رأت شيئاً أبيض على الأريكة. وجهه رمادي، عيناه مغمضتان وأنينه توقف. أوه، لا، من المؤكد أنه لم يمت. هتفت:

- ڤولوديا، ڤولوديا.

التفت الطبيب نحوها ورمقها بنظرة مغضبة:

- هُش، أتوسل اليك.. لا تكوني هستيرية.. ارجوك.

كان يعالج ڤلاديمير تساعده ممرضة بمنديل ابيض. بدت على وجهها هيئة الجد والقسوة ومنعا ڤاسيا من الاقتراب منه. فتح ڤولوديا عينيه وجعل يتنفس باطراد. إنه حي يرزق!

همست ڤاسيا:

دكتور. أرجوك، أخبرني الحقيقة. هل هناك أمل؟

قال:

ـ ما دام القلب يعمل فثمة أمل.

تساءلت ما معنى هذا «ما دام القلب يعمل»؟ وماذا لو توقف. لكنها لم تجرؤ على سؤال الطبيب مرة ثانية. كان يرفع رأس ڤلاديمير بمساعدة الممرضة ويسكبان شيئاً في فمه. بدأ يئن مرة ثانية. أنيناً متشنجاً حيوانياً. وما زالت ڤاسيا تسمع هذا الأنين وهي في حالة من الخدر والذهول حتى بهظها حملها فلم تقو على تحمل المزيد.

خيم الليل فأشعل الضوء في غرفة النوم. أقبل المزيد من الأطباء. وبعد التشاور أرسلوا الساعي إلى دائرة الصحة كي يحصل على إذن لإحضار دواء خاص. لم يسمحوا لڤاسيا أن تجلس إلى ڤلاديمير الذي كف عن مناداتها. وكان يغمى عليه تارة ثم يرسل هذا الأنين المعذب تارة أخرى. وبدا لڤاسيا أن الحياة تخرج من جسده مع هذا الأنين المرسل. وخيل اليها أن روحه تنازع الجسد، والجسد متشبث بالروح لا يخلي سبيلها. شعرت بأنها عديمة الجدوى، فالطبيب يبعدها وهي عاجزة تماماً.

ثم خطرت لها فكرة ملحة استولت على بالها استيلاءً. لا شك في ان شائعات محاولة الانتحار هذه قد بدأت تنتشر. سيقول الناس: «تصوروا شيوعي ويحاول قتل نفسه بهذه الطريقة! ترى لماذا أقدم على ارتكاب مثل هذا الفعل. عندها تنتشر القصة كلها. عليها أن تفكر بعذر مقبول منذ الآن.

فكرت بسرعة ـ لقد أكل فطراً مسموماً. نعم، تناول الفطر على الغداء، وها هو الآن في حالة الخطر. تذكرت أن ذلك حدث مرة حين كانت تقيم مع جدتها في الريف. فقد جاء خياط من البلدة ليقيم مع شقيقه

وقد قطف بعض الفطر المسمم. طبخه فأكله ثم توفي.

قامت ڤاسيا باتصالات متعددة. اتصلت أولاً بميخائيلو باڤلوڤيتش وقالت له أنها ستشرح له الأمر بالتفصيل حين تراه، لكنها تريد الآن أن تنبئه بالكارثة الرهيبة. لقد تناول ڤلاديمير ايڤانوڤيتش فطراً مسموماً وأنه الآن على وشك الموت. ثم اتصلت بالرئيس وببعض الأصدقاء. ثم نبهت إيڤان ايڤانوڤيتش طالبة منه أن يروي نفس القصة للمديرين والموظفين.

وأمضت فترة طويلة وهي تلقن ماريا سيمينوڤا وڤاسيا الصبي الساعي ما ينبغي أن يُقال. كان الساعي صبياً ماكراً وكان يعرف الحقيقة. هز منكبيه ونفخ ثم وافق على رواية هذه القصة. أي إضطراب! ولكن الأمر عنده سيان. فليكن الفطر المسمم هو السبب.

إلا أن ماريا سيمينوڤنا شبكت ذراعيها على بطنها، زمت شفتيها ورفضت هذا المبرر. إذ وقع في نفسها موقعاً جارحاً قالت معترضة:

- كيف يمكن للمرء أن يتسمم هكذا بواسطة الفطر. سوف يشك الناس بي إذ أنني المسؤولة عن الطبخ.

لكن ڤاسيا ألحت قائلة أنها أخبرت الجميع بهذه القصة الملفقة.

- كما تريدين. لكنها قصة سخيفة. لو فكرت بأي سبب آخر لكان ذلك أفضل. ومن تراه يطبخ فطراً مسموماً إلا مجنون.

غادرت ڤاسيا المطبخ. بينما ظلت ماريا سيمينوڤا ثائرة مرتبكة وراحت تحرك الطعام بغضب. «إنهم يخلقون الفضيحة تلو الفضيحة، إضطراباً تلو اضطراب، وها هم يريدونني أنا أن أتحمل اللوم، انهم يتكتمون، حتى أن الشيطان نفسه لا يجرؤ على ما يجرؤون.. وها هم يطالبونني بتسوية ما أفسدوا نيابة عنهم. سوف يوجه الناس اصابع الاتهام إلي. وكأنني لا أميز بين الفطر المسموم من الفطر غير المسموم. وكأنني قد أضع فعلاً فطراً

مسموماً في صحنه. منذ عشرين سنة وأنا أعمل طاهية، ولست طاهية عادية، ولا خادمة. حتى أنني أملك اكثر من شهادة توصية وحسن سلوك. زوجة الجنرال غولولبوف نفسها ـ وهي سيدة ذات شأن ـ ما كانت تناديني إلا ماريا سيمينوڤنا. ثم هناك آل بوكاتيلوف وقد كانوا من أصحاب الملايين، لقد منحوني في عيد الميلاد مرة ساعة ذهبية وسلسلة استحساناً منهم للصلصات التي كنت أعدها. وها أنا آتي إلى هنا.. فماذا ألقى؟ «ماريا سيمينوڤنا تضع فطراً مسموماً في طعام المدير» ما كنت احسب أنني سأعيش لأرى يوماً أهان فيه هكذا. وأنا التي خدمته بكل طاقتي. ولطالما أسفت لحال ڤاسيليسا ايضاً. لقد تكتمت والتزمت الصمت أكثر من مرة بشأن زوجها في حضورها.. وهذا كل ما ألقاه من إمتنان. أية فضيحة هذه؟ ويقولون رغم ذلك أنهم شيوعيون.

قاطعها الساعي قائلاً بلا مبالاة وهو يحرك الشوربة باستمتاع:

ـ ما بالك ثائرة غاضبة؟ وكأن ما نرويه للناس يحمل أية أهمية! إنهم لن يتمكنوا من التكتم على هذه القصة في أية حال. عليك أن لا تعرضي نفسك للوم. لقد اختلقوا قصة الفطر هذه ليتجنبوا الفضيحة. في أية حال هذه القصة تروق لي. فهي رواية متقنة تراجيدية تماماً كما في السينما. إنها كوميديا حقيقية.

ـ لعلك تجدها كوميدية أيها الصبي الأحمق، لكن ثمة رجل يحتضر وكل ما يسعلك أن تقوله هو أن الأمر مضحك. ماذا حل بكم جميعاً؟ لم يعد ثمة من يحترم الحياة الآن، إنهم يطلقون النار ويقتلون المرء هذه الأيام لمجرد أنه ارتكب إثماً تافهاً. بانغ.. هكذا. ما عاد المرء يحتفل حتى بحياته هو. سجل علي ما أقول. السبب كله عائد إلى أنكم تخليتم عن الله.

قال ڤاسيا بنفاذ صبر:

ـ لا تبدئي بإدارة هذه الأسطوانة مرة أخرى. صحيح أني لست شيوعياً، إلا أنني لا أؤمن بالله.

ـ وهذا شيء منكر أيها الشاب إن كنت تريد معرفة رأيي. وبالمناسبة. . لماذا تتسكع هنا مدلياً لسانك الأبله بدلاً من أن تنجز أعمالك؟ بوسعك أن تساعدني في تنظيف الصحون. آه من هؤلاء الأطباء المتشيطنين. أنظر إلى كل هذه الصحون التي استعملوا. إنهم لا يكفون عن طلب الشاي والمشروبات المنعشة، لكن كل هذا لا يفيد، إنهم عاجزون عن فعل أي شيء. لن يحصل إلا ما قدره الله. قلت ذلك لتلك الفاجرة التي تنتظر أرسلتها عشيقة ڤلاديمير ايڤانوڤيتش. كنت أقدم طعام العشاء للأطباء حين تسللت من المدخل الخلفي، تهفهف تنورتها وتخشخش مريلتها. كانت تضع عقدة مثل فراشة بيضاء مربوطة حول رأسها قالت: «سيدتي أرسلتني لأسأل عن حال ڤلاديمير ايڤانوڤيتش الصحية.

فقلت:

ـ قد يلقى وجه ربه في أي لحظة، فالله يعاقب كل واحد منا على خطاياه وبوسعك أن تقولي لسيدتك الفاجرة الوقحة التي تخدمين أنه من الأفضل لها أن تسعى إلى الكنيسة لتتوب. لأنها هي ولا أحد غيرها مسؤولة عن دمار هذا الرجل وحق السماء.

قد تكون ماريا سيمينوڤا صموتة أمام ڤاسيليسا، لكنها لا تكف عن الكلام إذا ما وجدت من يصغي.

في الأيام التالية ازدحم البيت بزملاء ڤلاديمير الذين أقبلوا ليعودوه وغص المنزل أيضاً بالأطباء الذين كانوا يتشاورون في حالته. جاءت ليزا ولازمت ڤاسيا ليلة تلو أخرى حتى تحول دونها والتشكي المعذب من حالة ڤولوديا. وكانت تشعر أن اللوم يقع عليها بسبب اذكاء عداء ڤاسيا لڤلاديمير، وكان شعوراً لا يطاق.

إلا أن ڤاسيا قالت لها مؤكدة:

ـ ولكنك لست السبب يا ليزا. أنا التي أطلقت عنان العداء نحوه. ولم أدرك أنه أغلى الناس إلى قلبي إلا حين شعرت أنه قد يفارق الحياة. كيف لي أن أعيش بدونه الآن... وأنا التي كنت سبب كل هذا؟

في صباح اليوم التالي كان الصمت يخيم على المنزل. وكانت ڤاسيا تجلس على الفراش قرب ڤلاديمير وحيدة ورأسها على ذراعه. تساءلت ماذا يا ترى يحصل إذا مات ڤلاديمير تاركاً إياها بلا هدف تحيا من أجله؟ ما الذي سيعنيه لها الحزب أو الثورة؟ الحزب يحتاج إلى أناس لا تثقل الجرائم ضمائرهم. ولكنها ستظل تعيش كابوس معرفة إنها قاتلة ڤلاديمير. لا لشيء إلا الغيرة النسائية.

لو كان ڤولوديا متورطاً بالسر في صفقات غير شرعية مع ساڤيليف وأصحابه من المحتالين على حساب الوطن لكان تصرفها مبرراً، لكن واقع الأمر إنها دفعت صديقها إلى الانتحار لمجرد كونه على علاقة بامرأة أخرى. وقد أثبت أنه صديق حساس. وهي كانت تعتقد أنه أقلع عن حبها. ولكن أنى لها أن تفكر أنه قد يذهب هذا المذهب ويحاول الانتحار من أجلها؟ لا بد وأنه شعر أن الحياة بدونها قفراء بلا بهجة ولا فرح. ورغم تعاستها فإن هذه الحقيقة جعلتها ترغب في البكاء لا من مرارة ولكن من ندم رفيق.

رنت إلى ڤولوديا وهمست برقة:

ـ هل ستسامحني يا حبيبي؟ هل ستغفر لي أيها الغالي؟

حدق ڤلاديمير وهو يهز رأسه باضطراب غمغم:

ـ ماء، ماء.

ـ خذ يا حبيبي، إشرب.

ورفعت رأسه من على الوسادة بعناية كما علمتها الممرضة وساعدته

على احتساء الماء. فتح عينيه ونظر إليها كما لو أنه لا يبصرها. سألته وهي تميل نحوه:

هل تشعر بتحسن يا ڤولوديتشكا.

طرفت عيناه لكنه لم يتكلم. ثم سأل بصوت ضعيف:

ـ هل ايڤان ايڤانوڤيتش هنا؟

ـ لا، ذهب إلى منزله. لماذا، هل تحتاج إليه؟

هز رأسه بالايجاب. قال:

ـ اتصلي به وأشيري عليه بأن يأتي إلى هنا.

قالت برقة:

ـ لكن الطبيب أشار عليك بالراحة وعدم العمل.

لاحظت ملامح نفاذ صبر ومعاناة على وجهه.

ـ أرجوك لا تناكديني الآن. اتصلي به..

وأغمض عينيه مرة أخرى.

أجفل قلب ڤاسيا. لماذا قال «لا تناكديني الآن»؟ إذن فهو لم يغفر لها إنها سبب معاناته هذه. اتصلت بإيڤان ايڤانوڤيتش ببلادة وحين وصل طلب منها ڤلاديمير أن تغادر الغرفة لأنه يرغب في أن يختلي به.

غادرت ڤاسيا الغرفة وسعت إلى الحديقة.

لم تضمها الشمس كما فعلت في ذلك الربيع. كانت ملتهبة حتى أنها حرقت رأسها وكتفيها وذراعيها. وكان ثمة أزهار قرمزية متفتحة وكانت الأضاليا مزهرة. الحديقة نامية بجموح، حيث الشجيرات المزهرة ذات الرحيق تتماوج مع الليلك المزركش باللبلاب. وفي هذا القيظ كان للسماء لون النحاس المصهور. راحت ڤاسيا تذرع الممرات الملتهبة. لن يغفر ڤلاديمير لها أبداً. لو عادت له في ذلك الصباح حين أرسل في طلبها لما

حدث ما حدث. لكنها الآن فقدته إلى الأبد. لم تفقد زوجها وحبيبها وحسب ولكن أعز أصدقائها أيضاً. لن يثق بها بعد اليوم أبداً. ولن يلتمس مساعدتها بعد.

استندت ڤاسيا إلى شجرة أقاقيا ـ الشجرة نفسها التي أزهرت ذلك الربيع وأرسلت رائحة عذبة ـ وأغمضت عينيها. ليتها تسمم نفسها. ليتها تموت..

ترامى إلى مسمعها صوت ايڤان ايڤانوڤيتش:

ـ ڤاسيليسا ديمينتيڤنا، ڤلاديمير يناديك.

أدار محرك سيارته وانطلق. تساءلت ڤاسيا: ترى إلى أين يذهب؟ ربما إلى صديقة ڤلاديمير حاملاً رسالة منه. لكنها ما كانت لتبالي فقد قضي الأمر. كانت شمس الصيف حارقة ملتهبة. وكانت الستائر المعدنية في الداخل مسدلة وڤلاديمير يغفو. جثت ڤاسيا عند مقدمة السرير وطردت الذباب. فكرت: دعوه ينام مرتاحاً لقد تألم بما فيه الكفاية.

كانت ماريا سيمينوڤا قد ذهبت لتتسوق، أما ڤاسيا الساعي فقد ذهب هو الآخر إلى مكان ما، فبقي ڤلاديمير وڤاسيا وحيدين. شعرت بالسعادة لبقائهما وحيدين هكذا إذ أنها شعرت للمرة الأولى أنه لها لا لغيرها. وتأملته وهو يرقد هناك عاجزاً ضعيفاً وتمنت لو يتفهمها لو يرى إلى قلبها ويحس بأية عاطفة جياشة تحبه. لو يعرف كم أن التماس حبه قاس وعسير خاصة حين يكون صموتاً متجهماً معها، وحين يتجاهلها. حتى إنها إذا رتبت وسائده بطريقة لا تعجبه سارع إلى القول بامتعاض:

ـ أنت مزعجة مثل الممرضة. أليس بوسعك أن ترتبيها بطريقة صحيحة.

طبعاً هذا منتظر ومتوقع من مريض، إلا أنها رغم ذلك تتمنى لو يكف عن معاملتها بهذه الطريقة.

أمن الممكن أن لا يغفر لها أبداً؟ وأن تستمر حياتها باردة نائية؟ تأملت وجه ڤلاديمير الأليف اللطيف ورموشه الرائعة التي أحبتها منذ أن وقع بصرها عليها. أما هو فقد أحب ضفيرتها. لكنها ما عادت تضفر شعرها، وكأن ضفيرتها جزء من قصة خرافية. لقد سحرت حبيبها بضفيرتها ولما قصتها هجرها الحبيب.

كم كانا يحبان بعضهما في ١٩١٧. وبعدها أيضاً: تذكرت تلك الليلة التي جرى فيها الهجوم الأبيض حيث ذهبا لاعتقال المتآمرين. قال لها:

ـ قد يقتلوني يا ڤاسيا، ولكن عليك أن تعديني أن لا يمنعك ذلك عن القيام بما ينبغي القيام به. سوف يتاح لك في المستقبل متسع من الوقت للبكاء.

أجابت:

ـ كذلك بالنسبة لك يا ڤولوديا، لنعاهد أنفسنا بمواصلة المسيرة مهما حدث.

احتبكت يداهما وتبادلا نظرات ذات مغزى ثم انطلقا لا يلويان على شيء. كانت ليلة باردة والصقيع يجلل الأشياء، وكانت خطواتهما تنسحق في الثلج الصلد.

انهمرت دموع الحنين على خديها لدى استحضارها ذكريات الماضي السعيدة. حتى الآن لم تذرف دمعة على هذه الكارثة، لقد حاولت جهدها أن تتخذ هيئة الصابر متناسبة مشاعرها الشخصية، لكنها الآن تبكي الأيام القديمة.

ـ لماذا يا ڤاسيا، ما الأمر؟

قال ڤولوديا وهو يرفع رأسه عن الوسادة ويرنو إليها ـ لا بعيني الغريب الباردتين ـ ولكن بنظرته المحبة القديمة. مفعمة بالحب والحزن.

ـ ما الأمر يا ڤاسيك، لماذا تبكين يا حبيبتي المسكينة؟

حطت يده برفق على شعرها الجعدي.

ـ ڤولوديا يا أيها الغالي، هلا غفرت لي ما فعلت؟

ـ هراء، وهل فعلت ما يستحق الغفران؟ أرجوك كفي عن البكاء هكذا وسوف نتحدث في الأمر. تعالي واجلسي هنا بقربي. عظيم حديثنا سيهون الأمر على كلينا أليس كذلك يا ڤاسيا؟

ـ ولكني أخشى أن يسبب لك حديثنا حول الموضوع الازعاج يا حبيبي. لنؤجل الأمر إلى يوم آخر.

ـ لا، لن يكون بوسعنا أن نقول ما نريد أن نقول فيها بعد. إن الحديث حول الموضوع يريحني. لقد كنت أتعذب يا ڤاسيا، ولهذا حاولت وضع حد لحياتي، ورغم أنني الآن أملك إرادة راغبة في الحياة مرة أخرى، إلا أنني لا أكاد أرى مخرجاً يا ڤاسيا.

ـ ولكني على يقين يا ڤولوديا من أننا سنجد حلاً. لا يسعني أن أصدق أنني بت نائية عنك إلى درجة تحول دون استمرارنا معاً.

ـ إذن فأنت قد عرفت كل شيء يا ڤاسيا.

هزت رأسها بالايجاب:

ـ نعم، عرفت كل شيء.

ـ وأدركت لماذا كنت كئيباً وقلقاً إلى هذه الدرجة، وكنت أنت تنتقدين طوال الوقت فلا تتركين صغيرة ولا أمراً سخيفاً إلا وتتشكين منه. ورحت تتذمرين من سافيليڤ...

ـ نعم يا ڤولوديا، أعرف.

ـ وثمة موضوع آخر أخطأت فيه أيضاً. ظننت أني أحبها، إلا أنني لم أحبها أبداً يا ڤاسيا. إنما أحبك أنت يا ملاكي الحارس، يا أعز وأخلص

أصدقائي. أما هي فشيء مختلف تماماً، سمي هذه الحالة افتتان إن شئت، أي نعت إلا الحب. ولقد استولت عليك الغيرة منها، وكنت مستريبة طوال الوقت وتجسست علي.

قالت ڤاسيا معترضة:

ـ لكني لم أفعل هذا أبداً يا ڤولوديا.

ـ ماذا تعنين؟ ألا تذكرين حادثة قطعة الحرير؟ ألا تذكرين كيف أزعجتني ازعاجاً متواصلاً وأنت تتسائلين عن مصدر رائحة العطر التي تفوح مني أو عن المكان الذي يقيم به ساڤيليڤ؟كنت تبحثين دائماً عن اثباتات قاطعة تؤيد شكوكك.

ـ صحيح، لكني لم أتجسس عليك يا ڤولوديا، هذا ليس صحيحاً. لقد دفعتني مخاوفي إلى الجنون. وجهدت في مغالبة هذه المخاوف حرصاً على ثقتي بك.

ـ إلى جانب مخاوفك كنت غيورة، اعترفي بذلك. لم تبوحي بذلك مباشرة، لكن اضطهادك لي جعل الحياة لا تطاق. ماذا أقول بعد؟ المسؤولية تقع علينا نحن الاثنين:

لاذا بالصمت. ثم سألته ڤاسيا بصوت قاتم معذب:

ـ هل ستظل حياتنا هكذا دائماً يا ڤولوديا؟

ـ لست أدري يا ڤاسيا، لا أعرف ماذا يسعنا أن نفعل. أشعر بالعجز.

ران الصمت مرة أخرى.

قالت ڤاسيا أخيراً:

ـ هل تعتقد أنك قد تكون أسعد حالاً معها يا ڤولوديا؟

ودهشت لأنها سألت ما سألت بيسر ودون ألم.

ـ أوه يـا ڤاسيـا، لمـاذا لا تثقي بي؟ كنت عـلى استعـداد لقتـل نفسي حـين أدركت أنني فقـدتك. أليس في هـذا دليـل كـاف عـلى أنني لا أحب إلا أنت.

صـوته وعينـاه يشيان بـالعتاب. وبـدأ قلب ڤاسيـا يـرتعش وومضت عيناها البنيتان بسعادة مفاجئة.

ـ ڤولوديا يا حبيبي، يا زوجي.

ضمت جسدها إلى جسده وطوقت عنقه بذراعيهـا والتمست شفتاهـا شفتيه.

ـ لا يا ڤاسيا، ليس الآن، إهـدئي يا ڤاسيك كما ترين إنني لا أزال ضعيفاً عاجزاً عن تقبيلك.

ابتسم ومسد شعرها، لكن ملامحه وشت بحزن عميق. بـدا وكأن لا مجال لتخطي الحاجز الذي يفصل بينهما، وسياج الاغتراب بينهما مسدود.

- ١٠ -

عاد ڤلاديمير إلى عمله. في ذلك الصباح بعد أن مضى إلى المكتب، لم يكن بوسع ڤاسيا مداراة فرحها بعودة حريتها. فسعت من فورها إلى اللجنة الحزبية. ومن هناك عزمت على المضي إلى مصنع الحصائر حيث تنتظر ليزا مساعدتها بالإعداد لمؤتمر النقابة.

كانت ڤاسيا تتبسم وهي تسعى في سرعة إلى اللجنة. شعرت وكأنها كانت حبيسة قفص فأطلق سراحها فجأة. وغمرها شعور بأنها متصالحة مع العالم. منذ مدة طويلة لم تر أصدقاءها، ومن الواضح أنهم افتقدوها. إذ إنهم يقدرونها ويحترمون كفاءتها وعملها من أجل حل مشاكل الآخرين وهدوئها.

أسندوا إليها مهمة التعليق على حواشي النصوص وإعداد المواد والخطابات. مر الوقت بسرعة. وإذا بعقرب الساعة يشير إلى الثامنة. لا شك في أن ڤلاديمير سيتعب من انتظارها، وهي تخشى أن لا يتناول من الطعام ما أشار عليه الطبيب بتناوله خاصة وأنها ليست هناك.

تمشت عائدة بصحبة ليزا وناقشتا أنباء حملها لهما صديق أقبل من موسكو. ثمة أشياء كثيرة تحدث في الحزب وتثير ذهولهما. لم تتفق ليزا مع الخط الحزبي الجديد. وتشيعت لعمال المصنع الذين كانوا يختارون مرشحيهم هم لمؤتمر الحزب، وهذا يعني صراعات جديدة مع الرئيس.

شعرت ڤاسيا بأنها تغبط ليزا، إذ رغم اختلافها إلى المصنع فإنها تحس أنها لا تزال غير فعالة. بدأت تشعر أنها لا تلعب الدور المطلوب وإنها ليست سوى عابر سبيل.

علقت ليزا قائلة:

ـ سبب هذا الشعور يعود إلى كونك تحولت إلى زوجة مدير. سوف تستعيدين فعاليتك لو تستردين حريتك.

تنهدت ڤاسيا. ليست بحاجة إلى من يذكرها بذلك. لكن هذا ليس أوان التفكير بمثل هذه الأمور. سوف تترك ڤلاديمير حالما يسترد عافيته وتعود إلى بلدتها الأصلية.

قالت ليزا:

ـ لا لن تفعلي ذلك. أنت متعلقة ومقيدة بڤلاديمير ايڤانوڤيتش كلياً.. أنت لست في حقيقة الأمر سوى زوجة صغيرة متواضعة خنوعة.

لاذت ڤاسيا بالصمت. وماذا تقول؟ إنها تعرف جيداً أن ليزا على حق، ولكن لا يسعها أن تتشكى بعد كل الذي حصل. ڤولوديا حي يرزق وقد تخلص من الألم وهذا ما يهمها الآن.

حين عادت إلى المنزل لم تجد ڤولوديا. سألت ماريا سيمنوڤنا:

ـ أين ڤلاديمير ايڤانوڤيتش؟ ألم يعد إلى البيت بعد؟

قالت ماريا سيمينوڤا:

ـ نعم، لقد عاد في الساعة الثالثة وانتظرك. انتظر وانتظر، ثم تناول الطعام مع ايڤان ايڤانوڤيتش، ثم ذهب كليهما في السيارة. آه... وهناك رسالة لك على الطاولة.

تناولت ڤاسيا الرسالة وراحت تقرأ:

عزيزتي ڤاسيا:

لقد اتفقنا على أن لا نخفي أسرارنا عن بعضنا البعض منذ الآن وقلت أنك دائماً ستتفهمين. من الضروري أن أمضي إليها الليلة. سوف أنبئك بالأسباب لاحقاً وأعرف أنك ستتفهمين. أرجو أن تتذكري أننا اتفقنا على ذلك فلا تتضايقي.

مع حبي، ڤولوديا.

سقطت يداها على جنبيها. ها هو يعود إليها مرة أخرى. لم يتغير أي شيء. ولكن لماذا تصورت أن الوضع سيتغير؟ فهي تعرف أن ايڤان ايڤانوڤيتش لعب دور الوسيط بين ڤولوديا والمرأة، أما ڤولوديا فقد قام بما طلبته هي منه فاعترف لها بالحقيقة بكل شرف. فلماذا إذن ثار العذاب القديم مرة أخرى، لماذا غمرها الغضب كما لو كان يخدعها؟

كانت ماريا سيمينوڤا تعد المائدة. سألت وهي ترمق ڤاسيا بنظرة إنكار:

ـ هل ستأكلين شيئاً؟ أم أنك ستعودين إلى مزاولة أحابيلك القديمة، لا أدري، في البداية يتأبى أحدكما تناول الطعام ثم ينضم إليه الآخر، ولا تفكران أبداً بالطبخ. ثم مزيداً من المشاجرات والدموع إلى أن تنتهيا بدفع بعضكما إلى القبر. بوسعك أن تفعلي ما تشائين يا ڤاسيليسا ديمينتوڤنا، بوسعك أن تغضبي مني، لكني سأقول لك الحقيقة. أنت لست بزوجة خليقة بڤلاديمير ايڤانوڤيتش. انظري إلى نفسك، تتآكلين داخلياً من جراء قراءتك رسالته، وتنتحبين لمجرد أنه مضى ليرى عشيقته. إنني أرى أنك سبب كل هذا. فالرجل ما كاد ينهض من سرير الموت بعد أن سمم نفسه بسببك. وما إن يخرج من هنا حتى تهربين. طبعاً لو كان لديك وظيفة تختلفين إليها لكانت المسألة مختلفة ولذهبت إلى عملك. ولكن لا، كل ما تفعلينه هو المشاركة في اجتماعاتك التي

تحاولين من خلالها توعية مجموعة من النسوة الغبيات. ولو سألتيني رأيي لقلت لك أنه الأجدر بك أن تنظمي أوضاع بيتك قبل أن تعلمي الآخرين، وبوسعي أن أقول لك إنني أخجل من كوني خادمة لك. هذا ليس ببيت، إنه ليس سوى زقاق من أزقة الفقراء.

قالت ماريا سيمينوڤنا كل ذلك وانصرفت إلى المطبخ صافقة الباب خلفها.

عادت تطل بعد لحظات وقد هدأت ثورتها حاملة عجة بيض وكوب كوكا لڤاسياً.

ـ هاك يا عزيزتي ڤاسيليسا ديمينتوڤنا، تناولي هذا وكفي عن تمزيق بالك بالتفكير.

جلست إلى الطاولة قرب ڤاسيا وراحت تستحضر ذكريات حوادث مشابهة وقعت في منزل زوجة الجنرال غولولوبوف الأخيرة، إلا أن هذه الأحداث تدور حول المربية الفرنسية. وبعد أن انطوت صفحة تلك الحوادث عاد الجنرال وزوجته يعيشان بسلام ووئام إلى أن ماتت الزوجة.

كانت ڤاسيا تستقبل ثرثرة ماريا سيمينوڤنا بأذن نصف مسدودة. إلا أنها لم تقاطعها إذ أنهما تحولتا إلى صديقتين أثناء مرض ڤلاديمير. كانت ماريا سيمينوڤنا تتألم من أجل ڤاسيا، وشاركتها تضايقها من الأطباء والأخصائيين وزملاء ڤلاديمير ـ كلهم بورجوازيون.

وهكذا كانت ڤاسيا مضطرة إلى الإصغاء لحكايات ماريا سيمينوڤا التي لا تنتهي عن آل بوكاتيلوف ذوي الملايين وكيف أن زوجة الجنرال الأخيرة كانت شغفة بها... على الرغم من طبعها الحاد كانت ماريا سيمينوڤا طيبة. ولكن ڤاسيا تتمنى لو تُترك وحيدة فتفكر وتتدبر. أخيراً قالت:

ـ أشكرك يا ماريا سيمينوڤنا على هذه الوجبة. علي أن أسعى لترتيب أوراقي الآن.

ـ أهذا كل ما ستأكلين؟ ما كنت لأطهو كل هذا لو عرفت. سوف ينال الوهن منك يا ڤاسيا إن بقيت هكذا. إن عشيقة ڤلاديمير ايڤانوڤيتش لا تساوي كوبكاً واحداً. إنها لا تساوي إصبعك الصغير.

هذا ما قالته ليزا بالضبط. سألتها ڤاسيا:

ـ لماذا، ما الذي يجعلك مقتنعة بذلك يا ماريا سيميئونوڤنا؟ الجميع يتحدث عن جمالها.

ـ وما علاقة منظرها بذلك؟ إنها تتغندر وتطلي نفسها بالمساحيق مثل مهرج. وثمة هاجس واحد يستولي على عقلها: أناقة متكلفة وكيف تعتصر الرجال إلى أقصى حدود.

ـ هل تعرفينها إذن؟ هل رأيتها؟

ـ أوه، أنت تتوقين إلى معرفتها! لقد باتت هنا عدة ليال قبل أن تأتي. إنها امرأة متكلفة، كان علي أن أسخن لها الماء في الليل وهي لا تكف عن إصدار الأوامر: «أعطني هذا، احضري ذاك» تتكلف دور سيدة محترمة، تزعم أنها من أصول ارستقراطية. كذب. الارستقراطيون الحقيقيون ليسوا من أمثالها، إنهم مهذبون دائماً ويقولون للخدم «من فضلك» و «شكراً». أما هذه الساقطة فهي لا تكف عن إصدار الأوامر: «ناولني هذا، افعل ذاك، خذ ذلك». لا أعرف. . .

قاطعتها ڤاسيا قائلة:

ـ ما اسمها؟

ـ نينا كونستانتينوڤنا. ولها لقب غريب لا أذكره، ولكن سكان البلدة ينادونها نينا كونستانتينوڤنا.

قالت ڤاسيا وهي تقلب رسالة ڤولوديا في يديها:

ـ أود لو أراها ولو مرة واحدة.

قالت ماريا سيمينوڤنا:

ـ هـذا ليس بالأمـر العسير. إنها تتمشى في الحـديقة العـامة في الأيـام التي تُعزف فيها الموسيقى على المنصة. بوسعنا أن نذهب غـداً، وبوسعـك أن تبصـري أميرتنـا بعينيـك. إنها من ذلـك الصنف من النسـاء اللواتي كن يجبن شوارع موسكو ويتسكعن فيها.. صدقيني.

ـ إذن هي تذهب لسماع الموسيقى. فلنذهب إذاً يا ماريا سيمينوڤنا. لعلي أشعر بالراحة إذا ما وقع عليها بصري.

هزت ماريا سيمينوڤا رأسها كـالمترددة، إلا أنَّها لم تعـارض ڤاسيـا. إذ أنها تتطلع إلى رؤية المواجهة بين المتنافستين.

غادرت ڤاسيا الغرفة وراحت تذرع المنـزل المقفر المعتم. العتمـة تبث السكينة في بالها القلق. كل شيء بدا جيداً ذلك الصباح. تحسن ڤـولوديـا ومضى إلى العمل. وڤاسيا عادت إلى عملهـا ثانيـة وعزمت عـلى العودة إلى مسقط رأسهـا. فقد قـر قرارهـا عـلى أنها لا تـرغب في أن تكـون «زوجـة مدير». لقد شعرت بالسكينة منذ تحادثت هي وڤلاديمير بصراحة.

ورغم كل ذلك ها هي مرة أخرى تشعر بالاضطراب والحيرة. لماذا يستولي عليها هاجس الغيرة رغم أن ڤلاديمير قد حافظ من جهته على الاتفاق، وانبأها بالحقيقة كصديق؟ لماذا تشعر بكل هذه التعاسة؟ لا بد أن خطيئتها تكمن في أنها تريد الكثير. ما كان عليها أن تحسب أن ڤلاديمير سوف يعود إليها ويقطع علاقته مع الأخرى بسهولة. لفتها تعاستها ومهما قالت لنفسها فقد أدركت أنها لا تزال تتأمل يائسة أنه سيفعل ذلك.

المشكلة تعيـد نفسها. هـا هو ڤـلاديمير يقضي المساء مرة أخـرى مع امرأة أخرى تاركاً ڤاسيا وحيدة في المنزل. ألم يتبق لديه أية مشاعر نحوها؟ ليست تـدري أنه كـان يحبها أو يحب عشيقتـه الجميلة. قد يقـول أنه يحب

قاسيا الآن، لكن أفعاله تناقض كلماته، وكآبتها تزداد إلى حد لم تعد تطيقه.

من الأفضل أن تقبل حقيقة كونه لا يحبها... فترحل. ولكن كيف يمكنها أن ترحل عنه؟ قد تدرك بعد فوات الأوان أنها ارتكبت غلطة مرة أخرى. وقد يحاول الانتحار مرة أخرى... لا، من المستحيل أن تتركه الآن. ثم إنها عاجزة عن تركه الآن وهي في مثل هذه الحال من القلق والاضطراب. من الأسهل عليها أن تتكيف مع الوضع وهي إلى جانبه. كل ما تعرفه هو أنها لا تزال تحب ڤلاديمير، وأنها لولا هذا الحب العميق لما عانت هذه المعاناة الرهيبة.

إلا أنها كلما أحبته أكثر، كلما تعذر عليها فهمه. فكأنهما يسيران في غابة على ممرين يفترقان أكثر فأكثر كلما أمعنا في التوغل. ورغم كل حبها له فإنها لا تستطيع مداراة إدانتها لسلوكه.

لماذا تورط مع امرأة من هذا النوع أصلاً؟ ولو كانت واحدة منهم، رفيقة شيوعية، لكان ذلك أقل هواناً. لكن هذه المرأة تبدو وكأنها سيدة من الطراز القديم. حتى ڤولوديا نفسه اعترف بأنها «مختلفة» وبأنها سيدة مدللة. وحسب الوصف الذي رسمه هو لها فإنها بلا شك ليست من أنصار البلاشفة أو الشيوعيين وتتوق إلى عودة «الأيام الخالية».

كانت تحيا حياة مرفهة، وأسرتها تستخدم سبع عشرة خادمة. كان لها جواد ذا سرج نسائي. حين قامت الثورة انضم والدها إلى البيض. توفيت والدتها في هذه الأثناء وبات شقيقها ضابطاً في الجيش الأبيض وقتل في الميدان. حين وجدت نفسها وحيدة راحت تبحث عن عمل وبما أنها تتقن عدة لغات أجنبية فقد عملت سكرتيرة في مكتب المدير وهناك تعرف ڤولوديا عليها.

أحبته وراحت تكتب له ـ لم تكن ڤاسيا هناك في ذلك الوقت. كان

ڤلاديمير وحيداً فأقام علاقة حب معها. ذاع صيت هذه العلاقة في المكتب وبدأ الناس يرمقون نينا كونستانتينوڤنا بنظرة عيابة. لم تطق تحمل ذلك فتركت وظيفتها. عندها عملت سكرتيرة عند ساڤيليڤ.

راحت ڤاسيا تذرع الغرفة وهي تتذكر الحديث المتبادل بينها وبين ڤولوديا..

سألته ڤاسيا وقد عجزت عن مغالبة فضولها:

ـ فقط سكرتيرته؟

كانت راغبة في ازعاج ڤولوديا مثلما كانت راغبة في معرفة كل شيء عنها.

صاح ڤلاديمير وقد احتقن وجهه:

ـ أين سمعت هذه الشائعة الوضيعة، ألا تخجلين من ترديد مثل هذه القذارة يا ڤاسيا. كنت أخالك متسامية عن مثل هذا. لم أتصور أبداً أنك ستتصرفين مثل امرأة عجوز تجر شخصاً نحو الحضيض. كيف ترددين مثل هذه الأقاويل يا ڤاسيا؟

شرح لها أن ساڤيليڤ يعتبر نفسه ولي أمر نينا كونستانتينوڤنا وحاميها. كان صديقاً لأسرتها وحين فقدت نينا كونستانتيوڤنا أسرتها عُني بها ومنحها النقود والنصائح ووجد لها وظيفة في مكتب الإدارة، وحين تركت المكتب هب وأجارها مرة أخرى. لم يكن لديها أي مكان تلجأ إليه وطبعاً كان من المستحيل أن تأوي إلى منزل ڤلاديمير. ولما اقترح ساڤيليڤ أن تنتقل إلى بيته، رفضت قائلة إنها تفضل اللجوء إلى الشارع. في النهاية وجد لها ساڤيليڤ شقة مستقلة حيث أقام مكتبه واقترح أن تقيم هي هناك. لقد تصرف كوصي لا يقوم إلا بما تمليه مصلحتها.

ثار سخط ڤاسيا لدى سماعها ڤولوديا يتحدث عن تلك المرأة بمحبة

ولم تتمكن من السيطرة على نفسها. قالت:

ـ وأراهن أنه يغويها أيضاً.

ما كانت تتصور أبداً أن ڤولوديا يمكن أن يكون ساذجاً إلى هذا الحد. لم تثق ڤاسيا بتلك المرأة البتة ـ الجميع يقول إنها ليست سوى عاهرة.

هاج ساكن ڤلاديمير مرة أخرى. صرخ:

ـ أكاذيب. أكاذيب. وشائعات. لماذا تصرين على نشر المخازي وترديد أحاديث الإفك؟ إذ كنت مُصرة على معرفة حقيقتها فاسأليني أنا. إن نينا كونستانتينوڤنا لا تحب إلاي. إنها إمرأة جميلة وساڤيليڤ ليس الوحيد الذي حاول غوايتها. فهناك ماكليتسوڤ، تعرفينه، الرجل الذي يعمل في دائرة التجارة الخارجية ـ لقد عرض عليها الماس وكل ثمين يمكن للمال أن يبتاعه، فما كان من نينا إلا أن طردته. طبعاً لا أدعي أن ساڤيليڤ لا يميل إليها، ولا أزعم أنه يحبها حِباً أبوياً بريئاً صرفاً، لكن نينا لا تميل إليه جنسياً. أؤكد لك أنه لا يمكن لأي علاقة من هذا النوع أن تنشأ بينهما، مستحيل. إنني أعرف الناس.

من الواضح أنه يجهد في إقناع نفسه بهذا. أدركت ذلك، لكن ما زاد من كآبتها هو تشويش ساڤيليڤ لكل ما يفعله ڤولوديا. لا شك في أنها تمقت الرجل لسبب مبرر. ولنفس السبب عمدت لجنة التنظيم إلى تحذير ڤلاديمير من مغبة صداقة ساڤيليڤ.

قالت:

ـ في أية حال علاقة ساڤيليڤ بها ليست ذات أهمية. المشكلة هي كل هذه الشائعات المنتشرة والتي تفيد بأنك تشارك ساڤيليڤ في إعالتها.

قال ڤلاديمير:

ـ حسناً. بوسعك أن تذهبي وتبصقي في عيني كل من يجرؤ على ادعاء

ذلك. لا أتوقع منك أن تتفهمي ذلك يا ڤاسيا، لكن مصدر تعاستي النابعة من هذا الموضوع هو أنني حين ضاجعت نينا لأول مرة كانت عذراء، لم يمسها أحد.

شك هذا الاعتراف قلب ڤاسيا كأنما هو إبرة حادة. تذكرت ليلة ١٩١٧، كانا يحتسيان الشاي في غرفتها عندما قال: «لن امنح قلبي إلا لعذراء» ثم تذكرت كيف مسد شعرها بعد أن طارحها الحب وقال: «ليس هناك من هو أكثر طهارة منك في هذا العالم يا ڤاسيا».

ردت بنزق:

- عذراء! أي هراء. ما هذا الهذيان. هل تعني يا ڤلاديمير أن طهارة المرأة تكمن في عذريتها؟ إذا كان هذا ما تعتقده فإنك قد بدأت تفكر مثل محافظ متعصب.

كانت ثائرة مغضبة.

- لكن يا ڤاسيا عليك أن تدركي أنها هي التي تفكر بهذه الطريقة لا أنا. فمطارحتي الغرام دون الزواج هي كارثة بالنسبة لها. أنها تنظر إلى نفسها الآن على أنها «امرأة ساقطة» وهذا ما يسبب لها ألماً عظيماً. ألا تفهمين يا ڤاسيا؟ ليس بوسعك تخيل مدى معاناتها. إنها لا تفكر مثلنا نحن البروليتاريين. فهي ترى أن أول رجل يطارحها الغرام يجب أن يكون زوجها.

- لماذا لم تخبرني بكل هذا منذ البداية إذن؟ ماذا يمنعك من الزواج منها؟ لن أحول أنا بينك وبين الزواج منها.

- أوه يا ڤاسيا، صحيح أنك ذكية، لكنك تعودين مجرد فلاحة حين يتعلق الأمر بمسائل الحب. كيف لي أن اتزوجها يا ڤاسيا؟ نحن مختلفان تماماً. إننا غير متجانسين على الاطلاق. إنني لا أحبها حقاً، لكنني اشعر بالشفقة عليها. كيف لي أن اتزوجها اخبريني.

شعور بالشفقة فقط، هل يعني ذلك فعلاً؟ بدأت ڤاسيا ترتعش فرحاً، كانت ترغب رغبة عارمة في تصديق ما قاله.

سألت:

ـ ولكن لماذا تستمر في الاختلاف إليها إن لم يكن بينكما حب حقيقي ولا تفاهم، وما دامت هذه العلاقة جلابة لشقائكما.

ـ هل تحسبين أنني قادر على هجرها يا ڤاسيا؟ الأمور ليست بهذه السهولة علي أن أفكر بما قد يجري لها إن تركتها. من يدري، لعلها تقبل بالبقاء مع ساڤيليڤ ولعلها تصبح مومساً.

ـ ولماذا إعالتها؟ لماذا لا تبحث لنفسها عن عمل؟

ـ قول ذلك أسهل من تطبيقه هذه الأيام. حاولي أن تجدي عملاً هذه الأيام. فثمة فائض كبير في مجال الأيدي العاملة هذه الأيام. ولا أعرف أي نوع من الأعمال تجيد في أية حال. فوظيفة عادية في مصنع لا تناسب نينا.

ودت ڤاسيا لو تصرخ: «ولماذا لا يُناسبها العمل في مصنع؟ ماذا يميزها عن الأخريات؟» لكنها دارت مشاعر ڤلاديمير، فهو لم يشف تماماً بعد. وقد حذرها الطبيب من إثارته. وقد ازعجه هذا الحديث بما فيه الكفاية.

ولكن الآن وبعد أن ظلت وحيدة ساهرة في المنزل المعتم، ندمت ڤاسيا لأنها لم تصرخ جاهرة بالحقيقة ولأنها لم تقل لڤلاديمير رأيها الحقيقي بحيل هذه المرأة.

لم تصدق تأكيدات نينا كوستانتينوڤنا المتكررة بأنها تحب ڤلاديمير. لا شك في أنها تخدعه لتعتصر ما وسعها اعتصاره من الرجلين. وڤاسيا لا تبغضها لكونها عاهرة، وإنما لكونها عديمة الضمير. العاهرات قد يكن أفضل بكثير من سيدات المجتمع. فهناك زينكا ذات الشعر الجعدي مثلاً ـ

لقد قتلها البيض، ولكن قبل أن تموت بلحظات تمكنت من أن تهتف: عاشت الحكومة السوفيتية. عاشت الثورة ـ صحيح أنها كانت مومساً إلا أنها انطلقت إنطلاقة حياتية جديدة ما إن قامت الثورة. وراحت تعمل مع البوليس السياسي بحماسة، ونفذت مهمات محفوفة بالمخاطر.

لو أن ڤلاديمير وقع في غرام امرأة مثلها لتفهمت ڤاسيا الأمر. لكن نينا سيدة بورجوازية، عدو طبقي وهي امرأة قاسية تدفع ڤلاديمير بطريقة تضمن مصالحها الخاصة. ترى ما سر سيطرتها عليه؟ لا شك في أن مصدر قوتها يكمن في شفقتهُ عليها «انني ضعيفة وعاجزة وكنت عذراء». . فكرت ڤاسيا: نعم، كنت عذراء منذ تركت علامة بيضاء على عذريتك الوهمية. من المؤكد أن عذريتك قد توزعت على كل اولئك الرجال الذين يجودون عليك بالهدايا مقابلها. ورغم كل هذا يصدقك ڤلاديمير ويعطف عليك. كانت ڤاسيا قد خرجت عن طورها وثارت في نفسها مشاعر الغضب من هذه المرأة.

قطع صوت ماريا سيمينوڤنا البرِم افكار ڤاسيا:

ـ ڤاسيليسا ديمينتيڤنا، بحق العذراء، هل تعزمين أن تواصلي اضطرابك جيئة وذهاباً إلى ما لا نهاية؟ أفضل لك أن توفري قواك يا عزيزتي إذ أنك ستحتاجينها في اجتماعاتك الكثيرة. لماذا لا تكوني صبية عاقلة فتأوين إلى السرير وتنامين ولا تسهرين بانتظار زوجك هذا. ليس هناك ما يبرر إنتظاره وفتح الباب له عندعودته ما دام قد قضى مع امرأة أخرى. بوسعي إعداد سرير له في الصالة.

عانقتها ڤاسيا وشعرت بكآبة ثقيلة لم تعهدها من قبل. بدا لها أن الجميع يتعاطفون معها بإستثناء الرجل الذي تحب، زوجها وأقرب اصدقائها كما هو مفروض. كان يرثي لتلك المخلوقة الخداعة التي تتشبث به مثل أفعى . . .

رقدت ڤاسيا على الفراش وعيناها مفتوحتين على سعتهما. وحالت الكآبة الثقيلة التي تستولي عليها وتسحقها دونها والنوم. بدا لها أن وقتاً طويلاً طويلاً مر قبل أن يدخل ڤلاديمير ويشعل الضوء. قال:

ـ ڤاسيك، هل أنت نائمة.

ـ لا، لست نائمة.

ـ إذن فانت غاضبة مني.

جلس على السرير وحاول أن يقبلها لكنها شاحت بوجهها:

ـ إذن فانت غاضبة مني فعلاً، كنت أحسب ذلك. وماذا عن إتفاقنا؟ لقد انبأتك بكل شيء لأنك توسلتني أن أفعل ذلك. والآن يبدو لي أنه من الأفضل لو كذبت.

لاذت ڤاسيا بالصمت. اضاف:

ـ اسمعي، لن يفيدنا الجدال ثانية وتبادل الإتهامات من جديد. لم كل هذا الغضب؟ ألمجرد أنني زرت نينا؟ ألا تفهمين يا ڤاسيا؟ كل هذا الوقت الذي قضيناه معاً كانت هي وحيدة. ألا تدركين أنها كانت قلقة علي هي الأخرى؟ هي عانت ايضاً.

شعرت ڤاسيا برغبة في أن تصرخ: «لست أبالي بمعاناتها» إلا أنها عضت على شفتها ولم تنبس. كانت خفقات قلبها تتدارك.

أضاف:

ـ ولا داعي لأن تظني أن شيئاً ما حدث بيننا يا ڤاسيك، إذ أنني لم أختل بها. كان ساڤيليڤ هناك وانضم الينا ايڤان ايڤانوڤيتش. تباحثنا. هل تعرفين لماذا ذهبت اليها اليوم؟ لأقول لها الوداع إلى الأبد. لماذا تنظرين إلي هكذا؟ ألا تصدقيني؟ إسألي ايڤان ايڤانوڤيتش، سوف يخبرك طلبت منه أن يأتي ويساعدني في نقل نينا كونستانتينوڤنا وترتيب الشقة وهي مهمة بغيضة.

سألت ڤاسيا ببلادة:

ـ وإلى أين ستذهب؟

ـ إلى موسكو. سوف يرافقها ساڤيليڤ. لديه أقارب في موسكو حيث ستبقى نينا إلى أن تعثر على وظيفة ما. هذا هو أفضل الحلول بالنسبة للجميع.

لم تنبس ڤاسيا، ووشت ملامحها بشكها وريبتها. لماذا هذا التغيير المفاجيء؟ ما الذي حدث؟ ليس من المعقول أن يكتشف فجأة أنه لا يحب هذه المرأة؟

قال بسرعة:

ـ دعينا لا نتحدث عن الحب. هذه مسألة جانبية. المسألة الأساسية هي أن نينا أدركت أن الوضع لا يمكن أن يستمر هكذا ـ الحقيقة أنها هي صاحبة قرار الذهاب إلى موسكو. كانت تفكر في هذا الحل منذ مدة. في ذلك الصباح حين هربت وهجرتني اتصلت نينا بي وقالت أنها عاجزة عن العيش هكذا، وقالت ينبغي علي أن اختار بينكما وإلا رحلت إلى موسكو.

ـ أوه، الآن فهمت. لهذا إذن سمَّمت نفسك. واحدة منا تركتك والأخرى تهدد بالرحيل إن لم تتزوجها. أوه كم كنت حمقاء، كم كنت بلهاء. الآن فهمت كل شيء. سمَّمت نفسك خوفاً من فقدانها. وأنا التي ظننت أنك حاولت الانتحار بسببي.

انفجرت ڤاسيا تضحك بهستيرية.

قال ڤلاديمير بحزن وهو ينهض عن السرير:

ـ ها انت تدمرين كل شيء يا ڤاسيا. لماذا كل هذه القسوة؟ ڤاسيك القديمة التي أعرف لم تكن هكذا ابداً. من الواضح أننا لم نتوصل إلى نتيجة. وأنا

الذي فعلت ما فعلت لأعالج الوضع حتى لا يكون بيننا أسرار خفية. يبدو أنه كلما حاولنا أن نكون أكثر صدقاً كلما ساءت الأمور. تبدين وكأنك شخص مختلف. شامت وفظ.

ـ أوه، لا يا ڤولوديا. انتظر لحظة. لا تذهب ارجوك.

اختنق صوت ڤاسيا إذ كان اليأس يعتصر قلبها. استأنفت قائلة:

ـ دعنا نتحدث عن الموضوع إذا كان ذلك ضرورياً. لماذا إذن ترسلها إلى موسكو رغم أنك تحبها ولا تحبني. لو كنت تحبني انا لبقيت معي اليوم، ولكنك تحبها هي وتعطف عليها.

ـ ڤاسيا، ڤاسيا أنت ظالمة. لو تعرفين كم عانت نينا. انها صبية صغيرة بل هي طفلة حقاً. ليس لها أصدقاء والجميع يصبون عليها الوحل ولماذا يا ڤاسيا، ألِأنَّ سوء حظها جعلها تقع في حبي؟ انت مختلفة تماماً عنها. لديك اصدقاء ولديك الحزب. وهي وحيدة لا يقف إلى جانبها غيري. أنا حاميها ومعيلها الوحيد.

كان ڤلاديمير يذرع الغرفة ويده خلف ظهره. اخبرها ڤولوديا كيف حملت نينا منه. كل احلامه انجزت. طفل. طفله هو. أية فرحة وأي شقاء.

ذهلت ڤاسيا وسألت:

ـ واين الطفل إذن؟

ـ هل تحسبين أن بوسع نينا إنجاب الطفل في غمرة الفضيحة وتعاستك؟ اردنا أن نجنبك ذلك. طبعاً كاد ذلك أن يحطم قلبها ـ كاد إتخاذ القرار أن يقتلها غماً. ولكن من أجلك انت يا ڤاسيا، قرر كِلانا أن نعالج الوضع بالإجهاض.

من أجلها هي؟ لقد دبر الإجهاض مع امرأة غير معروفة على الاطلاق،

هو وهذه المرأة المجهولة قررا أن «يجنبا» ڤاسيا الألم، وكأنها عدو لا يطمئنان له ولا يوثق به. لقد لجأ في غمرة تعاسته إلى نينا هذه لا إلى ڤاسيا. لا بد وأن يكون أقرب إلى نينا، من الواضح أن نينا هي صديقته وحبيبته لا ڤاسيا.

قال:

ـ اكتشفت انها حامل يوم وصلت. هل تدركين الآن سبب قلقي يا ڤاسيا؟
هزت رأسها بالإيجاب ولم تنبس. ڤلاديمير قال ذلك ليتفادى القيل والقال. ونينا رحلت إلى بلدة أخرى حيث رتب ساڤيليف عملية الإجهاض. لم تنجح العملية تماماً وظهرت تعقيدات. وكان على ڤلاديمير ان يزورها هناك.

سألت:

ـ هل حدث ذلك في الوقت الذي أضرب فيه العمال؟
ـ نعم، اعتقد ذلك.
ـ فهمت.

لهذا السبب إذن صرخ حين كان يجلس الى الطاولة ـ بسبب نينا ـ وليس لذلك علاقة بالحمالين ابداً. واصلت ڤاسيا اسئلتها:
ـ قل لي، هل عادت في ذلك الصباح الذي وصل فيه ساڤيليف؟
ـ نعم؟
ـ نعم هذا ما حسبته.

لاذ كلاهما بالصمت. حامت كلمات قاسية في الهواء بينهما. لو نطقا بها لآسفا طبعاً، ولكن لو فعلا ذلك لدمر حبهما ولشوه مثل وجه اصيب بالحصبة. فلا مواساة ولا بهجة.

قطع ڤلاديمير الصمت الثقيل قائلاً:
ـ ڤاسيا، لماذا نعرض أنفسنا إلى هذا الجحيم؟ من الملام؟ اقسم أنني كنت أحاول أن أفعل المستحيل لأجنبكِ الألم.

قالت:

ـ ولكن ليتك وثقت بي كصديق. لما احتجت عندئذ الى تجنيبي الألم. جلس ڤلاديمير بجانبها وأخذ يدها بين يديه:

ـ ولكني يا ڤاسيا أعلم انك صديقتي ـ ألا ترين أن ذلك يزيد الأمر صعوبة. أراح رأسه على كتفها كما كان يفعل في الأيام الخوالي. مسدت ڤاسيا شعره بمزيج من الحزن والفرح. رغم كل شيء ها هو الى جانبها، ولعله لا يزال يحبها.

قالت بحذر:

ـ ڤولوديا، هل تعتقد أنه من الأفضل لو أنني أنا رحلت بدلاً منها؟

ـ أوه يا ڤاسيا ارجوك لنطوي هذا الموضوع. لا تعذبيني هكذا. قفي إلى جانبي ولا تدفعيني إلى إرتكاب نفس الخطأ ثانية. لقد فتحت لك قلبي صديقاً واعترفت لك بكل شيء. ولهذا ينبغي أن تكفي عن الحديث عن رحيلك عني.

ـ لكنني افكر في مصلحتك يا ڤولوديا. إن كنت تحبها حقاً...

ـ وما علاقة الحب بهذا الأمر. ڤاسيا، الحب شيء آخر، انني لا افهم لماذا تعتقدين أن ثمة ما هو مشترك بيني وبين نينا. إنها ليست رفيقة ولا هي صديقة حقيقية مثلك. كل ما في الأمر هو أنني اشفق عليها وقلق لما قد يحصل لها. إن هجرتها. لا زلت أشعر بأنني مسؤول عنها، ألا تفهمين؟ لقد كانت عذراء.

ـ أوه يا ڤولوديا. أي حماقة هذه! كيف تعتبر نفسك مسؤولاً عنها؟ إنها ليست طفلة، لقد كانت تعرف ما الذي تفعله.. في أية حال من الذي يبالي بعذريتهن الثمينة هذه الأيام؟

ـ صحيح أن البروليتاريا تفكر هكذا، لكن نينا مختلفة، إنها ليست

بروليتارية. فقدان العذرية بالنسبة لها إثم يثقل ضميرها..

- بالضبط. ولهذا قلت انه كان ينبغي علي أنا أن أرحل، وبوسعك بعد ذلك أن تتزوجها.

- أرجوك يا ڤاسيا لا تعودي إلى هذا الموضوع ثانية اتوسل اليك. كفي عن إغاظة مشاعري بهذه الطريقة. في أية حال لقد فات الأوان، وانتهى كل شيء سوف ترحل نينا كونستانتينوڤنا إلى موسكو يوم الخميس، وهكذا سينتهي كل شيء. ولسوف ننسى الماضي ونبدأ من جديد.

قال هذا بهدوء وعزم حتى كادت ڤاسيا تصدقه. اضاف قائلاً:

- ڤاسيا يا حبيبتي اصبري اياماً قليلة أخرى وارجوك أن لا تجهدي نفسك وتجهديني في غضون ذلك. بعد أن ترحل سوف نحيا أنا وأنت مثلما كنا في الماضي. ولن افاجأ إن اصبحت حياتنا أفضل حتى من الماضي خاصة وأننا قد مررنا بالكثير معاً.

عانقها وقبل عينيها. استأنف قائلًا:

- أرغب في النوم معك الليلة يا ڤاسيا، هل تسمحين لي؟ إنني متعب ورأسي يدور.

رقد إلى جانبها وأراح رأسه على كتفها ثم نام.

إلا أن ڤاسيا عجزت عن النوم. لو كان يحبها لاحس بما تحس ولبادر إلى إشعارها بحبه لها. وبينما كانت تتأمل رأسه الأليف أدركت كم هي غريبة تلك الأفكار التي تدور فيه. رموشه الجميلة تواري آيات حبه. لكنها تعرف أن هذا الحب وهذا الحنان ليسا لها. شفتاه، قبلاته تثيران عواطف امرأة أخرى. نحت رأسه عن كتفها ـ إنه رجل غريب عنها.

غمغم ڤلاديمير بصوت ناعس:

- ١١ -

انه صيف قائظ موهن. السماء القاسية لم ترسل مطراً يغسل الأشجار المغبرة ولا روت العشب الذاوي. حديقة المدينة مغبرة ذابلة. الغرفة الموسيقية تعزف، لكن المكان مقفر إلا من قلة من الناس. بعض الأطفال يلعبون قرب منصة الغرفة الموسيقية ومجموعات من جنود الجيش الأحمر يجلسون هنا وهناك أو يمشون وقد تأبطوا أذرع النساء. على مقعد خشبي طويلٍ جلس راهب في الظل وكان يرتدي مِدرعة ويستند إلى صوجانه متأملاً. إلى جانبه تجلس مربية معها مشاية أطفال. جلست كل من ڤاسيا وماريا سيمينوڤنا إلى جانبها. أنه مكان مناسب لهما إذ بوسعهما أن يريا كل شيء وتنتظرا ظهور نينا كونستانتينوڤنا.

قالت ماريا سيمينوڤنا:

ـ آمل أن نرى أميرتنا اليوم. إنها تأتي هنا عادة كلما حان وقت العزف لتعرض آخر صرعاتها. السيدات يأتين هنا خصيصاً ليطلعن على أخر صرعات الأزياء. انهن يعرفن أن نينا كونستانتينوڤنا ترتدي أخر صرعة مهما كانت طبيعتها. اصغت ڤاسيا بشرود. كانت تتوق إلى رؤية نينا كونستانتينوڤنا ولكن شعوراً مزعجاً أوحى لها بأنها سوف تضطرب ما أن تبصرها. شدت على يد ماريا سيمنوڤنا وقالت:

ـ انظري، تلك المرأة ذات الثوب القرنفلي التي تجلس على يمين الغرفة

الموسيقية هل هي نينا كونستانتينوڤنا؟

ـ ما الذي تظنيه؟ هذه ليست نينا كونستانتينوڤنا. حين ترينها سوف تعرفينها. إنها مثل عارضة أزياء.

تابعتا تفحص المارة، لكن نينا لم تظهر. وحين دب اليأس فيهما وهمت كلتاهما على العودة إلى المنزل ظهرت نينا كونستانتينوڤنا فجأة من الطرف الآخر للحديقة. توقفت قرب الغرفة الموسيقية وتبادلت الحديث مع ساڤيليڤ وشابين آخرين غير مكترثة إطلاقاً بنظرات الناس الفضولية. هذه هي أخيراً. كانت ترتدي ثوباً أبيض رقيقاً يبرز صدرها وتضع قفازين بلون التراب وقبعة من نفس اللون هابطة إلى ما فوق عينيها مما حال دون رؤية ڤاسيا لوجهها بوضوح. كلما رأته هو شفتيها القرمزيتين الفاقعتين وكأنهما غُمستا بالدم. قالت:

ـ انظري الى شفتيها. مثل الدم.

فسرت ماريا سيمينوڤنا كالحكيمة:

ـ انه احمر الشفاه. ينبغي عليك رؤية عينيها ايضاً. ملطختان بالسخام. بودي لو أحمل منديلاً وامسح هذه الأوساخ عن وجهها عندها سنعرف كيف تبدو فعلاً. هاه. حتى أنا سوف أظهر جميلة لو لُطخت مثلها.

كانت نينا كونستانتينوڤنا تستند على مظلتها المخرمة الواقية من الشمس وتركلها بكعب نعلها الأبيض. كانت تضحك وتهز رأسها. وشاركها الشابان الضحك.

ظل ساڤيليڤ منتحياً إلى حد ما طوال الوقت وراح يلاحق خطوط الرمال بقصبته وقد بدا عليه الضجر.

احتجت ڤاسيا قائلة:

ـ لكنني لا أستطيع رؤية وجهها ما دامت هذه القبعة على رأسها.

اقترحت ماريا سيمينوڤا:

- حسناً. لماذا لا نمشي بمحاذاتها. بوسعك عندئذ ان تتأملي أميرتنا جيداً. ولكني لو كنت مكانك لما نظرت عن قرب إذ لا شيء يستحق ذلك. حين كنت اخدم زوجة الجنرال جولولوبوف رأيت الكثير من السيدات الجميلات الحقيقيات. وأؤكد لك أنها ليست من صنفهن.

لكن ڤاسيا كانت خاضعة لسيطرة فضول قاتم. كانت تريد أن تعرف ما الذي دفع ڤولوديا إلى حب مثل هذه المرأة. حين اوشكتا على التوجه نحوها، صافحت نينا الشابين مودعة بصوت مرتفع سمعته ڤاسيا:

- إلى اللقاء قريباً في موسكو.

انكفأت نحو بوابة الحديقة يتبعها ساڤيليڤ. همست ماريا سيمينوڤنا:

- هل نلحق بهما يا ڤاسيليسا ديمتوڤنا؟ لا. الأفضل أن لا نتبعها. فالأمر مختلف بالنسبة لسموها. الناس يعرفونك وسوف تنتشر الشائعات.

ابطأت ڤاسيا دون أن ترفع عينيها عن نينا لحظة واحدة. كانت مديدة القامة باهرة وتهز كتفيها كلما مشت. ولكن ما أن ابتعدت عن منصة الغرفة الموسيقية حتى سقط رأسها على صدرها فأدركت ڤاسيا انها تنتحب. مال ساڤيليڤ نحوها وراح يحاججها لكنها هزت رأسها سلباً. ثم رفعت يدها ذات القفاز ومسحت دمعة. إنها تنتحب فعلاً. لا بد أنها جاءت إلى هنا لتودع الموسيقى وداعاً أخيراً.

ماذا لو كانت تحب ڤولوديا فعلاً ولم تكن تستغله لمصلحتها؟ ضاعفت هذه الخواطر من قلق ڤاسيا إذ إنها لم تشعر بالسعادة حتى بعد أن رأت نينا كونستانتينوڤنا تبددت غيرتها وحل محلها شيء مختلف كلياً. ضرب من شفقة وحنو على هذه المرأة بدأ يحوم في رأسها. لماذا تنتحب؟ لماذا جاءت لتسمع الموسيقى؟ هل كانت تودع السعادة الماضية إلى الأبد؟ امتعضت ڤاسيا من

نفسها لأنها سمحت لمثل هذه الخواطر والمشاعر بمراودتها. وكأن مشاكلها وقلقها لا يكفيها. أي وضع هذا، أن ينقبض قلبها حزناً على تلك المرأة التي سوف ترحل عن ڤلاديمير.

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة ارتحلت نينا كونستانتينوڤا إلى موسكو. مر اسبوعان. وشعرت ڤاسيا أنه ينبغي لها أن تعاود تمتعها بالحياة مرة أخرى. لقد ارتحلت نينا وبقي ڤلاديمير لها وحدها. لقد أدركت الآن أنها أكثر أهمية بالنسبة لڤلاديمير من نينا التي ما كانت سوى علاقة عابرة. بدأت تتبسم وتضحك أكثر وتحسن سعالها وباتت تحضر اجتمعات اللجنة الحزبية بإستمرار واستغرق العمل وقت ڤلاديمير، وراح يعيد تنظيم العمل حسب الخطوط التي حددتها النقابة. وقد قرر أن ينتقل ڤلاديمير وڤاسيا إلى موسكو بعد الإنتهاء من هذه الأعمال ثم ينقل ڤلاديمير إلى منطقة أخرى. حالياً بدا سعيداً بالاستغراق في عمله، وبدا كل شيء على ما يرام.

إلا أن السعادة القديمة التي عرفاها في الماضي تبددت. وبدا وكأن استعادتها أمر محال. لم يكن ڤلاديمير فظاً إلا أنه كان يجد صعوبة في السيطرة على أعصابه أحياناً فتثور ثائرته فجأة وينصب غضبه على ڤاسيا. مرة هاج ساكنه لأنها عادت من احد اجتماعات اللجنة الحزبية متأخرة عن الغداء. صرخ في وجهها لأنها حملت الضيوف على الانتظار. هل كانت تحسب انهم سيجلسون إلى المائدة قبل أن يصل مضيفيهم؟ مرة ثانية فقد اعصابه لأن ياقاته متسخة، في هذه المرة فقدت ڤاسيا اعصابها ايضاً. ولماذا تتحمل مسؤوليتها؟ بوسعه أن يعنى بنفسه جيداً وأن يطلب من ماريا سيمينوڤنا أن تنظفها. هذه الحادثة عكرت الأجواء بينهما. وكل ذلك بسبب ياقات سخيفة.

ذات يوم عادت ڤاسيا إلى البيت والمطر ينهمر بغزارة. وكانت قد تركت قبعتها الفرو في غرفة اللجنة الحزبية حتى تقيها المطر. وربطت منديلاً على رأسها. عبس ڤلاديمير حين رآها:

ـ أي منظر مخيف. عليك أن تنظري إلى نفسك في المرآة. نعلاك مهترئان، تنورتك ملطخة بالوحل، وهذا المنديل على رأسك يجعلك تبدين مثل فلاحة. تبدين رثة تماماً.

ردت ڤاسيا متسخطة:

ـ ليس بوسعنا جميعاً أن نتشبه بعارضات الأزياء. إنني على يقين من أنني لن ألطخ عيني عند ساڤيليڤ.

حدجها ڤلاديمير بنظرة نارية ورغم أنه لم يقل شيئاً احست ڤاسيا بأنه يغالب بصعوبة رغبة في ضربها.

العلاقات بينهما ينهشها الخلل. كانا يرغبان رغبة عارمة في أن يسترجعا صداقتهما القديمة، إلا أن أقل حادث كان يخرجهما عن طورهما. فضلاً عن أن ڤلاديمير لم يكف عن الحديث عن مهنته الجديدة وعن تخيل البيت الجديد وتنظيمه وكانت ڤاسيا ترى أن أحلام اليقظة هذه مضجرة مملة. ولماذا يملك المرء بيتاً خاصاً به؟ أين المتعة في ذلك؟ لو أنهما شرعا في إنشاء بيت جماعي لاختلف الأمر إلا أن ڤلاديمير عارضها بعنف ورماها «بالمحافظة».

وتحدثه ڤاسيا عن جماعتها الدراسية حيث كانوا يدرسون الماركسية ويناقشون ما إذا كان التاريخ هو نتاج العوامل الاقتصادية وحدها أم العقائد. وبدت مستثارة وهي تحاول أن تشرح له كل ما كانوا يبحثون فيه. لكنه وجد ذلك مضجراً. ما هذا سوى تحايل على الجوهري. الجوهري بالنسبة له هو كيف نوفر للعمل ربحاً أكثر. ومن ثم يبدأ جدال جديد.

تدريجياً شعرا أن ما كان مشتركاً بينهما أخذ يتضاءل، فباتا يتصلان بإيڤان ايڤانوڤيتش كلما اختليا ببعضهما إذ كان وجوده بينهما يخفف من التوتر والصمت. كانت ڤاسيا لا تزال تنتظر رسالة جوابية من مسقط رأسها. لكن الأيام مرت ولم يبلغها شيء لا من غروشكا ولا من سيتبان اليكسيڤيتش. ترى ماذا يفعلان؟ في اعماقها كانت تتمنى أن يكتبا اليها يسألانها العودة،

لكنها ما كانت تعترف بذلك جهراً، رغم أنها ليست على يقين من أنها ستعود أم لا في هذه الحالة.

أخيراً وصلتها رسالة مسجلة من ستيبان اليكسيڤيتش. كانت مختصرة ومحددة: يسأل فيها ڤاسيا أن تيمم في عملها اتجاهاً جديداً رسمته اللجنة المركزية لمجموعة من مصانع النسيج. تقع هذه المصانع قرب البلدة وبوسعها أن تقيم هناك. سينتظر جوابها.

بدأ وجيب قلب ڤاسيا يتدارك حين فكرت في مشروع العودة إلى اصدقائها. فأي حياة هذه بلا وظيفة جدية ولا سعادة حقيقية، لا شيء سوى قلق متواصل. كانت تشعر بالقيد في يديها وقدميها ـ شأنها شأن ذلك الزّاغ الزَّرعي الذي قبض عليه شقيقها كولا في غابة حين كانا طفلين. لقد ربط جناحيه حتى لا يطير هارباً. فكان يتبختر على الأرض ويفتح منقاره ويرنو إلى النوافذ بعينيه الذكيتين السوداوين ويحاول رفرفة جناحيه. بعد محاولات يائسة يعود إلى التبختر منصرفاً عن محاولات الطيران مرة أخرى.

لو كان جناحا ڤاسيا مقيدين ببهجة الحب لكان الأمر مختلفاً. لكن مخاوفها المعذبة هي التي تكبحها، قلقها على ڤلاديمير، إحساسها بالإمتنان له لأنه صرف عشيقته وبقي إلى جانبها. الخيوط التي تربطها به ناعمة لكنها سريعة، خيوط تقيدها بطريقة فنية متقنة حتى أن ڤاسيا نفسها ماكانت تحس بها ولا بقيدها.

قطع صوت ڤاسيليسا سيمينوڤنا حبل افكارها:

ـ ڤاسيليسا ديمنتوڤنا، لم يبق لدينا بيرة. علينا أن نخبر ڤلاديمير إيڤانوڤيتش أن يؤمن لنا كمية منها. ماذا لو حضر ضيوف غير متوقعين إلى العشاء. إذن لكان علي أنا أن أركض هنا وهناك لاتدبر البيرة من العدم.

رمقت ڤاسيا بنظرة منكرة. قالت:

ـ انظري إلى نفسك يا ڤاسيليسا ديمنتوڤنا أنت لا تقومين طوال النهار الا

بـرثاء النفس. مـا الذي حـدث الآن. . هل لي أن أسـأل؟ الحمـدلله، أقول، عارضة الأزياء رحلت الى موسكو وڤـلاديمير ايڤـانوڤيتش بقي إلى جانبك. هل يطأ عتبة هذا الباب إلا إذا كان متوجهاً إلى عمله؟ لا. إذن لمـاذا تعانـين دائماً من هـذه التعاسـة؟ الأزواج يرغبـون عن ذلك، انهم يرغبون في أن تكون زوجاتهن بشوشات وفي أن ينظفن البيت حتى إذا ما عادوا من العمل كان بوسعهم أن ينسـوا ما يقلقهم. علينـا أن نتيح لهم فرصة التطلع إلى شيء من السكينة في نهاية اليوم.

تبسمت ڤـاسيا وهي تصغي الى هـذه الآراء التي أكـل عليهـا الـدهـر وشرب. وفكرت: من يدري لعلها على حق؟ ربما كـان علي أن أقف عـلى قدمَيّ وتعود إليّ طبيعتي القديمة: ڤاسيا العام ١٩١٨. لقد عملنا بجهد في تلك الأيام، ورغم ذلك كنا نتمتع. ماذا لو سعت في هـذه اللحظة لتـزور ڤلاديمير في مكتبه. سوف تفاجئه، تدلف اليه دون سابق إنذار وتنبئـه بأمـر الـوظيفة الجـديدة. سـوف تنفجـر ضـاحكـة وهي تخبـره أنها عـاجـزة عن الإنصراف عن حبيبها ڤولوديا، وإنها سترفض. عندها سوف يدرك كم هي متيمة بحبيبها ڤولوديا، ولسوف يغمره الفرح فيضمها ويقبل عينيها.

سوف يدعوني ڤاسيتي كما كان يفعل في الماضي، فكرت بكل هذا بمتعة وهي تتنـاول بلوزة بيضاء لترتديها ثم ربـطت شالاً ازرق حـول عنقها. واعتمرت قبعتها أمام المرآة بعناية وسوت خصلاتها الجعديـة. اليوم سـوف تتأنق من أجل ڤولوديا، اليوم سوف تحمل اليه هدية خاصـة ـ رسالتهـا إلى ستيبان اليكسيڤيتش التي ترفض فيها عرضه حول العمل. اليوم قر قرارها على الذهاب مع ڤولوديا إلى المقاطعة الجديدة، وعلى أن تعمل هناك.

حين وصلت إلى المكتب قصدت غرفة المدير من فورها. فألفتها مقفرة. المدير يحضر اجتماعاً، فجلست ڤاسيا تنتظر وراحت تتصفح بعض صحف موسكو وهي تتبسم لنفسها. كانت عازمة على أن تكشف لڤولوديا عن مدى امتنانها لكل شيء ـ لحبه لها أكثر من أي شخص آخر، لترحيله عشيقته.

وصل البريد فوضع على طاولة المدير. كانت معظم الرسائل رسائل عمل. وراحت قاسيا تفردهم باحثة عن رسالة لها. فجأة انتفض قلبها وأمسكت انفاسها. مظروف مستطيل قرنفلي معنون بخط دقيق أنيق ـ لا بد وأنه من نينا كونستانتينوڤنا.

إذن فالعلاقة لم تنته بعد. كل الخداع السابق لا يزال مستمراً.. شعرت وكأنها تنهار، كل شيء يدور حولها.. لا بد أنها ترنحت إلى أمام إذ أنها ارتطمت بصحن سجائر على الطاولة واوقعته فتناثر شظايا. بدا وكأن هذا المظروف الطويل القرنفلي يسيطر على مصيرها. بسرعة خاطفة كانت الرسالة في جيبها. سوف يكون هذا نهاية الأكاذيب.

في تلك اللحظة دلف ڤلاديمير إلى الغرفة ومعه بعض المديرين. قال في دهشة:

ـ مرحباً يا ڤاسيا. ماذا تفعلين هنا؟ هل جئت لعمل أو لزيارة؟

قالت بفتور:

ـ ليس ثمة بيرة في البيت، علينا أن نأمر بالمزيد منها.

ـ أنظروا إلى ڤاسيا وقد تحولت إلى ربة بيت صغيرة، اليس كذلك؟ قريباً جداً لن يسعني التعرف على ڤاسيا القديمة.

ارسل ضحكة عريضة تشي بفرحه لها.

فكرت: اضحك. انت لا تدري كم أبغض كل القيود التي قيدت بها حريتي. سوف احطمها واكشف كل كذبة كذبتها.

ـ ألهذا جئت يا ڤاسيا؟ هل أنت مضطرة الى الذهاب الآن؟

اومأت بالإيجاب. كانت ترتعش الى درجة تكاد معها ألا تسيطر على نفسها.

لم تكن قادرة على الصبر حتى تصل المنزل فسعت إلى الحديقة حيث

جلست على احد المقاعد الطويلة. فضت الرسالة بحركة مسعورة وراحت تقرأ.

حبيبي ساني ـ ڤولوديا، يا قلبي، يا معذبي، يا سيدي. يوم آخر، ولا كلمة منك. هذا هو اليوم الثالث ولم يصلني منك ولا حتى سطر واحد. هل نسيتني؟ هل أقلعت عن حب قردك المصري. نزوتك نينا؟ لا أصدق ذلك. لكنني أخاف فانت معها بينها أنا وحيدة.

أخاف لأني أعرف كم هي نزاعة إلى السيطرة في علاقتها معك. وكم لها من التأثير عليك. سوف تحاول أن تقنعك بأن حبنا ما هو إلا «خطيئة بحق الشيوعية» وبأنه ينبغي علينا أن «نتمنع» على الطريقة الشيوعية. ان نحرم انفسنا وننكر عليها كلما هو جلاب للبهجة وأن نكتفي بتبادل الحب في أيام السبت. إنني أخشاها، لأنني أعرف مدى سلطتها عليك. ولكن يا إلهي.. إنني لا أسعى حتى إلى انتزاعك منها ـ إنما أسألك القليل القليل. العالم كله يعترف بها زوجة لك، وأنت معها طوال الوقت وإلى الأبد. بينما كل ما اسأله أنا هو سويعات نزيرة من وقتك لأنني احبك حباً عارماً. أرجوك اشفق علي، فإذا لم تعطف علي فإن أحداً لن يفعل. لا أحد في العالم.

أستيقظ في منتصف الليل، والرعب يملأني خشية أن تكون قد انصرفت عن حبي، ومن انك على وشك أن تتركني. خائفة من الذي قد يحل بي عند ذاك.. الذعر يستبد بي حتى حين أهم بالتفكير بذلك. أنت تعرف كيف يراقبني نيكانور بلاتونوڤيتش مثل عقرب. ورغم تكلفه دور الأب الوصي إلا أنك تعرف مثلما أعرف ما الذي يرمي إليه. سوف يغمره الفرح إذا ما تركتني، لأنني عندئذ سوف أكون وحيدة تماماً، عاجزة أمامه وضعيفة تماماً. سوف يُسر إن حدث هذا. احياناً اشعر بأنني ابغضه إلى درجة أفضّل عليه اللجوء الى الشوارع، أي شيء ما دام يحول دوني ودون الشعور بأني تحت رحمته كل الوقت.

ڤوليا يا حبيبي، ڤوليا، احبك بجنون. هل تعتقد أن هذا الكابوس قد

ينتهي يوماً ما؟ وهل ستأتي لتنقذ حبيبتك نيكا؟ الن تشفق على «فردك»؟ ألا تفكر بي أبداً؟ أنت قاس وغير رفيق بي. أعرف انك في هذه اللحظة تقبل تلك المرأة الأخرى ـ أنت تحبها هي، أعرف ذلك. التفكير بهذا يحطم قلبي. إنني أرغب فيك يا حبيبي ڤولوديا الجياش النهم. ألا تتوق إلى طبع القبلات علي وإلى ضمي بين ذراعيك؟ ما عدت أطيق مزيداً من الصبر ـ أرغب في تطويقك بذراعي الناعمين. نهداي يتشوقان لمداعباتك. ما عدت أطيق صبراً يا ڤوليا. لا أقوى على العيش بدونك. لماذا، أوه لماذا صرفتني إلى موسكو؟ •

لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر. حين تنتقل الى المقاطعة الجديدة عليك أن تجد لي منزلاً صغيراً بحديقة، حيث يسعك أن تختلف إليه في الليل، وسأثبت لك عند ذاك أن لا شيء، لا شيء في العالم كله أكثر خطراً من حب مثل حبنا.

متى ستأتي إلى موسكو؟ وهل ستأتي هي معك؟ لماذا لا تجيز نفسك اسبوعاً نقضيه معاً؟ فكر في الأمر ـ اسبوع كامل معاً.

أنبأني نيكانور بلاتونوڤيتش أنك سوف تحصل في المقاطعة الجديدة على منزل جميل ناء. يحتوي على غرفة طعام على الطراز القوطي. ويقول أن لا مصباح فيها. ولقد عثرت على ثريا رائعة لها. صحيح أنها ثمينة ولكنها فاتنة وأعرف أنها ستلقى في نفسك هوى.

لقد ثرثرت بما فيه الكفاية. سوف تكون رسالة طويلة إلى درجة لن تفلح في العثور على مكان تواريها فيه.

إنني أمازحك، لكنني أشعر برغبة في البكاء طوال الوقت. هل ستدرك مدى شقائي؟ أوه، لماذا لا تسمح لنا الحياة بالعيش سعداء معاً؟ ولكن لا تقلق، أنت السيد، سوف أكف عن التذمر. أعتقد أنني بت أكثر حصانة بعد كل الذي عانيته. عليك أن تقوم بما تراه الأفضل. سوف أنفذ كل ما

تأمرني به. ولكن ثمة ما لن أدعك تنتزعه مني: قبلاتك وحبك وعطفك على نينا الصغيرة المسكينة الوحيدة المضطربة.

موسكو، ١٨ شارع أُوستوزينكا، شقة ٧ (لا ١٧ كما كتبت المرة الماضية ـ لولا الحظ الحسن لما تلقيت الرسالة).

إنني لك من شفتي حتى أخمص القدم.

نيناك.

ثمة ملاحظة في الهامش:

«لقد سعدت كثيراً بعثوري على المساحيق التي كنت أبحث عنها: «L'origan Coty».

قرأت ڤاسيا الرسالة بأناة، وكانت تتأمل كل كلمة في الرسالة. وما قرأت بعينيها وحسب بل بقلبها كله أيضاً. حين أتت على الرسالة، تركتها في حجرها وحدقت إلى العشب الجاف المغبر عند قدميها حيث تحوم نحلة وترسل طنيناً غاضباً. حامت حول أوراق العشب وهي تثب هنا وهناك ثم عادت إلى التنقل في نفس البقعة مرة أخرى.

في الربيع حين أزهر الليلك كان النحل يئز ببشاشة. لكن هذه النحلة ذات مزاج سيىء وكأن الصيف خدعها. فجأة أدركت ڤاسيا أن أفكارها تحوم حول النحلة لا الرسالة. لم تشعر بكآبة ولكن بلامبالاة بليدة.

دبت الحياة في الثعبان مرة أخرى، نعم، لقد عقصتها كلمات نينا: «ذراعان ناعمتان، شفتان رقيقتان..» رشق لسان الثعبان قلبها بالكلمات، وغالبت هي الألم الهائل. لا بد من وجود ركن في قلبها عصيّ على السم.

ببطء وجهد طوت الرسالة ووضعتها في المظروف. نهضت وعبرت منصة الموسيقى وسعت نحو البوابة. لا موسيقى اليوم، لا ناس ولا موسيقى. لقد عرفت أخيراً من التي يحبها ڤولوديا فعلاً. عبرت بويب

الحديقة الغبراء. وسعت نحو الشارع المزدحم بالسيارات. تحولت الحديقة في عينيها إلى مقبرة إذ انصرفت لتوها من جنازة ـ دفن سعادتها.

- ١٢ -

حين وصلت البيت ألفت ڤلاديمير هناك وقد عاد في وقت مبكـر. كان بشوشاً ومفعماً بالأخبار الحسنة. رسالة اللجنة المركـزية التي طـالما انتـظرها وصلته وهي تؤكد على تعيينه الجديد. عليه أن يسافر إلى موسكو فوراً.

قالت ڤاسيا:

- موسكو؟ حسن. وأنا ذاهبة أيضاً ولكن ليس إلى موسكو. إنني عائدة إلى مسقط رأسي.

كانت تتكلم بهدوء ظاهري لكن مشاعرها اضطربت حـين فكرت في مظروف نينا القرنفلي الطويل القابع في جيبها. لكن ڤولوديا لم يلاحظ تجهم وجهها، ولا شرر الغضب في عينيها. من الواضح أنه يجهل مخططها كلياً. قصدت غرفتها لتعد الحقيبة.

- هل تعتزمين زيارة أقاربك في موسكو؟ فكرة سديدة. بوسعنا أن نتقابل في موسكو، إلاّ إذا فضلت المضي مباشرة إلى بيتنا الجديد.

للحظة راودها أمل وانسكب في قلبها. أملهـا الأخير - في أن يعتـرض ويحول بينها وبين الرحيل. والآن ها هو هذا الأمل الأخير ينهار أيضاً.

- لست ذاهبة معك بتاتاً. لقد طُلب إلي أن أعود إلى مسقط رأسي. للعمل، وسـوف أبقى هناك، لا مؤقتـاً بل نهائيـاً. لقد طفـح كيـلي. اختنقت في

قفصك هذا بما فيه الكفاية، ولقد سئمت القيام بدور زوجة المدير. عليك أن تعثر لنفسك على زوجة ترضى بمثل هذه الحياة.

صدمتها كلماتها ولكنها واصلت حديثها بسرعة أدت إلى التلعثم. لن تتيح له خداعها بعد اليوم قالت. وأعربت عن فرحها لوضع حد للعلاقة كلها أخيراً. طوال الوقت وهي تعيش محاطة برجال المؤسسة البورجوازيين. وقد كانت متشوقة إلى العودة إلى عملها، وتحملت ما تحملت في سبيل ڤلاديمير. إنها حزينة حزناً عميقاً لأن وجودها إلى جانبه ما عاد له مبرر. ولأن حبهما وصداقاتهما قد انتهت، لكنها عاجزة عن البقاء زوجة له. وعن البقاء مضيفة له وغطاء فقط ليقول: أحيا مع شيوعية، ولي عشيقة في بيت سري لمتعتي.

لقد رسم ڤلاديمير ونينا علاقتهما بذكاء. لكنهما نسيا شيئاً واحداً وهو إن كان ڤاسيا ستقبل بحياة مقززة مثل هذه الحياة. اشتعلت عينا ڤاسيا باخضرار غاضب وراحت تلهث الكلمات. هزّ ڤلاديمير رأسه بغضب:

- ڤاسيا، إنني لا أصدق أنك تعنين كل ما تقولين. بل إنني لا أكاد أتعرف عليك حين تكونين بهذا المزاج. لماذا لا تتفهمين إن كنت قد أخفيت عنك شيئاً فإنما لصونك.

- شكراً جزيلاً، لكنني لست بحاجة إلى عطفك. إنني قوية بما فيه الكفاية لتحمل الحقيقة. هل تعتقد أن حبك لي هو الشيء الوحيد في حياتي؟ حسن، بوسعك أن تعيد حبك لي إلى حيث وجدته. ودعني أقول لك شيئاً - لم تكن علاقتنا بالنسبة لي سوى عذاب متواصل. أريد أن أنفصل عنك ما إن أغادر هذا المكان. وأرغب عن معرفة ما سيحل بك بعد ذلك. أحبب من شئت، طارحهن الحب، أكذب على الناس، إخدعهم، إصبح مديراً عاماً، كن خائناً للشيوعية... فلست أبالي. ما هم.

- ولكن يا ڤاسيا، ماذا عن صداقتنا؟ ووعدك بتفهم كل شيء.

ـ صداقتنا؟ ماذا عنها؟ أين تبددت؟ أين هي؟ قل لي. ما عدت أصدق أية كلمة تقولها بعد اليوم. لقد اغتلت ثقتي بك يا ڤلاديمير. هل كنت تحسب أنني سأقف في طريقك لو أنك جئت إلي وقلت «ڤاسيا، الأمر مريع، أعرف، لكن حدث شيء محزن جداً، لقد أحببت امرأة أخرى؟ هل كنت تحسب أنني سأوجه إليك اللوم أو أحول بينك وبين سعادتك؟ لا يا ڤلاديمير، لقد نسيت أنني لست زوجتك وحسب إنما صديقتك أيضاً. ولهذا حزَّت تصرفاتك في نفسي إلى هذه الدرجة. ألا تفهم ذلك؟ لهذا لن أغفر لك أبداً ما دمت حية...

انهمرت الدموع على وجنتيها، وأشاحت بوجهها وهي تكفكفها. ثم استأنفت قائلة:

ـ ثقتي بك صديقاً كانت هائلة، لكنك دست عليها. كيف يحيا شخصان معاً بينها أحدهما تعوزه الثقة بالآخر؟ لا، ينبغي لحياتنا معاً أن تنتهي، شأنها شأن سعادتنا.

أوجعها قلبها واضطربت مشاعرها وهي تشيح بوجهها عن ڤلاديمير مرة أخرى وتجلس على السرير، وتعتصر اللحاف بيدها، كانت عيناها مليئتين بالدمع. جلس ڤلاديمير بجانبها وأمسك بكتفيها.

ـ ڤاسيا، كيف تقولين إنك غدوت غريبة عني، وإنك أقلعت عن حبي؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً. ولماذا تتسخطين كل هذا السخط لو أنك فعلاً أقلعت عن حبي؟ هل حاولت أن تراعي مشاعري؟ ألا تصدقين إنني لا زلت أحبك؟ أرجوك حاولي أن تفهميني. صحيح أنني أحب نينا ولكن تلك مسألة أخرى. حبي لك أكثر عمقاً وأكثر أصالة. بدونك أنا لا شيء، ولا ملاذ لي. كل ما أقوم به بدونك أتساءل: ترى ماذا ستقولين عنه. أنت لي النجمة ـ الدليل يا ڤاسيا. إنني بحاجة إليك.

قالت ڤاسيا بحزن:

ـ أنت لا تفكر إلا بنفسك. ولكن ماذا عني؟ هذه الحياة تقيدني يا ڤلاديمير. بوسعي أن أهضم مسألة العشيقة، ولكن ما لا أطيقه هو أننا لم نعد صديقين.

ـ هل تعتقدين أنني لا أحس بنفس الشيء؟ ولكن هل بوسعك أن تخبريني كيف حدث هذا؟ ما عدت أفهم أي شيء. نشتاق إلى بعضنا حين نفترق، ولكن لا نكف عن إزعاج بعضنا حين يلتئم شملنا. تقولين أن الوضع لم يكن هكذا في الماضي، ولكننا لم نعش معاً تحت سقف واحد في الماضي إلا لماماً. لم نحيا حياة عائلة مستقرة ـ كان العمل يستغرقنا، وكنا نتبادل زيارات خاطفة. لماذا لا نعاود العيش هكذا يا ڤاسيا؟ بوسع كل منا أن يفعل ما يشاء، وما أن يُشعر أحدنا بالضجر من الآخر يرحل. هل توافقين على هذا الاقتراح؟ إذا اتفقنا على ذلك فإن الصلابة الداخلية ستعاود ڤاسيتي أنا. ڤاسيا التي أحببت، ولن نضطر إلى الكذب في هذه الحالة. عندها سيكون بوسعنا أن ننفصل بيسر. ڤاسيا، انفصالنا تماماً سيكون مؤلماً. أرجوك، ارفقي بي يا ڤاسيا.

مال برأسه على ركبتيها ودفن رأسه في حجرها. والتزما الصمت. في غمرة الصمت شعر كليهما بالرغبة حارة، وجعلت شرارات حبهما القديم التي ردمت زمناً طويلاً تحت الشك والهوان، تشتعل.

ضم ڤلاديمير ڤاسيا بذراعيه القويين وغمرها بالقبلات:

ـ ڤاسيا حبيبتي.

استسلمت ڤاسيا إلى حبه المنسي بكليتها. في تلك اللحظة شعرت أنه يحبها حباً عصياً على القسمة. يحبها كما أحبها دائماً. ها هو ڤولوديا يخون نينا، لا بجسده فقط ولكن بباله وبمشاعره، مما بث في نفس ڤاسيا سعادة قاسية لم تعرفها من قبل. مؤلمة وممتعة. دعه يخون نينا هكذا إذن.

مرت أيام كابية غريبة. شرارة عواطفهما المتأججة تدخن مثل خشبة

نارية تهب عليها ريح الخريف. تشتعل وتنتشر لاعقة جراحهما المتفحمة وتتسلل إلى زوايا قلبيهما التي لم تتقرح بعد بفعل لهيبها.

كان ڤلاديمير رقيقاً، وقاسيا حنوناً. وكأنهما تجابا مرة أخرى. أكدا لبعضهما أنهما عاجزان عن الانفصال. وفي الليل يتعانقان ويرقدان خائفين من أن يفقد أحدهما الآخر. يقبل ڤلاديمير عيني ڤاسيا وتضم هي وجهه الحبيب إليها. لم يبلغ الحب بهما من قبل هذا المبلغ. أما الآن فقد بعث إحساس رائع بالحنين والسعادة المرة: كانا يعرفان أن التماسهما لبعضهما مرة أخرى يعني دفن حبهما وسعادتهما.

تضحك ڤاسيا وتمزح تارة وتنتحب تارة أخرى. وبينما كان ڤلاديمير يداعبها وينظر إلى عينيها، كان بوسعها أن تقرأ في عينيه حزناً عميقاً. بدا وكأنهما يودعانها دون كلمات. حتى لا تراهما ولا ترى دموعه، حتى تقتل الحزن الذي لا يطاق عانقته والتمست شفتيه. وما يزال يضمها إلى قلبه ويداعبها ملتمساً جسدها بنهم حتى بلغت النشوة وتداعى كل منهما إعياءً وغمرهما النوم.

أيام غريبة كئيبة. خانقة ومعتمة... لا سعادة حقيقية الآن، كأنما تبددت تلك البهجة المجنحة.. وليدة الحب.

- ١٣ -

•

وهكذا اتفقا على أن تمضي ڤاسيا لتعمل في مسقط رأسها موقتاً وبعد أن يستقر ڤلاديمير في البلدة الجديدة سوف تلحق به. لم يحددا بالضبط أين سيجتمعان، ولم يتطرقا إلى مسألة انفصالهما. ظاهرياً كل شيء بسيط وواضح ومعقول وصادق. الشيء الوحيد الذي أخفته ڤاسيا عنه هو أنها اختلست رسالة نينا، إنها وارتها واحتفظت بها. شعرت بأنها لا تزال بحاجة إليها.

في أية حال، ألحت ڤاسيا على ڤلاديمير أن يرسل لنينا برقية يقول لها فيها أنه سيصل إلى موسكو وحيداً. لم تعرف سبب هذا الإلحاح الذي كان له ثمن كبير، والذي شعرت أن عليها أن تقوم به دون أن تتبين له تفسيراً. ذهل ڤلاديمير لوهلة وبدت عليه ملامح الريبة والحذر، ولكنه أذعن في النهاية. وبعد ذلك بات أكثر محبة لها وعطفاً عليها.

ما عادت ڤاسيا تبالي. بدا أنهما احتسيا فعلاً آخر قطرات سعادتهما سوياً، وكانت هذه القطرات تحتوي على نشوة الحب المنحدرة ممزوجة بحزن الانفصال اللذيذ. غدت بشوشة منتعشة ـ منذ مدة طويلة لم يرها ڤولوديا بهذه الحالة.

قالت ڤاسيا مداعبة:

ـ أشعر وكأني لبست جلداً لا يناسبني. ما كنت خليقة بأن أكون زوجة

مدير، أليس كذلك؟ أنت بحاجة إلى زوجة من نوع آخر. لست خليقة بك.

اعترف ڤولوديا قائلاً:

- ما عدت أعرف أية امرأة أنت. كل ما أعرفه هو أنك عاودت طبيعتك القديمة: ڤاسيا الصلبة. ولن أتخلى عن هذا حتى لو كانت خمس لجان حزبية بحاجة إليك. ربما بعد حين. ولكن الآن لا أدري لماذا ننفصل.

ضحكت ڤاسيا. فليكن. ولماذا لا يزوران بعضهما زيارات قصيرة منذ الآن وصاعداً، لا كزوج وزوجة ولكن كصديقين يملك كل منهما حريته؟ وافق ڤلاديمير على اعتبار هذه العلاقة هي الأمثل والتي ستجعل الأمور بينهما أكثر يسراً، لكنه لا يزال يصر على أنه عاجز عن العيش بعيداً عنها:

- ليس لي في هذا العالم سوى قلة من الأصدقاء يا ڤاسيا، وفي هذه الفترة بالتحديد خاصة وأن كل الأمور تهوي إلى الحضيض. والجميع ينشدون عظم الكتف. أنا وأنت صديقان قديمان حميمان، أليس كذلك يا ڤاسيا؟

بات بوسعهما الآن أن يتحادثا وكأن الحاجز الذي كان ينهض بينهما قد تهاوى. وبدا وكأن هواجس ڤاسيا القديمة قد تبددت. ولكن بين الحين والآخر وبينما هي تتمتع بسكينتها النفسية كانت مشاعر الغيرة تُبعث على نحو مفاجىء. وأحياناً كان ڤلاديمير يبدو نائياً بلا سبب بَيِّن، فيعمد إلى الحديث عن نينا. إنها على يقين من أنها تكاد لا تبارح باله.

يقول إنها مثقفة وبوسعها أن تتحدث بالفرنسية مع الفرنسي والألمانية مع الألماني، لقد درست في معهد...

- إذا كانت مثقفة إلى هذا الحد فلماذا لا تعثر لنفسها على عمل؟ أم لعلها اعتادت أن تحيا عالة على الآخرين؟ إنها طفيلية حتى الأعماق، رغم أن العشيقة لا بد وأن تكون كذلك.

كانت ڤاسيا تدرك أن الحديث بهذه الطريقة خطأ لكنها ترغب في أن تخفف من ألمها على حساب ڤلاديمير.

ـ ڤاسيا، لماذا تتكلمين هكذا؟ تبدين قاسية. وكأنني أصغي لڤاسيا ديمينتوڤنا أخرى، لا ڤاسيا الجديرة بإعجابي.

ولكن رغم الخجل والجراح كانت عاجزة عن مغالبة رغبة لاراد لها في وخزه ووخزه إلى أن يفقد أعصابه فتدرك عندها ما الذي تفعل:

ـ حبيبي، أرجوك. . حاول أن لا تغضب مني، اغفر لي كوني قاسية. أنت تعرف كم أحبك. ولو كان الأمر خلاف ذلك لما تعذبت هكذا.

وإذا بهما يتعانقان ويتناسيان كل شيء عبر قبلات خانقة ونشوة ممارسة الحب. لا داعي للتفكير والمعاناة، فلينسى كل منهما كل شيء. وليحتالا على الحقيقة القاسية التي لا تطاق. .

بعد أيام ودعت ڤاسيا رفاقها في اللجنة الحزبية وعادت إلى المنزل لتحزم حقائبها. كان عليها معالجة كل شيء: تجمع الصناديق والحقائب، إعداد القش لتغليف أشيائها. سألت ماريا سيمينوڤنا عن كيفية حزم الأشياء بحيث لا تتحطم أو تتضرر في رحلتها إلى منزل المدير الجديد.

قالت ماريا سيمينوڤنا:

ـ ولم كل هذا الهرج والمرج؟ لست أدري لماذا تجهدين نفسك بهذا، ألم يقر قرارك على العودة إلى مسقط رأسك؟ صدقيني: ما أن ترحلي حتى تأتي عشيقته لتحل محلك. لماذا تجهدين نفسك من أجلها؟

لكن كلماتها لم تؤثر على ڤاسيا. ما عادت تشعر أنها تساعد ڤولوديا كزوجته. ولو كانت تشعر أنها زوجته لما فعلت ما تفعل ولانتقدت أساليبه البورجوازية. أما الآن وما دام هو ذاهب في طريقه وهي في طريقها الخاص فإنها لا ترى سبباً يحول دون مساعدته. تماماً كما يساعد الصديق صديقاً. إذ

أنها لم تعد تمسك في نفسها أي عتاب عليه. وإذا شاء أن يجر كل هذه التوافه معه فيحمل نظام النقل العام أكثر مما يحق له بصناديق الأواني الفخارية، وحقائبه المليئة بثياب الحرير فهذا شأنه. لو كانت مكانه لما نقلت كل هذا، ولكن لماذا لا تساعده في حزم حقائبه ما دامت لا تحفل بالأمر كله بعد؟

حين رآها ڤولوديا تقوم بذلك دُهش. لا داعي لأن تكون مدبرة منزل على نحو مفاجىء - قال - ما دام ايڤان ايڤانوڤيتش والمدراء على استعداد للقيام بذلك. وفي أية حال من سيرتب كل هذه الأشياء في بيته الجديد إن لم تأت هي بسرعة؟ قال:

- وماذا عن نينا كونستانتينوڤا؟ أم أنها لا ترغب في توسيخ يديها البيضاوين الجميلتين؟ لعل مثل هذا العمل لا يليق بسيدة مثلها. ولعلها لا تفعل سوى انتظار قيام الآخرين بخدمتها. تنتظر أن تحمل إليها وجبات الطعام على صوان من فضة. وتتمتع بثمار جهود الآخرين وأموالهم.

سرعان ما ندمت وشعرت بالغضب من نفسها لأن كلماتها تحز في نفس ڤولوديا ومرة أخرى لم تَتَبَيَّنْ أية قوة غامضة تدفعها إلى مثل هذا السلوك. رمقها ڤولوديا بنظرة معاتبة. فطوقته بذراعيها وعانقته.

- أوه يا حبيبي، إني أمقت نفسي لقسوتي عليك. إنما السبب يعود إلى حبي العارم لك. لا تسخط علي يا حبيبي إنما كنت أمزح.

دفنت رأسها في سترته ماسحة الدموع التي غصت في حلقها. إنها لا تزال تحبه. تحبه حباً جارفاً، تعاني من أجله، تخشى أن تفقده، ومن العيش بدونه.

واساها قائلاً:

- يا حبيبتي المسكينة. عزيزتي ڤاسيك الصغيرة. أعرفك جيداً، لهذا أحبك. ولن يكون بوسعي أن أنتزع نفسي منك. ليس لي في العالم كله ڤاسيا أخرى. ولن يكون لي صديق مثلك..

مرة أخرى دهمتهما تلك العاطفة المريرة واحتوتهما ودفنا ألمهما في عناق محموم.

ـ اتركي حيزاً في قلبك لحبيبك الفوضوي القديم.

ـ إذاً تذكرت حبيبتك قاسيك الصلبة وسعادتنا السابقة.

كانت تلك الأيام الأخيرة غريبة ومسكرة بالنشوة. خانقة ومظلمة.

•

- ١٤ -

قرعت قاسيا باب عِلّيتها حيث تعيش غروشا الآن. قيل لها أن غروشا عادت من العمل، لكن الباب كان موصداً. لعلها نائمة، التفتت فإذا بها تراها وهي تتراكض في الرواق حاملة إبريق شاي وماء ساخن.

- غروشا.

- قاسيليسا، يا عزيزتي. متى وصلت؟ ما كنت أتوقع أن أراك.

وضعت غروشا الإبريق جانباً وتعانقت الصديقتان بفرح.

- تعالي، خذي راحتك. تذكري أن العِلّية علّيتك وإنما أقيم فيها بفضلك. دعيني افتح الباب. لقد حصلت سرقات عديدة في هذا المنزل. وعليَّ أن أقفل الأبواب حتى حين أخرج لأحضر ماء. قبل أيام سُرق معطف السيد فورازهين الخريفي من على المشجب مباشرة، وهو معطف جديد. استنفرنا سكان المنزل جميعاً ودعونا المليشيا. لكنهم عجزوا عن اكتشاف أي شيء. حاصله، ها أنت قد عدت يا قاسيا إلى بيتك القديم. فلماذا لا تخلعين معطفك وتغتسلين بعد هذه الرحلة؟ كنت على وشك أن أعد شاياً. هل ترغبين في إصابة شيء من الطعام؟ ثمة بيض وخبز وتفاح.

بيت؟ قالت غروشا أن هذا هو بيتها. هل سيكون لها بيت حقيقي في يوم من الأيام؟. جال بصرها في العِلية. إنها العلية القديمة بلا شك ولكنها ما عادت عليتها. ثمة ماكينة خياطة ودمية لعرض الملابس في الركن.

وقصاصات قماش منتشرة هنا وهناك، وخيطان على الأرض. الجدران عارية وصور ماركس ولينين ومجموعة الرفاق التي علقتها حين احتفلوا بعيد الثورة. ليست معلقة. بدلاً منها ثمة مروحة ورقية حمراء وإلى جانبها بطاقة معايدة تصور بيضة فصح وأحرف ذهبية محفورة: المسيح قام. وثمة أيقونة في الركن أيضاً.

لم تكن غروشا عضوة في الحزب. كانت تؤمن بالله. وتصوم، رغم أنها تؤيد السوفييت وعلى علاقة صداقة بعدد من الشيوعيين. كان لها في الماضي خطيب قاتل مع البيض ولم تعرف إن كان حياً أو ميتاً. كانت تقول: سوف يلعنني من العالم الآخر إن انضممت إليكم.

للوهلة الأولى لم يكن بوسع ڤاسيا أن تفهم كيف يمكن لغروشا أن تحب جندياً أبيض، لكنها الآن تدرك أن للعواطف قوانين خاصة بها. لقد ذهب ڤلاديمير وهي كلٌ في طريق منفصل، إلا أن حبهما ظل حياً لا يمنحها سكينة ولا هدوءاً.

غمر الفرح غروشا لرؤية ڤاسيا فأسرفت في الأسئلة. لماذا لم يزداد وزنها رغم كل المال الذي يملكه زوجها؟ لقد عادت نحيلة كما ذهبت، لا بل أضعف.

لاذت ڤاسيا بالصمت. كانت تحسب أنها بمجرد رؤية غروشا سوف تعانقها وتنتحب شاكية لها مشاكلها، إلا أنها الآن وقد جلست إزاء غروشا لم تجد الكلمات المناسبة. كيف تبدأ بوصف معاناتها؟

سرعان ما سمع سكان البناية بوصول ڤاسيا. ففرح بها السكان القدامى ودب الفضول في الجدد ليروها. وتخوف ممثل لجنة الإسكان من تدخلها في شؤونه الإدارية مرة أخرى.

كان الأطفال الأعضاء في نادي الأطفال أول من هب لرؤيتها في غرفة غروشا. وسرعان ما حمل لها أكبرهم الشكاوى. أنبأها أن نادي الأطفال

قد أغلق نتيجة الخطة الاقتصادية الجديدة، وأعلنت السلطات استحالة إعادة شرائه من الدولة، ما دامت هذه الجهات تحتاجه لأشياء أخرى. فأين سيعد الأطفال دروسهم بعد الآن؟ لقد نقلت مجموعة دروس الأشياء botanical أما محتويات المكتبة فقد وزع بعضها على مكتبات أخرى وبيع بعضها الآخر.

دهشت ڤاسيا لهذا النبأ وسارعت لمعالجة الوضع. ستذهب اليوم بالذات إلى دائرة الإسكان. لا اعتراض لها على السياسة الاقتصادية الجديدة ولكن كيف يتجرؤون على ما نظمه العمال بأنفسهم. قالت: سوف أكافح هذا القرار، لا تقلقوا أيها الأطفال، سوف أدافع عن حقوقكم. لن أدعهم ينفذون قرارهم هذا، ولو اقتضى ذلك ذهابي إلى موسكو.

ضحك الأولاد الكبار. كانوا واثقين من أن ڤاسيا سوف تدافع عنهم. وها هي ستهب للدفاع عنهم. لقد اشتهرت كمناضلة لا تلين لها قناة، وكان هذا صحيحاً.

بعد ذلك أقبل السكان القدامى ليرحبوا بها وكل منهم متلهف ليحكي عن مشاكله وقصصه. أصغت لهم بنفس الانتباه الذي عرفت به دائماً. وراحت تستجوب كل واحد منهم وتسدي المشورة وتواسي. وسرعان ما ازدحمت العِلية بالناس وغصت بالمراجعين.

قالت غروشا:

- اسمعوا أيها الأصدقاء، أليس بوسعكم أن تنتظروا قليلاً. لم يتسن لها أن تتناول لقمة من الطعام بعد رحلتها والمسكينة مرهقة. بوسعكم أن تفكروا بليالي السفر المرهقة بدل أن تنهمروا عليها بمطالبكم.

قالت ڤاسيا:

- لا يا غروشا، أرجوك لا تعترضيهم. لست مرهقة أبداً. ما الذي كنت

تقوله يا تيموفي تومو فيڤيتش؟ أوه صحيح، كنت تتحدث عن ضرائبك.
إنني لا أفهم ذلك، فأنت لست ملاك أرض ولا مدير..؟

ما إن نطقت بهذه الكلمة حتى خطر ڤولوديا على بالها، ولوهلة شعرت بالألم القديم مرة أخرى. لكن هموم الآخرين سرعان ما طمسته. ليس لديها متسع من الوقت لتفكر.

حين بدأوا يغادرون الواحد تلو الآخر أعدت ڤاسيا نفسها للذهاب إلى اللجنة الحزبية. كانت راغبة في معالجة الأمور حتى أنها لم تنتبه إلى مدى إعيائها. وبينما كانت تزرر بلوزتها راحت تصغي إلى أخبار غروشا: فلانة الفلانية تزوجت، فلان الفلاني ترك الحزب، فلان انتخب عضواً في السوفييت. فجأة انطلق صوت السيدة فيوديسيڤا في الرواق:

- أين هي حبيبتنا الصغيرة، ملاكنا الحارس، ڤاسيليسا ديمنتوڤنا؟ وبحركة سريعة اندفعت نحو ڤاسيا وضمتها.

- أوه يا ملاكي طالما انتظرت عودتك. أنت أملي الوحيد الآن. قلت لنفسي ما إن تعود ملاكنا الحارس حتى تحل لي كل مشاكلي. فلن يجرؤ على إهانة زوجته الوفية هكذا. التعيس سوف يخجل من تحويل البناية إلى ماخور - هو وهذه العاهرة. ڤاسيتنا سوف تشفق علي أنا التي بت أكافح من أجل صغاري المساكين وحيدة. سوف تقوده إلى العدالة، عندها سوف يضطر إلى تنفيذ ما يقوله الحزب. أنت أملي الوحيد يا عزيزتي.

من عادة ڤاسيا أن تدرك مشاكل الآخرين بسرعة، إلا أنها لم تفهم عن ماذا تتحدث السيدة ڤيودوسيڤا. لا شك في أنها تغيرت كثيراً. إذ كانت امرأة قوية ذات صدر ضخم، أما الآن فهي تبدو عجوزاً صفراء وشرسة.

راحت تحكي لڤاسيا قصتها. فأنبأتها أن ڤيودوسييڤ على علاقة بيهودية لم تتعمد تدعى دورا. وقد هجر زوجته في سبيلها، وهو الآن

يلحق بـزوجته الهـوان تحت سمع وبصر الجيـران جميعـاً. لقـد نبـذ أولاده بطريقة مخجلة. وهو ينفق كل نقوده على عشيقته. ويقول لها:

- دعيني أقيم معك، بوسع عائلتي أن تموت في حفرة فأنا لا أكترث، ولكن لا تتخلي عني.

بصقت السيدة فيودوسيڤنا وقالت:

- ماذا ترى دورا الحمقاء الصغيرة فيه؟ حتى إنه ليس رجلاً حقيقياً. أوه، يا وجـه الفأر يـا قميء ثمـاني سنـوات وأنـا أحتمـل وأقبـل وجهـه المشـوه بـالجدري من أجـل أطفالنـا. كنت أقـول لنفسي: «مهما كنت قبيحـاً يـا ڤـاسيليڤيتش فإن القـدر قد ربط مـا بيننا والكنيسـة زوجتنا، لهـذا سوف اضطر لاحتمالك». كنت أحس طوال الوقت أنه يبعث على الاشمئزاز، طـريقته بتقبيـلي مثلاً، لكنني تحمّلت ونـاهضت ولم ألق نظرة عـلى رجـل آخـر، حسبت أنه قـد يشعر بـالامتنان - لكنني ضيعت شبـابي عـلى هـذا المشوه بالجدري هذا القميء. والآن انظري ماذا حصل. ما إن تقـدمت في العمر حتى شرع يلاحق الفتيات. وهـا هو يتـورط مع هـذه اليهودية ويعرض غسيله الوسخ للجيران.

كـانت السيدة فيـودوسيڤا تنتحب. وبينـما راحت ڤاسيـا تصغي فاض قلبها بالمشاعر. فقد تجلى حزنها في حزن السيـدة فيودوسيڤـا، تولتهـا كآبـة حادة لدى ثورة مشاعرها القديمة بهذه الطريقة.

فجأة شعرت بالإعياء والهبوط. وتبددت رغبتهـا في المضي إلى اللجنة الحـزبية. كـل ما تـرغب فيه الآن هـو أن تدفن رأسهـا في وسادة وتـواري وجهها. لكن السيدة فيدوسيڤا واصلت نحيبها وهي تقبل كتفيها وتتوسـل «ڤـاسيليسا الحكيمـة» أن تعيد إلى زوجهـا رشده، وأن تـدافع عن حقـوق أطفالها بأن تهدده بالمحكمة الحزبية. لكن مـا إن وصلت ڤاسيـا إلى اللجنة الحزبية حتى نسيت كـل شيء. هناك شعـرت أن لا قيمة لأي شيء سـوى

الحزب. جادلتهم بحدة واستقصت عن مكتبة الأطفال.

واستغرقتها هذه المهمة فارتفعت معنوياتها، بعد حين عادت إلى المنزل ومعها أصحابها. لديهم الكثير من الأمور التي تستحق النقاش، كانت فرحة تمور بالحيوية حتى أنها هرولت إلى العلية بسرعة وخفة، وعندها فقط أدركت كم هي متعبة.

بينما كانت غروشا تعد العشاء، رقدت ڤاسيا على السرير، وسرعان ما استسلمت لنوم عميق. تأملتها غروشا ولم تدر أتوقظها أم لا؟ بدت ڤاسيا منهكة فقررت أن تتركها نائمة. جردتها من ثيابها كطفلة ثم من نعليها ثم بسطت عليها غطاء. جللت المصباح بشالها وجلست تسوي عوى الأزرار.

فجأة سمعت قرعاً على الباب. من يا ترى؟ تساءلت غروشا مغضبة للازعاج. فتحت الباب فأطل وجه زوج فيودوسيڤا. سألته:

ـ ماذا تريد؟

ـ جئت لأرى ڤاسيليسا ديمنتيڤنا. هل هي موجودة؟

ـ هل جننتم جميعاً؟ لقد أرهقتها رحلتها الطويلة، فقد قضت أكثر الليالي دون أن يغمض لها جفن، وإذا بالناس يزعجونها ويندفعون نحوها مثلما تندفع الكلاب الجائعة نحو عظمة. ڤاسيليسا ديمنتيڤنا نائمة.

وقفت غروشا بالباب تلقي محاضرتها على ڤيودوسيڤ المسكين الذي ألح على رؤية ڤاسيا. إلا أن غروشا تأبت، فوافق أخيراً أن يعود في اليوم التالي. صفقت الباب في وجهه. قذر تافه. ماذا عن زوجته الوفية وأولاده الثلاثة، بينما تكشف دورا عن بطنها الكبير. ليعالج مشكلته بنفسه. كانت غروشا تحتقر فيودوسيڤ وما كانت متعاطفة مع دورا، التي تقيم علاقة مع رجل متزوج كهذا وكأن غير المتزوجين قد اختفوا.

لم تكن غروشا لتنسى خطيبها وها هي الآن «تحافظ على طهارتها». وقد طبقت هذا المنطق المتشدد على الجميع.

- ١٥ -

عندما استيقظت ڤاسيا شعرت بالسكينة والوضوح. تراقصت شمس خريفية خلال النافذة ونثرت ذهبها على آلة الخياطة. كانت غروشا تسخن المكوى لتسوي ثوبها.

سألت ڤاسيا:

- لمن هذا الثوب؟

أجابت غروشا:

- لسكرتيرة اللجنة التنفيذية، اليوم عيدها.

- صحيح؟ ألا يزال الناس يحتفلون بأعياد أسماء قديسيهم؟ حتى اليوم؟

- نعم. وبروعة تفوق عهد الأرستقراطية. ينبغي عليك أن تري الموائد التي تزدحم بالولائم. بالطعام والنبيذ والڤودكا...

أرسلت المكوى هسيساً فتوقفت غروشا عن الكلام. انكمشت ڤاسيا على نفسها في السرير الضيق المألوف. لقد نامت مع ڤولوديا في هذا السرير. كيف كان يتسع لهما. ألم يضيق بهما السرير الواسع مؤخراً؟ كانت الأمور في الأيام الخوالي مختلفة.

تولت قلبها كآبة سوداوية هددت بإفساد سكينتها الذهنية. لكنها استعادت سكينتها تدريجياً مثل حديقة بعد أن عصفت بها عاصفة عنيفة. لعل الجزء الأعنف من العذاب قد ولى.

فجأة تذكرت غروشا الموعد الذي عينته لفيودوسيف. قالت ڤاسيا.

ـ دعيه يدخل إذن.

إلا أنها كانت مترددة ومنزعجة لاضطرارها إلى التورط مع الزوجين ڤيودوسيف مرة أخرى. لماذا يعاني هذان التعيسان من بين الناس جميعاً نفس معاناتها؟

سألت غروشا عن دورا.

ـ ألا تتذكرينها؟

سألت غروشا بدهشة.

ـ إنها تلك الفتاة السمراء الجميلة. لقد رقصت مرة رقصة الدف الصغير في عيد الكومسومول.

تذكرت ڤاسيا أنها كانت معجبة بها. كانت في لجنة الثقافة العليا وتعمل بين الدباغين. كانت ذكية، صبية فتية، وغنت غناء جميلاً. مسكينة السيدة فيودوسيڤا، أية مقارنة!

لم توافق غروشا على رأي ڤاسيا. قالت:

ـ عليك باتباع القوانين. لو سمح الشيوعيون للأزواج بأن يتصرفوا هكذا، لكان بوسع كل رجل أن يهجر زوجته وأطفاله ويهرب مع فتاة أصغر.

لقد سمعت أنهم يعدون قضية ضد دورا في الحزب.

قالت ڤاسيا وهي تتأهب للدفاع عن دورا:

ـ إذن هذا من صنع السيدة فيودوسيڤا. إنها امرأة مثيرة للاشمئزاز. ليس ثمة قانون يفرض على الزوج أن يعيش مع زوجة لا يحبها. لا يسع القانون أن يجبر ڤيودوسيف على مضاجعة زوجته بالقوة. في أية حال، إنها مشاغبة وتبغضه.

كانت ڤاسيا مضطربة اضطراباً نفَّست عنه ببغضها للسيدة فيودوسيڤا. ولكن بينما كانت تجادل غروشا في موضوع السيدة فيودوسيڤا كانت تفكر طوال الوقت بڤلاديمير. وأثناء دفاعها عن دورا كانت ترى شريط مظلة أبيض وشفتي نينا الحمراوين. . .

دهشت غروشا لتورط ڤاسيا عاطفياً إلى هذا الحد في قضية الزوجين فيودوسيڤ. قالت:

ـ قد يعتقد المرء أنها أصدق أصدقائك. ألا تتذكرين كيف كنت تتشكين منها؟ وكل تلك المشاكل التي كانوا يثيرانها في وجهك. أنصحك ألا تورطي نفسك في هذه الفضيحة. طبعاً القرار قرارك. بوسع الكلاب أن تحل مشاكلها فيما بينها. فدعيهما يعالجان مشاكلهما وحدهما.

لكن ڤاسيا ألحت على أنها ستعمد إلى الدفاع عن دورا إن رفع أحدهما دعوى ضدها. هل تعتقد السيدة فيودوسيڤا حقاً أنها تملك هذه الحقوق عليه لمجرد كونها زوجته الشرعية؟ فإذا كانت تعتقد ذلك فهي مخطئة. فثمة حقوق أخرى وليس هناك قوانين بوسعها أن تفرض نفسها على مشيئة القلب. وما من إنسان يستطيع أن يعارض هذه المشيئة مهما بلغت قوته. فلكل امرىء حاجاته الخاصة.

كانت غروشا تكوي الثوب. اختلست النظر إلى ڤاسيا وكأنما تريد أن تقرأ أفكارها. عبست ڤاسيا. لماذا تحدق غروشا إليها بهذه الطريقة؟ أليست على حق؟ أية قوانين تريد غروشا أن تفرضها على عمل القلب.

قالت غروشا:

ـ لا أحد يستطيع الإجابة. طبعاً المهم هو مشاعر الناس، المرء ليس إنساناً بلا مشاعر. ولكن حين نظرت إليك الآن يا ڤاسيا أدركت كم تعانين. وكم أنت مليئة بالاستياء والغيظ. وأكاد أقسم أنك حين دافعت عن ڤيودوسيڤ الزوج بهذه الحدة إنما كنت تفكرين بزوجك وتحاولين أن

تخترعي له عذراً. هذا هو التفسير الوحيد لموقفك.

غضت ڤاسيا بصرها ولم تنبس. وامتنعت غروشا عن طـرح الأسئلة. تناولت الثوب هزته ثم انتزعت الخيوط المفككة. بات جاهزاً.

سألت ڤاسيا شاردة:

ـ هل انتهيت؟

ـ نعم، انتهيت.

ـ حسن يا غروشا، سوف أمضي الآن إلى اللجنة الحزبية. إذا جاء السيد ڤيودوسيڤ قولي له أن ينتظر.

تنهدت غروشا:

ـ حسناً.

وهكذا بدأت فترة نشيطة جـديدة في حيـاة ڤاسيـا. عليها أن تستشـير ستيبان اليكسيڤيتش قبل أن تمضي إلى عملها في مصنع النسيـج. وأن تقرأ تعليماتها بإمعان وأن تجتمع عدة أمسيـات مع العمـال الفنيين. مـر الوقت بسرعة ولم تجد ڤاسيا الوقت الكافي للتفكير في مشاعرهـا ثم هنالـك مشكلة الزوجين فيودوسيڤ وعليها أن تحلها، ومشكلة دورا أيضاً. في النهـاية لجـأ ثلاثتهم اليها حاملين مشاكلهم وعجزت هي عن التخلص منهم.

روى لها ڤيودوسيڤ ما حدث من وجهـة نظره. لقـد تعارف إلى دورا ابراموڤنا من خلال دائرة التعليم العالي. كـان يغني في جوقـة من المرتلين. واعجبت دورا ابراموڤنا بصوته الجهوري واقترحت عليه أن يأخذ دروساً موسيقية. كانت هي تتقن العزف. قدمته إلى الدائرة، ثم تطورت العلاقة بينهما.

حين عرفت زوجتـه عن العلاقـة صبت عليه نـار جهنم. وثار غضب غيودوسيڤ عندما راحت زوجته تنشر حولها الشـائعات والفضـائح وتؤلب أصدقاء دورا ابراموڤنا عليها. كانت تزعم كذباً أن دورا ابراموڤنا تلاحقه من

أجل ماله. وإنها تعتاش على ما يكسبه. والحقيقة على العكس من ذلك. كانت دورا ترفض أن تأخذ منه كوبيكاً واحداً. لا بل كانت مهتمة بوضع عائلته، وعلى إستعداد لمنحهم آخر كوبيك في جيبها. لطالما كانت تميل إلى الأطفال وتحفل بهم. وهي التي وجدت لأطفاله الصغار أماكن في روضة الأطفال. وهي التي أحضرت لولده البكر الذي كان في المدرسة كتباً ودفاتر. وطبعاً، قامت بكل هذا دون أن تعلم زوجته.

ودورا هي التي زودت فيودوسيڤ بربطة عنق وقميص ليضعهما في الحفلات الموسيقية. ولكن الناس قلبوا الآية بدافع من نكاية. إن قلب فيودوسيڤ ينزف من أجل دورا. انه لا يكترث بسمعته، إنما هو لا يحفل إلا بها. ماذا لو تسببت لها هذه العلاقة بمتاعب مع الحزب؟ إنها غلطة زوجته التي وقفت في طريقهما.

أثناء حديث فيودوسيڤ كانت ڤاسيا تفكر في ڤلاديمير ونينا. لا بد أنهما تعرضا لمثل هذا العذاب حين كانا يفكران بحل للمشلكة. لا بد وأنهما كانا غاضبَين من ڤاسيا تماماً مثل هذين لأنها وقفت في طريق سعادتهما. على فيودوسيڤا أن تتنحى جانباً وتخلي لهما الطريق. عليها أن تكف عن التشبث بالماضي فتحول دون سعادة الحاضر. فهذه محاولة لا جدوى منها في أية حال، إذ للسعادة حركتها الذاتية وزخمها الخاص.

لكن ڤاسيا عادت وتساءلت إن كان يحق لها أن تتكلم في هذه المسألة، هي التي لا تزال تقف عائقاً وتتشبث بسعادة الماضي. من الواضح أن فيودوسيڤ متيم بدورا. إذ ما أن يذكر اسمها حتى يتحول إلى شخص رقيق. ڤلاديمير ايضاً كان يتحول حين ينطق باسم نينا.

كان فيودوسيڤ يقول:

- لدورا ابراموڤنا قلب من ذهب. كل النقابة معجبة بها. وغير الحزبيين لا يكادون يصدقون أن الحزب سيحاكمها. لا بل بعضهم فرح لذلك. إنهم

يقولون أن ذلك سيدفعها إلى صفوفهم، وأنهم سيقفون إلى جانبها ويمنحونها ولاءهم.

ما أن ذهب فيودوسيڤ حتى اقبلت السيدة فيودوسيڤا واندفعت نحو ڤاسيا وجعلت تقبلها متأملة أن تنحاز ڤاسيا نحوها. شعرت ڤاسيا بالبغض تجاه هذه المرأة في تلك اللحظة، وبغضب دفعتها بعيداً. منذ تلك اللحظة صبت فيودوسيڤا جام غضبها على ثلاثتهم: دورا وزوجها وڤاسيا وراحت ترميهم بأقذع الشتائم.

دبرت ڤاسيا لقاء بينها وبين دورا في اللجنة الحزبية. انتحت بها جانباً في ركن غرفة تزدحم بالطابعات على الآلة الكاتبة. ساعدهما الضجيج الذي ترسله الآلات على تبادل الحديث من دون أن يسمعهما أحد.

كانت دورا تضع شالاً حول جسدها لتخفي كونها حاملاً. بادرت هي إلى الحديث، لم تتحدث عن نفسها، تحدثت عن فيودوسيڤ.

قالت إنها مهتمة به وأنها معجبة بموهبته. إنه يتمتع بصوت رائع يشبه صوت شاليابين. لكنه يحتاج إلى التدريب فقط. ولهذا السبب تلح عليه دورا أن يترك اسرته ويتزوجها. بوسعه عند ذاك أن يترك عمله ويتفرغ للغناء. لكن رغم مديح دورا لفيدوسيڤ فقد انتقدت تردده. إنه على استعداد للقيام بأي شيء حين يكون معها، يوافق على أن ينفصل عن زوجته ويطلقها ولكن ما أن يعود إلى منزله حتى ينكث الوعد ويرجع عن ما قطعه. انه عاجز عن المواجهة. وبالتالي يضطران إلى إعادة «هذه الاسطوانة» من جديد عوداً على بدء. إن دورا تناضل على هذا المنوال منذ أشهر وأشهر لكنه لم يتقدم شبراً واحداً.

تولى ڤاسيا شعور بالامتعاض وهي تصغي. لا شك في أن نينا كانت تتحدث هكذا عن ڤلاديمير.

كانت دورا ترى أن التقاليد المتعلقة بالزواج والطلاق غير ضرورية مجرد

(كلام فارغ) تقول. إنها مع العلاقات الحرة، لكن السيدة فيودوسيڤا لن تتركهما بسلام إلا إذا سجلا في المفوضية. وهكذا اصبحت دورا حاملاً كي ترغم فيودوسيف على الطلاق. ليست خائفة من أن تغدو أماً، وبوسعها أن تدبر امورها من غير أب إذا ما اضطرت.

تساءلت ڤاسيا: هل فعلت نينا ذلك يا ترى؟ هل حملت كي يُضطر ڤلاديمير إلى اللجوء إلى الطلاق.

ولا تزال دورا تتحدث وتحث ڤاسيا على التعاطف معها حتى شردت ڤاسيا مع افكارها. دورا لا ترى إلا الجانب الإيجابي في ڤيودوسيف. لا شك في أن نينا تحب ڤلاديمير بنفس الطريقة. لكن ڤاسيا عاجزة عن مثل هذا الحب. كانت تعرف سلبيات ڤلاديمير وتحبها. حبه كان يعني المعاناة بسبب سلبياته، والرغبة في مساعدته ليتخطاها، ولعل هذا ما آذى ڤلاديمير في نفسه.

سألت دورا بغضب:

- لماذا تتشبث زوجته به إلى هذه الدرجة؟ هل تحابا يوماً ما؟ إذا حدث هذا فلا بد أنه وقع منذ فترة بعيدة، لأنهما يفتقران لأي مشترك بينهما الآن. هل تعرفه معرفة حقيقية وتقدره؟ هل تتفهم فعلاً حاجاته؟

فكرت ڤاسيا: هذا ما حدث لي ايضاً. هكذا كانت علاقتي بڤلاديمير، هو لا يعرف ما الذي أرغب فيه، وأنا لا أدري ما الذي يريده. لهذا افترقت دروب مسالكنا.

قالت دورا:

- إنه غريب تماماً بالنسبة للسيدة فيودوسيف، إنهما يختلفان في كل شيء تقريباً. أذواقهما مختلفة، طموحاتهما متباينة. إنها تتشبث به لمجرد كونه زوجها. إنها لا تحتاج اليه كشخص ابداً. إنه ليس ضرورياً لها.

وحين وجهت ڤاسيا نفس هذه الأسئلة إلى نفسها ادركت بوضوح أنها لم تعد بحاجة إلى ڤلاديمير كما هو الآن.

تابعت دورا:

- أي ضرب من ضروب الحب هذا؟ إنهما لا يتفقان على أي شيء. ليس بينهما سوى الشجار ثم يذهب كل منهما في طريقه، بلا صداقة ولا ثقة بينهما «نعم نعم» وافقت ڤاسيا بصمت. لا صداقة ولا ثقة.

- أما أنا وفيودوسيڤ فنتفاهم دون حاجة إلى كلام - عقلانا يعملان حسب نفس الموجة.

لا شك في أن نينا وڤلاديمير تحابا هكذا. بدأت ڤاسيا تدريجياً وببطء تفهم الكثير من الأشياء، الكثير من المشاعر..

كان على ڤاسيا أن تقوم بمهمات حزبية مستعجلة، لكنها على الرغم من ذلك لم تهمل قضية الزوجين فيودوسيڤ. فسعت جاهدة متعجلة طلاقهما. فراحت تصالح فيودوسيڤ مع أصحابه وتجمل صورة دورا في عيون الحزب. لسبب ما لم تعرف له مصدراً محدداً شعرت أن هذه المهمة هامة جداً.

غادرت ڤاسيا اللجنة الحزبية وتوجهت صوب بيتها. كان عليها أن تمضي في اليوم التالي إلى مصنع النسيج، وشغل بالها بخواطر تتعلق بالعمل، كيف تعيد تنظيمه وكيف تنفذ تعليمات الحزب وكيف تتواصل مع العمال غير الحزبيين ايضاً إذ باتت ميول العمال غير الحزبيين الآن قريبة جداً من اتجاهات الحزبيين الشيوعيين. الاعتماد عليهم بات ممكناً. كانت تثق بهم وبقدرتهم على سبرغور الوقائع وعلى التساؤل حول كل شيء. إذ انهم لا يأخذون الأمور كتحصيل حاصل بدافع من ثقة. سوف تحدد لهم وظائفهم قبل أن تنشغل بآرائهم السياسية. ولا تزال ڤاسيا تفكر بهذه القضايا حتى نسيت حزنها السابق. ما عادت تفكر في أنها فقدت زوجها وصديقها. لا بل

ما عادت تذكر موضوع وقائع ذلك الصيف حين كانت زوجة المدير.

وبينما هي تمشي بخطى سريعة تذكرت انها لم تصب شيئاً من الطعام منذ الصباح، لكن مجرد التفكير في الطعام جعلها تحس بأنها تكاد تتقيأ وبدأ رأسها يدور. متى هي من الأيام؟ هل هي مريضة.. أم أنها..؟ ثمة علامة استفهام غير مبلورة في ذهنها. أليس هذا هو الشهر الثالث الذي لم تأتها العادة الشهرية فيه؟ ينبغي أن تمضي إلى صديقتها الطبيبة ماريا اندريڤنا التي تقطن في الشارع المجاور. لقد عملتا معاً فترة لتنظيم دور حضانة للمنازل الجماعية. بوسع ماريا اندريڤنا أن تفحصها وترى إذا كان مرضها يحول دون ذهابها.

انفتلت ڤاسيا نحو الشارع، سعت إلى باب أبيض وقرعت الجرس. بادرت ماريا اندريڤنا إلى فتح الباب وابتهجت حين وقع بصرها على ڤاسيا.

ـ ما غرضك من زيارتي؟ عمل أم أنك تنشدين نصيحة؟

فجأة غمر الارتباك ڤاسيا فتضرجت وجنتاها.

رمقتها ماريا اندريڤنا بنظرة ثاقبة ثم اخذتها من ذراعها.

قالت:

ـ تعالي إلى عيادتي لافحصك.

سألت ڤاسياعن شهيتها، عن عادتها الشهرية، عن شعورها بالغثيان. لكنها بدت وكأنها تعرف كل الإجابات مسبقاً. ثم فحصتها. لم ترتح ڤاسيا لكل هذا وأحست بالغرابة. لم تفحص من قبل امرأة ـ طبيبة في السابق. حين رقدت على سرير الفحوصات دهمها الرعب.

بعد الفحص وبينما كانت ترتدي ملابسها ارتعشت يداها حتى انها وجدت صعوبة في معالجة ازرارها. كانت ماريا اندريڤنا تقف وراء حوض الماء مرتدية معطفها الأبيض وراحت تغسل يديها بالماء والصابون.

قالت قاطعة الصمت:

ـ عزيزتي ڤاسيليسا، لا أدري إن كان علي أن اهنئك ام اواسيك، لكنني على يقين من أنك حامل.

هتفت ڤاسيا:

ـ حامل؟

إبتسمت إبتسامة عفوية حين فكرت بالطفل.

أضافت الطبيبة وهي تجفف يديها:

ـ ماذا تنوين أن تفعلي؟ هل ستعودين إلى زوجك؟

هزت ڤاسيا رأسها سلباً وقالت:

ـ إلى زوجي؟ أوه، لا. لا لن أعود إليه ابداً، لقد انفصلنا نهائياً.

ـ إذن لقد انفصلتما ها؟ لا أعتقد أن توقيت الحمل مناسب اليس كذلك؟ كيف تحسبين انك ستتكيفين مع هذا الوضع يا عزيزتي؟ لعلكما تستطيعان أن تسويا مشاكلكما بعد، كيف يسعك أن تتدبري أمر طفلك وحدك؟ وأنت لست امرأة قوية.

قاطعتها ڤاسيا قائلة:

ـ لكني لن أكون وحيدة. غداً سوف أمضي إلى مصنع النسيج. ثمة خلية رائعة من العمال هناك. معظمهم من النساء، وهناك سوف ننشىء حضانة. وبالمناسبة أردت أن أسألك كيف استطعت أن تعاودي شراء الحضانة من الدولة؟ هل تنصحيني حول هذا الموضوع

وشرعتا تناقشان مسألة الحضانة. والمعونات والديون ومرتبات الموظفين المختصين. . ونسيت ڤاسيا موضوع الحمل، ولم تتذكر ذلك إلا حين ذكرتها ماريا اندريڤنا وهي تودعها.

- لا تجهدي نفسك في العمل يا ڤاسيا. تذكري انك لست قوية. لا أستطيع مغالبة قلقي عليك.

إنهالت على ڤاسيا بالنصائح، فقالت لها ما ينبغي أن تفعل وما ينبغي أن لا تفعل. وحفظت ڤاسيا كل هذا من أجل الجنين.

عادت تمشي في الشارع وهي تبتسم. طفل. رائع. سوف تكون والدة نموذجية. من المفروض أن تكون تربية الطفل على الطريقة الشيوعية شيء ممكن. ليس ما يدعو النساء إلى إقامة الأسر مع ازواجهن إذا كان ذلك يعني تقيد النساء بالطبخ والأعمال المنزلية. من الأفضل لهن إقامة دار حضانة وإعادة الحصول على نزل للأطفال. وسوف يكون ذلك مثالاً لتربية الأطفال بالنسبة للجميع. وما زالت تفكر في هذا الأمر حتى تبخر ڤلاديمير من افكارها تماماً وكأن لا علاقة له بالطفل.

ما أن وصلت ڤاسيا إلى البيت حتى جعلت تحزم حقائبها استعداداً للرحيل إلى المصنع. فجأة وقع بصرها على صندوق يحتوي على رسائل ڤولوديا القديمة وصورة له. فوق هذه الرسائل مظروف رسالة نينا كونستانتينوڤا القرنفلي. رنت اليها وقلبتها. ادركت أن الرسالة ستثير التداعيات المؤلمة السابقة والأسى نتيجة لكذب ڤلاديمير وخداعه. إلا أنها رغم ذلك حملتها وجلست إزاء النافذة لتقرأها مرة أخرى. إن ضوء النهار يخبو.

فضت الرسالة وراحت تقرأها سطراً سطراً. لم تشعر بالكآبة كسابق عهدها. لقد فقدت الأفعى سمها، وثبت قلبها في مكانه. دهمها شعور الحنو والشفقة على نحو مباغت. ذرفت الدموع لنينا كونستانتينوڤا، لعذاب هذه المرأة المسكنية وآلامها. تذكرت كيف مسحت نينا دموعها بأطراف اصابعها حين غادرت منصة الفرقة الموسيقية. لماذا فرض عليها أن تعاني هكذا؟ لا شك في أنها عانت الكثير من العذاب والقلق! وكانت تحمل جنيناً في رحمها

ايضاً، وكان عليها أن تتخلص منه. قامت قاسيا إلى الطاولة ازاحت الثوب الذي تخيطه غروشا جانباً، وبادرت إلى الحبر فوضعته أمامها وراحت تكتب.

عزيزتي نينا كونستانتينوڤنا

«أعرف من أنت. لم يقع بصري عليك سوى مرة واحدة، وفي تلك المرة لم اشعر بميل اليك - اقولها بصراحة - ولكن حين انصرفت عن المنصة ورحت تبكين، ادركت فعلاً كم أنت تعيسة وشعرت بالشفقة نحوك. لقد قرأت لتوي رسالتك لڤلاديمير ايڤانوڤيتش مرة أخرى والتي سأعيدها لك إذ أنني ارتكبت خطأ باختلاسها منه. ولكني اعتقد أنها قامت بدور إيجابي ولذلك أرجو أن لا تسرفي في الغضب مني.

لقد فكرت ملياً في رسالتك، والآن وبعد أن أعدت قراءة رسالتك أدركت أنني لا أشعر بالغضب أو الضغينة تجاهك بعد. أدركت كم عانيت بسببي. لقد قلت هذا لڤلاديمير وسأقوله الآن لك: لنكف عن لعب الغميضة مع بعضنا البعض.

عليك أن تتزوجي من ڤلاديمير ايڤانوڤيتش وتصبحي زوجته الوفية. لا شك في انك تناسبيه اكثر مني. ما عاد بوسعي أن أبقى زوجته لأن ميولنا قد تغيرت. لقد تغيرنا كثيراً وبتنا منفصلين تماماً. ما عدت أفهم بماذا يفكر وهو من جهته لا يفهمني.

حياتنا ما عادت تمنحنا سوى الشقاء - وكان مقدراً لها أن تكون كذلك حتى لو لم تكوني معنية. لم ننفصل لأنك أخذت ڤلاديمير مني، ولكن لأن قلبه ما عاد يحمل لي حباً.

سوف أحيا الآن كما كنت قبل أن التقي بڤلاديمير. إنه كل ما هو لك في هذه الدنيا. ليس لك أي شيء آخر تعيشين من أجله، وهذا هو الحب الحقيقي بين اثنين. إن زواجنا هو زواج قائم على القانون العادي. وبالتالي

فنحن بحاجة إلى الطلاق. انني لا أحمل لك أية ضغينة، ولو كنت أعرف انكما متحابان إلى هذه الدرجة لاتخذت هذه الخطوة منذ زمن طويل. قولي لڤلاديمير ايڤانوڤيتش أنني لست غاضبة منه وأنني سأبقى صديقة له كما كنت دائماً. إذا احتجت إلى مساعدتي فإني على إستعداد للمساعدة. كنت أشعر بعداء حاد نحوك ولكني الآن وبعد أن تفهمت الوضع فإنني أشعر بالأسى لكل الدموع التي ذرفت ولكل معاناتك وقلقك. وكما تتمنى الأخت لاختها السعادة فإني اتمنى لك السعادة تحياتي لڤلاديمير وقولي له عن لساني أن يعنى بزوجته الفتية. سوف اكتب لك عنواني الجديد لعلك تحتاجين إليه، وإذا كتبت لي فأني سوف أجيب على رسالتك. أنا وانت لسنا عدوين. ما كنا نقصد أن يسبب كل منا للآخر الألم.

اتمنى لك السعادة.

المخلصة ڤاسيليسا مالينفينا

كتبت عنوانها بأناقة، ووضعت الرسالتين في مظروف واحد. لعقت طرفه بلسانها ثم أغلقته. في تلك اللحظة فقط شعرت ڤاسيا انها النهاية.

لا ألم بعد اليوم، ولا أفعى معذبة، ولا حنين مضنٍ، ولا ڤولوديا «الامريكي». بات الآن مجرد ڤلاديمير ايڤانوڤيتش. حين فكرت لڤلاديمير تراءت لها نينا. وحين فكرت بنينا تراءى لها ڤلاديمير إلى جانبها. باتا كأنهما شخص واحد بالنسبة لها، لا ينفصلان ولا يقبلان القسمة. وكشخص واحد، ما عادا قابلين لإضفاء الشقاء عليها.

لقد استنفذ الحب القديم نفسه. احرق نفسه حتى الرماد، وشعرت بالسكينة في نفسها. بات بالها هادئاً صافياً بعد العاصفة.

- ١٦ -

ظلت واقفة إزاء النافذة تتأمل الغروب العاصف الأرجواني والغيوم ذات الأطراف الذهبية. غربان تنصب في بحثها عن مأوى. وفاحت رائحة أوراق ميتة وفطر وأرض خريفية. رائحة طفولة عذبة تختلف تماماً عن رائحة الهواء الميت الواهن في منزل ڤلاديمير. تنفست بعمق تملأ رئتيها وتطل من النافذة. وقع بصرها على غروشا في الباحة وكانت تجمع غسيلها عن الحبال. هتفت ڤاسيا:

ـ هيه، غروشا. تعالي بسرعة. لدي أخبار سعيدة أريد أن أخبرك إياها.

أجابت غروشا:

ـ إنني قادمة.

حين دخلت رمت الغسيل على السرير.

ـ حسن. ما هي الأخبار؟ هل وصلتك رسالة؟

ـ لم استلم رسالة، لكني انتهيت لتوي من كتابة رسالة. إحزري لمن؟

قالت غروشا:

ـ لا بد أنها لڤلاديمير ايڤانوڤيتش.

ـ خطأ، ليس له بل لصديقته. أو بالأحرى لزوجته المقبلة نينا كونتستنوڤنا.

سألتها غروشا بدهشة:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

شرحت ڤاسيا قائلة:

ـ لقد قرأت رسالة بعثت نينا بها إلى ڤلاديمير وبدأت أشعر بالشفقة عليها. لقد عانت بسببي الكثير. حتى أنها اجهضت بسببي. وتعذبت عذاباً لا داعي له. لسنا عدوين ولا متنافسين. لو أخذت ڤلاديمير مني دون أن تحبه بدافع من الطمع في ماله لما غفرت لها ولكنت حقدت عليها. ولكن الآن وبعدما عرفت كل شيء عنها، لماذا ابغضها؟ إنها تحب ڤلاديمير ايڤانوڤيتش، حباً عميقاً، أعمق من حبي له وهذا يمنحها الحق في أن تتزوجه. ليس لديها ما تعيش من أجله سوى ڤلاديمير ـ هذا ما كتبته. قالت: «بدونك اضيع» هل ڤلاديمير ضروري هكذا بالنسبة لي؟ لقد فكرت في الأمر ملياً يا غروشا وأدركت أن ڤلاديمير ليس مصدر شقائي. ولو عاد ڤولوديا الاميركي اليَّ لكان الأمر مختلفاً. لكنه ما عاد موجوداً بالنسبة لي. فلماذا إذن استمر في تعذيب نينا المسكينة وأقف عائقاً بينهما. لا أرغب في أن أعيش مع مدير.

قالت غروشا بحزم:

ـ أوافقك، أنت لا تصلحين زوجة لمدير. من المؤسف أن الكثير من المسؤولين فقدوا تواصلهم مع الناس وباتوا مدراء. لكن لا داعي للحزن يا ڤاسيليسا، فلا يزال أغلب الرفاق معنا. وعليك أن تلتقي بغير الحزبيين. الحق أقول لك، سوف تجدين بينهم بروليتاريين شيوعيين أكثر أصالة من أعضاء الحزب.

ـ نعم، هذا صحيح، ولكن رغم أننا نزداد قوة كل يوم. ولكن ماذا عن تلك المجموعة التي بدلت ولاءها الطبقي مقابل لحافات الحرير والمصابيح! إننا لا نتحدث اللغة ذاتها، لهذا كنت اتساءل لماذا أضهد نينا واتشبث بڤلاديمير وهو ليس متزوجاً مني بشكل صحيح ولا هو بمتحرر مني في آن معاً. أي نفع أجنيه؟ آن آوان طي هذه الصفحة نهائياً دون

تبادل الإتهامات. لقد عانينا جميعاً بما فيه الكفاية. ما كنت ادرك كل هذا حين تركته، وبقيت آمل وانتظر حدوث شيء ما، ما كنت اتبين طبيعته. كنت اعتقد أن انفصال ڤلاديمير عني بسبب امرأة أخرى سيسبب لي الهلاك. كنت اتعرض لنوبة تعاسة حادة حين جئت إلى هنا. ما كنت أعرف ماذا ينبغي أن أفعل. ولكن ما أن عدت الى العمل في اللجنة الحزبية حيث علي أن اهتم بمشاكل الآخرين حتى تبدد الألم تدريجياً. والآن. صدقي أو لا تصدقي ـ ما عدت اشعر بالغيرة أو الشقاء ابداً. اشعر بالسكينة الآن.

قالت غروشا وهي ترسم إشارة الصليب وترنو الى الأيقونة في ركن الغرفة:

ـ الحمدلله على ذلك، إذن لم تذهب صلاتي للعذراء وأنا جاثية كل تلك الليالي هباء. كنت ادعوها الى أن تشفق على امرأة مكتئبة وأن تساعد ڤاسيليسا المسكينة.

ابتسمت ڤاسيا:

ـ يبدو أن لا سبيل الى تقويمك يا غروشا. ألا تزالين مؤمنة بهذه الايقونات؟ لكنك محقة في أية حال. لقد شفيت تماماً الآن. خلال الشهور الأخيرة كنت أروح وأجيء وقد نسيت من اكون. نسيت الحزب. وكان كل شيء ضبابياً. لكني الآن أشعر بتحسن وأرى أن الحياة رائعة وكل شيء يبدو لي مثيراً وجديداً. لا ڤلاديمير بعد اليوم، لا شيء إلا الحزب. اذكر أني احسست بذلك بعد أن شفيت من التيفوئيد.

قالت غروشا:

ـ آمل أن لا ينال منك المرض مرة أخرى حين يبدأ زوجك بكتابة رسائل متشكية لك.

هزت ڤاسيا رأسها بتأمل وقالت:

ـ لا يا غروشا، لن يحدث هذا أبداً. أشعر وكأني كنت عرضة لثورة ذاتية. لقد تبدد الحزن وازيح الندم والعتاب. كنا نحن الثلاثة نتصارع وكأننا في دائرة ملعونة مسحورة، وكلنا نحاول الخلاص. كنا نتبادل الكراهية ولم ننجح في الهروب فواصلنا الدوران في دائرة الكراهية. لم أبصر مهرباً إلا حين بدأت اتفهم كيف تشعر نينا. ليس ثمة ما أغفر لها عنه، إنما أشعر بالشفقة عليها كما لو كانت شقيقتي. كل منا مر بنفس التجارب، عانت بقدر ما عانيت ولم تكن معاناتها بسبب غلطة ارتكبتها. ولكن لأن حياتينا أصبحتا بلا جدوى. ما أن بدأت أشعر معها حتى بدأت أتحسن يا غروشا.

قالت غروشا:

ـ هذا لا يفاجئني. إنه يعني انك ما عدت تحبينه قطعاً. لأن الحب جلاب للشقاء دائماً. ما أن يسمح لك الحب بومضة من السعادة حتى يتسلل الحزن إلى ظله. فإذا ما تبدد الحزن تبدد الحب ايضاً.

هزت ڤاسيا برأسها:

ـ من المحتمل أن يكون هذا صحيحاً. لم أقلع عن حب ڤلاديمير. لا يزال عزيزاً على قلبي، لكن حبي له تغير. لقد اختفت البغضاء القديمة. إنني سعيدة لأننا كنا متحابين وسعيدين. ولماذا اغضب منه؟ غلطة من هي إن كان لا يحبني الآن؟ إني فرحة للماضي. بات ڤلاديمير ونينا مثل شقيق وشقيقة لي الآن. صدقيني يا غروشا انني أعني ذلك. كنا سعيدين. آن أوانهما الآن. لكل إنسان الحق في ذلك ما دام الأمر لا يعني الأكاذيب والخداع.

ـ كل ما تقولينه حول الخداع صحيح، لكني أعجز عن فهم قدرتك على اعتبار نينا مثل أختك. كأنما بتِ فيلسوفة يا ڤاسيليسا. من الأفضل أن لا تسرفي في التفلسف. وإلا بالغت في شيوعيتك ايضاً. طبعاً من الأفضل

أن تغفري لڤلاديمير من اجل نينا وتنسي. ما هو خارج العقل يكون خارج الذهن، ولكن لا حاجة بك إلى أن تحبينهما. خليق بك أن تخصي العمال بحبك وبعطفك فهم يحتاجون اليهما. لقد بدأوا يفقدون ثقتهم وإيمانهم، إنهم بحاجة إلى رفع المعنويات والأمل وليس إلى الإكثار من التنظير العقائدي الحزبي. صدقيني يا ڤاسيليسا انني أعرف ما الذي يجري، وأفهم الشيوعية مثلما تفهمينها انتِ.

- طبعاً يا غروشا، انت واحدة منا. الكل يعرف ذلك. ولكن كيف تحافظين على إيمانك بايقوناتك هذه؟ لا تغضبي مني، كفي عن العبوس في وجهي هكذا. اسحب ما قلت. لا أرغب في جدال. لأن هذا اليوم هو يوم خاص. الحق أني أشعر بضرب من الطيش، إنني سعيدة جداً. ولن يسعك أن تخمني ما الذي شفاني.

- انني عاجزة عن تخمين ذلك ببساطة.

- إنهما الزوجين فيودوسيڤ.

- هذا مدهش! في هذه الحال اتمنى لهما حياة سعيدة، وسأغفر للسيدة فيودوسيڤا الفظة كل خطاياها.

انفجرت كل منهما ضاحكة. استأنفت ڤاسيا:

- لكني لم اخبرك حتى الآن الأخبار الجوهرية يا غروشا، لقد ذهبت إلى الطبيب.. انني حامل.

- حامل.

صفقت غروشا مستثارة. ثم قالت بصوت أكثر رصانة:

- ولكن يا ڤاسيا، كيف سمحت لزوجك أن يمسك؟ ليس بوسعك أن تربي طفلاً بلا أب. أم انك ترغبين في إجراء عملية إجهاض، شأن الجميع هذه الأيام.

ـ ولماذا أُجهض؟ بوسعي أن أربي طفلاً لوحدي. وما حاجتي لزوج؟ حكاية الآباء ليست سوى خرافة. انظري الى السيدة فيودوسيڤا: عليها أن تُعنى بثلاثة اطفال بعدما رحل زوجها مع دورا.

ـ ولكن كيف سيتسنى لك أن تُعني بطفلك وحيدة؟

ـ ماذا تعنين «بوحدك»؟ كل شيء سيكون على ما يرام، وسوف ننشىء دار حضانة. الحق انني فكرت في سؤالك إن كنت ترغبين في مساعدتنا لادارة دار الحضانة. أعرف انك تحبين الأطفال. وقريباً سيكون لنا طفل جديد.. لنا كلنا.

ـ طفل شيوعي!

ـ بالضبط.

انفجرت كل منهما بالضحك.

ـ عليّ أن أحزم حقائبي الآن يا غروشا. سوف ينطلق القطار في صباح الغد الباكر. منذ الغد سوف أشرع في العمل وسأنظم حياتي بطريقة صحيحة. لقد منحني ستيبان اليكسيڤتش بركته. انني سعيدة لأنني عائدة إلى العمل مرة أخرى يا غروشا، لا يسعك أن تتصوري كم أنا سعيدة.

قبضت على يد غروشا وراحتا تدوران في الغرفة مثل طفلين حتى اوشكتا على الارتطام بدمية الخياطة واسقاطها. وأرسلت كل منهما ضحكات صاخبة عريضة حتى أن الناس الذين يقفون في الباحة سمعوا قهقهتهما. هتفت ڤاسيا:

ـ علينا أن نحيا يا غروشا.

نحيا ونعمل، نعمل ونكافح، نحيا ونحب الحياة، مثل النحل في الليلك، مثل العصافير في أسفل الحديقة، مثل صرصار الليل في العشب.

ذاكرة الشعوب

المحرر: **الياس خوري**

صدر منها:

١ـ فرديناند أيونو:	**الصبي الخادم**	كاميرون
٢ـ كين كيسي:	**طيران فوق عش الوقواق**	الولايات المتحدة
٣ـ جاك رومان:	**سادة الندى**	هاييتي
٤ـ ب. ترافن:	**انتفاضة المشانق**	المكسيك
٥ـ غينوا اتشيبي:	**الأشياء تتداعى**	أفريقيا
٦ـ كامارا لاي:	**الولد الأسود**	غينيا
٧ـ كمالا ماركاندايا:	**رحيق في غربال**	الهند
٨ـ بيتر أبراهامز:	**فتى المنجم**	أفريقيا الجنوبية
٩ـ أريش ماريا ريمارك:	**ثلاثة رفاق**	ألمانيا
١٠ـ غابرييل أوكارا:	**الصوت**	أفريقيا
١١ـ رجيس دوبريه:	**غير المرغوب فيه**	فرنسا
١٢ـ عبداللطيف اللعبي:	**مجنون الأمل**	المغرب
١٣ـ أريش ماريا ريمارك:	**ليلة لشبونة**	ألمانيا
١٤ـ كارلوس فوانتس:	**موت أرتيميو كروز**	المكسيك
١٥ـ غينوا اتشيبي:	**مضى عهد الراحة**	نيجيريا
١٦ـ جورج لمنغ:	**في قلعة جلدي**	الكاريبي
١٧ـ استورياس:	**السيد الرئيس**	غواتيمالا
١٨ـ دوميتيلا دوشنغارا:	**دعوني أتكلم**	بوليفيا
١٩ـ صنبين عثمان:	**الحواله**	السنغال
٢٠ـ الكسندرا كولنتاي:	**حب عاملة النحل**	الاتحاد السوفياتي

روايـة من الاتحاد السّوفيـاتي

حُبّ عاملة النحل

الكسندرا كولنتاي هي إحدى المفكرات والمناضلات القليلات اللواتي عشن تجربة الثورة الاشتراكية، وحاولن التفكير حول موضوع تحرر المرأة. فإبنة الجنرال السابق في الجيش الروسي القيصري كانت واحدة من المجموعة القليلة التي رافقت لينين في قطار العودة عبر المانيا، وشغلت منصب مفوضـة الشعب لشؤون الخدمات العامة في أول حكومة ثورية أسسها لينين. بالاضافة إلى ذلك فقد نشرت كولنتاي مجموعة من الكتب حول المرأة: «الشيوعية والمرأة»، «الأخلاق الجديدة والطبقة العاملة»، «الأسس الاقتصادية لمسألة المرأة».

تنقل رواية «حب عاملة النحل»، بأسلوبها الواقعي، وبلهجتها القريبة من السيرة، تناقضات المراحل الأولى لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي. فهي تعالج مشكلات الحياة الجماعية والحب والزواج والأطفال، عبر كشفها للتناقضات الاجتماعية التي رافقت نشوء العلاقات الجديدة. فقيمة هذه الرواية هي في الاسئلة التي تطرحها، وفي المعاناة التي تنقلها، وفي صوت المرأة الذي يرتفع معلناً التوق إلى الحرية.

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م